فريدريش نيتشه

ما وراء الخير والشر

توطئة لفلسفة مستقبلية

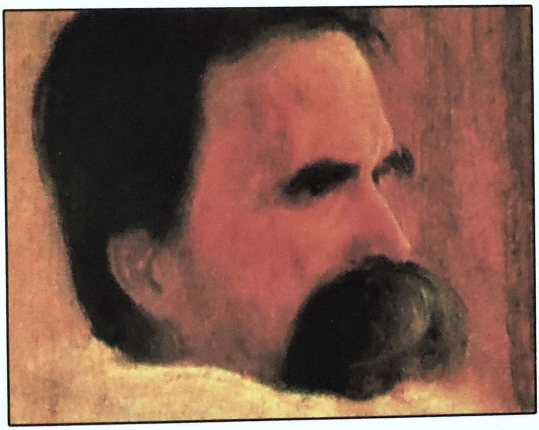

ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

فريدريش نيتشه

ما وراء الخير والشر

توطئة لفلسفة مستقبليّة

ترجمة: علي مصباح

منشورات الجمل

فريدريش نيتشه: **ما وراء الخير والشر**، الطبعة الأولى
ترجمة: علي مصباح
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٨
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Friedrich Nietzsche: *Jenseits von Gut und Böse - Vorspiel einer Philosophie der Zukunft*. 1886

© *Al-Kamel Verlag* 2018
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

في ماوراء الخيرِ والشرّ كنت ألتذُّ
بالنورِ مرّةً، ومرةً بالظلال،
كلّيَ لعبٌ،
كلّي بحرٌ، كلّي ظهيرةٌ، كلّي زمانٌ بلا غايةٍ.

(«العلم المرح»: سيلس ماريا- من أناشيد الأمير الخارج عن القانون)

مقدمة

إذا ما افترضنا أن الحقيقة امرأة؛ ألا يكون من المبرّر عندها أن يخامرنا الشك بأن جميع الفلاسفة، بوصفهم دوغمائيين، قليلو دراية بالمرأة؛ وأن الجدية المريعة والإلحاح الأخرق اللذين ظلا يقاربان بهما الحقيقة كانا وسيلتيْن على غاية من الرعونة وقلة النجاعة كيما يفلحا في استمالة امرأة؟ من المؤكد أن هذه الأخيرة لم تدع نفسها تنساق إليهم؛ -وكل دوغمائية تقف اليوم في حال من الأسى والإحساس بالخذلان. -هذا إذا ما كتب لها أن تظل قائمة بعد! إذ هناك ألسنة سوء تدّعي اليوم بأنها سقطت وغدت في الحضيض، بل وأسوأ من ذلك، أن الدوغمائية في مجملها تلفظ أنفاسها الأخيرة حاليّا. ولكي نتكلم بجديّة، هناك ما يبعث على الأمل في أن مجمل الدوغمائية في الفلسفة، مهما كانت نبرتها الاحتفالية وهيأتها الواثقة القطعية، لم تكن في الحقيقة أكثر من صبيانية نبيلة ومجرد محاولات مبتدئين؛ ولعلنا غدونا الآن قريبين جدّا من اللحظة التي سندرك فيها أي نوع من حجر أساس قد تمّ وضعه لذلك البناء الفلسفي القطعيّ الجليل الذي أسسه الدوغمائيون: ضرب من خرافة شعبية من أزمنة غابرة (مثل خرافة الروح التي ما زالت تمارس عملها المضرّ حتى يومنا هذا في شكل خرافة الذات والأنا)؛ ربما هي لعبة لغوية ما، غواية متأتية عن حيلة

نحويّة، أو تعميمٌ جَسور لوقائع محدودة جدًّا، شخصية جدّا، إنسانية جدّا ومفرطة في إنسانيّاتها. ولعل الفلسفة الدوغمائية لم تكن، كما نرجو ذلك، سوى وعد مارس إغراءه لبضعة آلاف من السنين، حالها حال التنجيم في عصور قديمة سابقة، والذي بُذلت من أجله جهود وأموال وذكاء وصبر أكثر مما بُذل حتى الآن من أجل أيّ علم حقيقيّ، -التنجيم الذي ندين له مع ذلك، ولطموحاته «السماوية» بذلك الطراز المعماري الهائل في آسيا ومصر.

يبدو أن كل الأشياء العظيمة لا تستطيع أن تغزو قلب الإنسانية بمتطلباتها الأبدية إلا إذا ما كان عليها بدءًا أن تظل لمدة من الزمن تجوب الأرض في هيأة أقنعة فظيعة مفزعة: وكانت الفلسفة الدوغمائية واحداً من تلك الأقنعة المفزعة، متمثلة في مذهب الفيدانتا في آسيا والأفلاطونية في أوروبا. وعلينا ألا نكون جحودين تجاهها إذًا، وإن كان علينا أن نعترف بأن أشنع خطأ من بين كل الأخطاء وأخطرها وأطولها عمراً كان خطأً دوغمائيًّا، أي ذلك الاختراع الأفلاطوني المتمثل في الروح المحض والخير في ذاته. غير أننا الآن، وقد تم التغلب عليه وتجاوزه، وفي زمن تنفست فيه أوروبا الصعداء بعد ذلك الكابوس وغدا بإمكانها أن تنعم على الأقل بنوم أكثر عافية، قد غدونا، *نحن الذين أُلقيت على عاتقنا مهمة الحفاظ على اليقظة نفسها*، ورثةً لمجمل الطاقة التي نشأت وترعرعت في الصراع ضد ذلك الخطأ. وعلى أية حال فإن الكلام عن الروح وعن الخير، على غرار ما فعل أفلاطون، سيعني قلباً للحقيقة رأساً على عقب ونفيا للمنظورية نفسها، الشرط الأساسي لكل حياة؛ وسيحق للمرء، كطبيب، أن يتساءل: «من أين جاء هذا المرض الذي أصاب أجمل إفراز للعصور القديمة، وهو أفلاطون؟ أيكون سقراط الخبيث هو الذي أفسده؟ أكان

سقراط فعلا مفسداً للشباب، وبذلك استحق جرعة الشوكَران؟» -لكن الصراع ضد أفلاطون، أو، ولكي نتكلم بعبارات يفهمها الشعب، الصراع ضد ضغوطات المسيحية الكنسية المتواصلة لآلاف السنين - ذلك أن المسيحية ليست شيئا آخر غير صيغة «شعبية» للأفلاطونية - قد خلق توتّراً ذهنيّا بديعاً لم يُعرف له مثيل على مرّ العصور: وبقوسٍ مشدودة على هذا النحو قد غدا بإمكاننا الآن أن نرمي بسهامنا باتجاه الأهداف الأكثر بعداً. صحيح أن الإنسان الأوروبي يعيش هذا التوتر كحالة شدّة؛ وقد حدث لمرتين أن قام على نطاق واسع بمحاولة لإرخاء القوس، مرة عن طريق المذهب اليسوعي، ومرة أخرى عن طريق التنوير الديمقراطي. وقد تنجح هذه المحاولة الأخيرة بواسطة حرية الصحافة والمواضبة على قراءة الجرائد في جعل العقل لا يحس بنفسه عنصر «شدّة»! (لقد اخترع الألمان البارود -كل تقديرنا على هذا الاختراع! غير أنهم تداركوا أنفسهم، فاخترعوا الصحافة). لكننا، نحن الذين لسنا يسوعيين ولا ديمقراطيين، ولا حتى بألمان بما يكفي، نحن الأوروبيين الجيّدين، والعقول الحرة، الحرة جدًّا -ما زلنا نمتلك ذلك: كامل شدّةِ العقل، وكل توتّرِ قوسه! وربما السهمَ أيضا، والمهمةَ-والهدفَ -من يدري؟

سيلس ماريا، أونغادين العليا
جوان ١٨٨٥

الفصل الأول

عن الأحكام المسبقة للفلاسفة

1

إرادة الحقيقة، التي ستظل تدفع بنا إلى مجازفات عديدة، تلك الصدقيّة الشهيرة التي ظل كل الفلاسفة يتكلمون عنها بكثير من الإجلال حتى الآن: أية أسئلة ظلت إرادة الحقيقة هذه تطرح علينا! وأية أسئلة غريبة، سيئة ومريبة! إنها قصة طويلة، ومع ذلك يبدو كما لو أنها لم تبدأ إلا قبل حين! أيّ غرابة إذًا إن غدونا مرتابين بالنهاية، وإذا ما نفد صبرنا وصرنا نتقلّب قلقين؟ وإذا ما تعلمنا من أبي الهول هذا أن نصبح بدورنا طارحي أسئلة؟ من هذا الذي يطرح علينا أسئلة هنا؟ أيّ شيء فينا بالنهاية هو هذا الذي يريد «الحقيقة»؟[1] - لقد توقفنا طويلا في الواقع عند السؤال عن سبب هذه الإرادة، إلى أن وجدنا أنفسنا في آخر المطاف أمام سؤال أكثر عمقاً: رحنا نتساءل عن *قيمة* هذه الإرادة. فإذا ما افترضنا أننا نريد الحقيقة: *لِم* لا نريد *بالأحرى* اللاحقيقة؟ اللايقين؟ بل حتى الجهل؟ -ها قد اعترضتْ طريقنا مشكلةُ قيمة الحقيقة إذاً! أم ترانا نحن الذين مضينا لملاقاة هذه المشكلة؟ من منّا أوديب ومن أبو الهول هنا؟ ههنا ملتقى للأسئلة وعلامات الاستفهام على ما يبدو. هل تصدّقون؟

إنه يتراءى لنا بالنهاية أن هذه المشكلة لم تُطرح من قبل أبداً، كما لو أننا نحن أوّل من انتبه إليها ووضعها نصب عينيه وجازف بمعاينتها؟ إذ، في الأمر مجازفة حقًّا، وربما تكون المجازفة الكبرى على الإطلاق.

2

«كيف يمكن لشيء أن ينشأ عن نقيضه؟[٢] الحقيقة عن الخطأ مثلا؟ أو إرادة الحقيقة عن إرادة الخداع؟ أو الفعل الغيريّ عن المصلحة الشخصية؟ أو رؤية الحكيم النقية والمشعّة عن الرغبة؟ إن نشأة من هذا النوع مستحيلة، ومن يحلم بهذا فهو معتوه، بل أسوأ من ذلك؛ فالأشياء ذات القيمة الأسمى لابد أن تكون نابعة عن أصل مغاير *خاص بها*، ولا يمكنها أن تكون متأتية عن مثل هذا العالم الوضيع الفاني المضلِّل الخادع، عن هذا الخليط الغامض من الوهم والشهوات! بل في حضن *الكائن اللامشروط*، في الخالد، في الإله الخفيّ، في «الشيء في ذاته»؛ هناك ينبغي أن يكون منبعها، وليس في أي مكان آخر غيره!»[٣] -هذا النوع من الأحكام هو جوهر الحكم المسبق النموذجي الذي يمثّل العلامة المميّزة للميتافيزيقيين من كل العصور؛ وهذا النوع من التقييم هو ما يكوّن خلفيّة كلّ إجراءاتهم المنطقيّة. ومن منطلق «إيمانهم» هذا يجتهدون في تدبّر «علمهم»، من أجل شيء سيعمّدونه بالنهاية بطريقة احتفالية ظافرة باسم «الحقيقة». إن الإيمان الأساسي للميتافيزيقيين هو *الإيمان بتناقض القيم*. وأكثرهم حذراً لم يخطر لهم البتة أن يقفوا متشككين وهم على عتبة إجرائهم، هناك حيث يكون الشك حاجة أولى، -حتى وهم يعلنون القسم بـ"de omnibus debitandum" (ضرورة الشك

في كل شيء).[*] يجوز لنا في الحقيقة أن نشك، وأن نتساءل أولاً عما إذا كانت هناك تناقضات أصلاً، وثانياً عما إذا لم تكن تلك التقييمات والتناقضات القيَمية المتداولة لدى الشعب، والتي ختم عليها الميتافيزيقيون بختْمهم، تقييمات سطحية في الحقيقة، مجرد منظورات عارضة، وربما من زاوية محددة علاوة على ذلك، من أسفل إلى أعلى مثلا، زاوية يمكننا أن نسميها بمنظور الضفدعة، كي نستعير تعبيرا غدا متداولا بين الرسامين؟ وأيّا كانت القيمة التي يمكن أن نضفيها على ما هو حقيقي وصادق وغيريّ، فإنه من الممكن أيضا أن يكون علينا أن نعترف للظاهر وإرادة الخداع، والمصلحة الفردية والرغبات بقيمة أعلى وأساسية بالنسبة لكل حياة. بل ولعله من الممكن أيضا أنّ ما يكوّن قيمة كل تلك الأشياء الحسنة والتي تحظى بالإكبار يتمثل بالذات في كونها ذات قرابة وترابط وتشابك على نحو محرج مع تلك الأشياء السيئة والمناقضة لها ظاهريا، وربما تكون مماثلة لها أيضا. ربما! -لكن من تراه يريد أن يولي اهتماما بمثل هذه الـ«ربما» الخطيرة؟[٤] سيكون علينا أن ننتظر حلول جنس جديد من الفلاسفة من أولئك الذين يتمتعون بذوق وميل معاكسيْن لما كان عليه الفلاسفة حتى الآن، -فلاسفة الـ«ربما» الخطيرة بكل ما للعبارة من معانٍ. -وبكل جديّة: إنني أرى مثل هؤلاء الفلاسفة مقبلين.

(*) تعني في اللاتينية: كل شيء يجب أن يكون خاضعا للشك. مقولة لديكارت قد اتخذها الفيلسوف واللاهوتي الدانماركي كيركغارد عنوانا لكتاب له نشر بعد وفاته

3

بعد أن قضّيت ما يكفي من الوقت في قراءة ما بين سطور الفلاسفة ومعاينة الحركات الخفية لحيلهم، أقول لنفسي: لابد أن نضع التفكير الواعي داخل خانة الأفعال الغريزية، بما في ذلك التفكير الفلسفي نفسه. علينا هنا أيضا أن نعيد النظر في رؤيتنا للأشياء، على غرار ما قمنا به في ما يتعلق بالوراثة وبـ«الخصال الفطرية». فبقدر ما للولادة من دور ضئيل في مجمل مسار الوراثة، كذلك لا يكون «الوعي» *مناقضا* على نحو صارم للأشياء الغريزية؛ فالجزء الأكبر من التفكير الواعي لفيلسوف ما يظل مسيّراً على نحو سريّ بغرائزه، ومرغماً على المضيّ على درب بعينه. خلف المنطق نفسه، وخلف الاستقلالية الظاهرة لتحرّكه تقف تقييمات، أو بعبارة أوضح إملاءات فيزيولوجية ترمي إلى حفظ نوع بعينه من الحياة. لنأخذ على سبيل المثال مقولتيْ «المحدَّدُ أكثر قيمةً من اللامحدَّد»، والظاهر أقل قيمة من «الحقيقة»: لا يمكن لمثل هذه الأحكام القيمية، وبالرغم مما لها من أهمية إجرائية بالنسبة لنا، أن تكون غير أحكام سطحيّة،[٥] وضرب من السخافة قد تكون ضرورية لحفظ كائنات من نوعنا. مع افتراض أن الإنسان تحديداً أبعد عن أن يكون «معيار الأشياء»[*]...

4

إن خطأ حكم ما لا يمثل لدينا مأخذاً على الحكم عموماً؛ وهذا ما يجعل لغتنا الجديدة قد تبدو الأغرب وقعاً على المسامع. ويظل

(*) مقولة ظلت لعدة قرون تعتبر مقولة أساسية في الفكر والفلسفة الأوروبيين ويعرف بمبدأ Homo-Mensura المنحدر من الفلسفة الأغريقية عن بروتاغوراس على ما يبدو والمعروف في ضيغته اللاتينية بـ "Omnium rerum homo mensura est" – أو: «الإنسان هو معيار الأشياء كلها». (م)

السؤال بالأحرى هو: إلى أيّ مدى يكون هذا الحكم مدعِّما للحياة، حافظاً للحياة، حافظا للنوع، وربما مطوّرا للنوع أيضا؟ ونحن نميل مبدئيًّا إلى الزعم بأن أكثر الأحكام خطأ (ومن بينها الأحكام التأليفية القبليّة) قد تكون هي الأكثر لزوماً لنا، وأن الإنسان لا يمكنه أن يحيا من دون إقرار بصحة المتخيَّلات المنطقية، ومن دون قياس الواقع على عالم المطلَق اللامشروط الذي هو محض ابتداع، وعلى المماثلِ لذاته، ومن دون تزوير مستمرّ للعالم بواسطة العدد؛ وأن الاستغناء عن الأحكام الخاطئة سيكون بالتالي استغناء عن الحياة، ونفياً للحياة. أن نقرّ بما هو خطأ شرطاً للحياة يعني بطبيعة الحال الدخول في مواجهة خطيرة مع الأحاسيس القيَمية المعتادة؛ والفلسفة التي تتجرأ على هذا الأمر تكون قد وضعت نفسها بذلك في ما وراء الخير والشرّ.

5

ما يدفع بنا إلى النظر إلى كل الفلاسفة نظرة نصفها ارتياب ونصفها سخرية لا يعود إلى كوننا نلاحظ باستمرار مدى ما يتصفون به من براءة، ومدى وقوعهم غالبا وبسهولة في الخطأ، أي باختصار، مدى رعونتهم وصبيانيتهم، بل إلى كونهم لا يتحلّون بقدر كاف من النزاهة، بينما يصدّعون آذان العالم من حولهم بجلبة فضيلتهم حالما يتم التطرق، ولو من بعيد، إلى مسألة الصدق. يتظاهرون جميعهم بأنهم قد توصلوا إلى آرائهم الخاصة واكتشفوها من خلال تطور ذاتي لجدل بارد نقيّ، ألوهي الطمأنينة (خلافا للمتصوّفة على اختلاف مراتبهم، الذين هم أكثر نزاهة منهم وأكثر سذاجة، إذ يتكلمون عن «إلهام»)؛ بينما يدافعون في الحقيقة، وبواسطة حجج يتوسّلونها لها بعديّا، عن مقولة مسلّم بها، عن خاطرة، أو فكرة من وحي الإلهام،

وغالبا عن رغبة عزيزة على قلوبهم تمت تنقيتها ومُنحت طابعاً مجرّدا. إنهم جميعهم محامون متستّرون، بل في أغلب الأحيان مدافعون ماكرون عن أفكارهم المسبقة الخاصة، التي يعمّدونها باسم «حقائق»، بعيدون كل البعد عن شجاعة الضمير التي تقرّ بالأمر-بهذا الأمر بالذات-، بعيدون كل البعد أيضاً عن الذوق الرفيع للشجاعة، الذي يجعلهم يفصحون عن ذلك، إما لتنبيه عدوّ أو صديق، أو بدافع من خفة طائشة، لأجل السخرية من أنفسهم مثلا. إن الرياء المتصلّب والوجِل في الآن نفسه، الذي يتوخاه كنط العجوز ليستدرجنا إلى الشعاب الجدلية التي تقودنا بدورها، أو بالأحرى تجرنا، إلى «ملزِمه المطلق»، -تلك المهزلة تجعلنا نبتسم، نحن المتطلّبين الذين نجد متعة وأية متعة في كشف الألاعيب الدقيقة للأخلاقانيين والوعاظ الأخلاقيين القدامى، أو تلك الطلاسم السحرية ذات الشكل الرياضي، التي يقنّع بها سبينوزا فلسفته -أو بعبارة أفضل «حبّه لحكمته»- ويغلّفها بما يشبه درعاً من البرونز، ليزجر بذلك كل من يمكن أن تحدثه نفسه بإلقاء نظرة على عذرائه المصون: بالاس أثينا المحصّنة: -أيَّ خجل، وأية هشاشة تفشي هذه المهزلة لدى ذلك الناسك المريض!

6

شيئا فشيئا راح يتضح لي أمر كل فلسفة كبرى مما عرفنا حتى الآن: حقيقة كونها جملة اعترافات يقوم بها صاحبها، ونوعاً من مذكرات لا إرادية وغير مدرَكة. كما تبيَّن لي أيضا أن النوايا الأخلاقية (أو اللاأخلاقية) في كل فلسفة كانت تمثل البذرة الحقيقة التي تنبثق عنها النبتة بكاملها في كل مرة. وسيكون من الأفضل (ومن الفطنة)، إذا ما أردنا تفسير الكيفية الحقيقية التي نشأت بها أبعدُ المزاعم

الميتافيزيقية لفيلسوف ما، أن نبدأ دوما بطرح هذا السؤال: إلى أية أخلاق ترمي (أو يرمي صاحبها)؟ وبالتالي لا أعتقد أن «غريزة معرفة» مّا هي أمّ الفلسفة، بل إن غريزة أخرى، هنا كما في أي موضع آخر، قد استعملت المعرفة (أو سوء المعرفة) أداةً لها، ليس إلاّ. لكن كل من نظر في الغرائز الأساسية للإنسان وإلى أيّ مدى تمضي في لعبتها، هنا بالذات، كجنيّات إلهام (أو كشياطين وعفاريت)، سيرى أنها جميعها قد تعاطت فلسفةً في يوم ما؛ وأن كل واحدة منها تحاول أن تطرح نفسها هي بالذات في مقام الغاية النهائية للوجود، *والسيّدة* الشرعيّة على بقية الغرائز الأخرى. ذلك أن كل غريزة متعطشة إلى السيطرة؛ وبما هي كذلك تحاول أن تتفلسف. طبعاً، قد يكون الأمر على غير ذلك -أو على نحو «أفضل»، إذا ما أردنا- لدى العلماء، أي رجال العقل العلمي الحقيقيين، إذ يمكن أن يكون هناك فعلا شيء مما يمكن أن نعتبره غريزة معرفة، آليّة صغيرة مّا مستقلة، إذا ما تمّ تعديلها جيّدا، تنطلق في أداء وظيفتها بكل حزم، *دون* أن يكون لبقية غرائز العالِم من دور يذكر في عملها هذا. لذلك عادة ما تكون «الاهتمامات» الحقيقية للعالم متجهة نحو موضع آخر: نحو العائلة مثلا، أو إلى الكسب، أو إلى السياسة؛ وبالتالي فإنه من غير المهمّ تقريبا أن تكون تلك الآلية الصغيرة معدّلة للاشتغال في هذا المجال أو ذاك من مجالات العلم، وسيكون سيّان أن يصبح ذلك العامل المجتهد الصغير فيما بعد فيلولوجيًّا جيّداً أو كيميائيا أو خبيرا في أنواع الفِطر: فلا شيء مما سيكونه فيما بعد يحدّد شخصيته. وعلى العكس من ذلك، ما من شيء لاشخصيٍّ لدى الفيلسوف؛ وأخلاقه بصفة أخصّ تقدّم شهادة صارمة وقاطعة حول من هو -أي: على أي نحو ووفقاً لأي تراتبٍ تنتظم الغرائز الأكثر عمقاً لطبيعته.

7

يا لخبث الفلاسفة! لم أعرف قط عبارة أكثر لذعاً من تلك التي أطلقها أبيقور على أفلاطون والأفلاطونيين عندما سماهم بـ: ديونيسوكولاكس. وتعني حسب ظاهر لفظها «متملّقو ديونيسيوس»، أي زبانية الطاغية، ومتزلّفون له(*). غير أنه يعني بذلك أيضا أنهم «كلهم ممثلون، وما من شيء جديّ فيهم» (إذ عبارة «ديونيسوكولاكس» Dionysokolax كانت تسمية شعبية تطلق على الممثل). وهذا المعنى الأخير هو الفحوى الحقيقية للسهم الشرير الذي أطلقه أبيقور على أفلاطون: كانت تسيؤه هيأة العظمة، وبراعة استعراض الذات التي كان يتقنها أفلاطون وتلامذته، الأمر الذي لم يحذقه أبيقور معلّم ساموس العجوز الذي كان يجلس مختفياً داخل حديقته الصغيرة بالقرب من أثينا ليحرر ثلاثمائة كتاب. من يدري، ربما فعل ذلك عن غيض وتكبّر على أفلاطون؟ -وكان لابد من ألف سنة كي تكتشف اليونان أخيراً من كان حقًّا أبيقور، ذلك الإله المختفي في حديقته. -لكن، هل اكتشفت ذلك حقّا؟

(*) المقصود هنا ليس الإله الإغريقي ديونيزوس، بل ديونيسيوس الثاني الطاغية، حاكم الجالية اليونانية في سيراقوسة من القرن الرابع ق م. وقد استلهم أبيقور لقب متملقي ديونيزيوس الذي أطلقه على أفلاطون من واقعة السفرات الثلاثة التي قام بها أفلاطون إلى سيراقوسة لملاقاة ديونيسيوس ومحاولة إجراء مصالحة بينه وبين ديون الذي كان صهرا للطاغية. كان ديون رجل سياسة من تلامذة أفلاطون، وقد جعلته تعاليم أفلاطون(الجمهورية) المناهضة للطغيان يدخل في خلاف مع الطاغية ديونيسيوس.

8

في كل فلسفة هناك نقطة تتجلى عندها قناعة الفيلسوف للأنظار؛ أو لنقل بلغة لغز قديم:

Adventavit asinus
Pulcher et fortissimus.(*)

9

«وفقا للطبيعة» تريدون أن تعيشوا؟ أيَّ خداع لغويّ هذا، أيها الرواقيّون النبلاء! لتتصوروا كائناً على صورة الطبيعة: مبذّراً دون حدّ، لامبالياً دون حدّ، بلا نوايا ولا اعتبارات، بلا رحمة ولا عدل، خصباً ومجدَباً وغير ثابت في آن واحد؛ لتتصوروا اللامبالاة عينَها سلطةً، فكيف *ستستطيعون* أن تحيوا وفقاً لها؟ أن نحيا، ألا يعني ذلك أن نريد أن نكون على نحو مغاير للطبيعة؟ ألا تعني الحياة أننا نريد أن نقدّر ونفضّل، أن نكون ظالمين، ومحدودين ومغايرين؟ ولنفترض أن ملزِمكم القائل بضرورة «العيش وفقا للطبيعة» يعني في جوهره «أن نعيش وفقا للحياة»؛ فهل *بوسعكم* أن تفعلوا غير ذلك على أية حال؟ وأي داع إذاً إلى أن تجعلوا لأنفسكم قانوناً مما أنتم عليه، ولا يسعكم إلاّ أن تكونوا عليه؟ لكن الأمر في الحقيقة هو غير ذلك كليًّا: فأنتم، فيما تدّعون بكل غبطة أنكم تقرأون قانون شريعتكم في الطبيعة، ترمون إلى عكس ذلك تماماً، أيها الممثلون الغريبون المخادعون لأنفسكم! غروركم يريد أن يملي على الطبيعة نفسها أخلاقكم ومُثلكم ويُلبسها إياها، وتطالبون بأن تكون طبيعة «مطابقة لمقولات الرواق»(**)،

(*) جاء الحمار/ جميلا وقويًّا

(**) إشارة إلى مذهب الرواقيين

وتريدون أن تجعلوا الوجود بكليته وجوداً على صورتكم؛ صورة فظيعة لرواقيّة ممجَّدة وكونية خالدة! ومع ما تكنّونه من حب للحقيقة، فقد رحْتم ترغمون أنفسكم إرغاما لمدة طويلة وبأقصى ما يمكن من الإصرار والعناد ومن التحجّر على رؤية الطبيعة في *صورة خاطئة*، أي على صورة رواقيّة، حتى أصبحتم لا تستطيعون رؤيتها على غير تلك الصورة؛ ثم إن غروراً عميقا ما قد زيّن لكم بالنهاية وهماً جنونيّا جعلكم تعتقدون بأنه، وكما استطعتم أن تتعسفوا على أنفسكم-إذ الرواقية تعسف على الذات-، سيكون بإمكانكم التعسف على الطبيعة أيضاً: أفليس الرواقي جزء من الطبيعة هو أيضا؟ . . . غير أن هذه قصة قديمة وأزلية؛ فالذي حدث مع الوراقيين في ما مضى، يحدث اليوم أيضا؛ حالما تشرع فلسفة ما في الإيمان بنفسها، تشرع في تشكيل العالم على صورتها، لامفر لها من ذلك. فالفلسفة هي تلك الغريزة الطغيانية عينُها، إنها إرادة القوة الأكثر روحانية، «إرادة الخلق»، وإرادة العلّة الأولى- causa prima.

10

إن الحماس والبراعة، بل وأكاد أقول المكر، التي يتكالب بهما الناس اليوم في كامل أوروبا على مسألة «العالم الحقيقي والعالم الظاهري» يدفعان بنا إلى التفكّر والإصغاء؛ ومن لا يسمع في خلفية هذا الجدل غير «إرادة الحقيقة» ولا شيء غيرها، فهو بكل تأكيد لا يتمتّع بسمع مرهف. هناك بكل تأكيد حالات منفردة ونادرة يمكن أن يكون فيها لـ«إرادة الحقيقة هذه» تدخّلٌ ما، كضرب من الجرأة الطائشة والمغامرة، أو طموح ميتافيزيقي مّا متعلق بمواقع مفقودة يفضّل بالنهاية قدرا ضئيلا من «اليقين» على ما يعادل حمولة عربة كاملة من

الإمكانيات الجميلة؛ بل يمكن أن يكون هناك أيضا بعض الطهرانيين من ذوي الضمائر المتعصبة، الذين يفضلون الاضطجاع فوق عدم يقينيٍّ على أن يموتوا متوسّدين شيئا لايقينيًّا. لكنّ هذا عدمية وعلامةً روح يائسة محتضرة، أيّا كانت مظاهر الفتوّة والشجاعة التي تبديها مثل هذه الفضيلة. غير أن الأمر يبدو على غير هذا النحو لدى المفكرين المتينين، المفعمين طاقة حياتية، والمتعطشين دوما إلى الحياة: فهؤلاء، وهم يتخذون موقفاً ضد *الظاهر*، ويلهجون بعبارة «منظوريّ» بنبرة لا تخلو من غرور، وفيما هم لا يمنحون من المصداقية لأجسادهم الخاصة أكثر مما يمنحون للظاهر البصري الذي يوحي لنا بأن «الأرض ثابتة في موقعها»، متخلّين بموجب ذلك وبطيبة خاطر، على ما يبدو، عن ممتلكهم الأكثر وثوقاً (إذ أيّ شيء يمكن أن يعدّ اليوم أكثر وثوقاً من الجسد؟)، ومن يدري إن لم يكونوا يطمحون في الحقيقة إلى استعادة شيء كان ممتلَكا *أوثق* في ما مضى، شيء مّا مما كان من ممتلكات الإيمان قديما، ربما يكون «الروح الخالدة»، وربما ذلك «الإله القديم»، وباختصار، أفكار كانت تمنح الناس حياة أيسر، أي على نحو أكثر قوة وأكثر مرحا مما تمنحه «الأفكار الحديثة»؟ ثمة *ارتياب* من الأفكار الحديثة في هذا، وثمة عدم إيمان بكل ما تم تشييده اليوم والبارحة؛ وربما لا يخلو هذا من شيء من الاشمئزاز ومن ازدراء وضجر لم يعد يطيق هذا الخليط من أَسقاط مفاهيم من هذا النوع الذي تلقي به الوضعيّة المزعومة اليوم في سوق الأفكار؛ اشمئزازُ ذوقٍ أكثر رهافة أمام هذا الاستعراض الكرنفالي الذي تتكادس فيه ألوان وأطمار كل المتشدقين بالتفلسف حول الواقع والواقعيّ، والذين لا جديد لديهم وما من شيء صادق عدا هذه الزركشة. ويبدو لي أنه علينا أن نقر بصحّة رأي أولئك الريبيين المعاصرين المناهضين

للواقع والباحثين والمدققين المجهريين في مسألة المعرفة؛ فغريزتهم التي تدفع بهم إلى الانفصال عن الواقع *الحديث* غير قابلة للدحض، - وأي شأن لنا في الطرق الملتوية التي يتقهقرون بها إلى الوراء! فالأمر الجوهري لديهم لا يتمثل في كونهم يريدون «العودة إلى الوراء»، بل في كونهم يريدون الانفصال. لا ينقص هؤلاء سوى مزيد من القوة، وشيء إضافي من الاندفاع، وشيء من الشجاعة، وشيء من التفرّد؛ وسيريدون خروجاً -لا عودةً!

11

يبدو لي أن جهوداً جمة تبذل اليوم في كل مكان لصرف النظر عن التأثير الذي مارسه كنط على الفلسفة الألمانية، وللتملص ببراعة من القيمة التي أقرّ بها لنفسه. كان كنط فخورا في المقام الأول بلوح مقولاته، وكان يقول ولوحه في يده: «إن هذا هو أصعب ما كان ممكناً أن يقوم به امرؤ مطلقاً من أجل الميتافيزيقا.» لنفهم جيّداً هذه الـ«ما كان ممكناً»! لقد كان فخورا بأنه *اكتشف* ملَكة جديدة في الإنسان: ملكة الحكم التأليفي *القبليّ*. وإذا ما افترضنا أنه قد انجرّ إلى الخطأ في هذه المسألة، فإن تطور الفلسفة الألمانية والازدهار السريع الذي عرفته يظل مع ذلك مرتبطاً بهذا الفخر وبالحماس المتقد لدى الشباب في السعي إلى اكتشاف شيء جديد ربما أكثر مدعاة للفخر، - اكتشاف «ملكات جديدة» في كل الأحوال! -لكن لنفكّر في الأمر، فقد آن الأوان لذلك. ما الذي يجعل الأحكام التأليفية القبليّة ممكنة؟ يتساءل كنط. وماذا كان جوابه؟ -*بفضل مَلكة*؛ لكن ليس في كلمتين، للأسف، بل بتوسّع وتكلّف، ووقار، وبذلك الإفراط الألماني في التعمّق والتنميق، مما جعل القارئ لا ينتبه إلى تلك السخافة الألمانية

المضحكة الكامنة في مثل هذا الجواب. بل إن الجميع قد هزّهم الطرب لهذه الملَكة المكتشفة توًّا، ثم بلغ الطرب ذروته عندما أضاف كنط إلى ذلك اكتشاف ملَكة أخلاقيّة في الإنسان؛ -إذ كان الألمان آنذاك أخلاقيّين، ولم يكن لهم من حس مطلقاً بعد بـ«السياسة الواقعية». كان ذلك شهر العسل بالنسبة للفلسفة الألمانية، وإذا كل اللاهوتيين الشبان من طلاب المدرسة الإكليريكية بتوبينغن ينطلقون في مغامرة صيد واسعة، -الجميع يبحث عن «ملَكة» ما. وكم وجدوا من أشياء آنذاك! في زمن الروح الألمانية البريئة، الثريّة، والتي ما تزال فتيّة، زمن كانت تنفخ فيه الرومنطيقيةُ، تلك الساحرة الشريرة، من روحها وتغويه بألحانها، في ذلك الزمن عندما لم يكن للناس من دراية بتمييز «الاكتشاف» عن «الاختراع»! وأبرز ما وجدوا عندها: ملَكة «ما فوق الحسيّ»؛ وقد عمّدها شيلينغ بالحدس العقليّ مداعباً بذلك الرغبات الأكثر حميمية لدى بني جنسه من الألمان الذين كانوا في أعماقهم شديدي الورع في رغباتهم. ونحن لن نسيء إلى تلك الحركة المفرطة في الحماس والحالمة، حركة شباب، بالرغم مما أقدمت عليه من تنكر تحت أقنعة مفاهيم قاتمة وعتيقة، أكثر مما نسيء إليها ونحن نأخذها مأخذ الجد، ونواجهها بالمآخذ الأخلاقية. وباختصار، لقد شاخ الفتيان، والحلم تبخّرَ. حلّ وقتٌ راح المرء فيه يفرك جبينه؛ وما زال يفركه اليوم أيضا. كان ذلك حلماً؛ وأول وأكثر من حلُم كان كنط العجوز. «بفضل ملَكة» -هكذا قال، أو ما أراد أن يقوله على الأقل. لكن، أيُعدّ هذا جواباً؟ أو توضيحاً؟ أم هو بالأحرى إعادة للسؤال؟ كيف يجلب الأفيون النعاس؟ -«بقدرةٍ قدرةٍ»، وهي virtus dormitiva قدرة التنويم، يجيب ذلك الطبيب في مسرحية لموليير(*)

(*) «فيه قدرةٌ من طبيعتها أنها تخدّر الحواسّ». من مسرحية «مريض التوهّم»

Quia est in eo virtus dormativa,
Cujus est natura sensus assoupire.

غير أن أجوبة من هذا النوع هي من مجال الكوميديا، وقد آن الأوان أخيرا لكي نعوّض السؤال الكنطي «كيف تكون الأحكام التأليفية القبليّة ممكنة؟»[٦] بسؤال «ما الذي يجعل الإيمان بمثل هذه الأحكام *ضروريًا*؟» -أي أن نفهم أن غاية حفظ كائن من نوعنا هي التي تفرض علينا أن *نؤمن* بمثل هذه الأحكام على أنها صائبة؛ ولهذا السبب يمكنها بطبيعة الحال أن تكون أحكاماً *خاطئة* أيضا! أو لنقلها بأكثر وضوح وبطريقة فجة وجذريّة: لا ينبغي قطعا للأحكام التأليفية القبلية أن تكون «ممكنة». لا حق لنا فيها، وهي على ألسنتنا مجرد أحكام خاطئة. كل ما في الأمر هو أن الإيمان بها يظل مع ذلك ضروريا كإيمانٍ واجهةٍ وخدعة بصرية مرتبطة بمنظور الحياة. -أخيرا، وحتى لا نغفل التأثير الهائل الذي مارسته «الفلسفة الألمانية» -أرجو أن يُفهم حقُّها المشروع في المعقفيْن- على مجمل الفضاء الأوروبي، فإنه ما من شك في أن «قدرة منوّمة» ما قد أسهمت بنصيبها في هذا الأمر: قد عمّ الابتهاج داخل أوساط المعطلين النبلاء، ودعاة الفضيلة، والمتصوفين، والفنانين، وأنصاف المسيحيين، والسياسيين الظلاميين من كل الأمم، لأن فضل الفلسفة الألمانية قد تجسد في منح هؤلاء ترياقاً ضد طغيان المذهب الحسيّ الذي لم يتوقف عن التدفق من القرن الماضي، وباختصار: *sensus assoupire* -قد «تخدّرت الحواس»...

12

أما عن المادية الذرية؛ فإن هذه أيضاً من الأشياء التي تم دحضها على أفضل وجه، ولعله لم يعد هناك من أحد من العلماء في أوروبا

ممن ظل على مستوى من الجهل كي يواصل منحها أهمية، عدا ما يكون لها من وظيفة استعمالية في الشؤون اليومية (أي كاختصار في طريقة التعبير) -ويعود الفضل في ذلك خاصة إلى ذاك البولوني، بوسكوفيتش، الذي مثّل إلى حد الآن بمعيّة بولوني آخر هو كوبرنيكوس أكبر مناهض للظاهر، والأكثر نجاحاً في ذلك. وبينما انتهت جهود كوبرنيكوس إلى إقناعنا بالإيمان بأن الأرض، على عكس ما تؤكده كل الحواس، *ليست* ثابتة في موقعها، كان بوسكوفيتش(*) يعلّمنا التخلّي عن الإيمان بآخر شيء ظل يعتبر «ثابتا» فوق الأرض، الإيمان بـ«المادة»، بـ«الجسم»(**)، وبتلك الفضلة من تراب والمُضغة الضئيلة المسمّاة ذرّة. كان ذلك أعظم انتصار على الحواس مما تم تحقيقه على وجه الأرض حتى تلك اللحظة. غير أنه علينا أن نمضي قدماً، وأن نعلن حرباً بلا هوادة على «الحاجة الذريّة» المزعومة أيضا، التي ما زالت تواصل الحضور على نحو خطير في مجالات لا تخطر لأحد على بال، على غرار تلك «الحاجة الميتافيزيقية» الأكثر شهرة منها: علينا أن نجهز قبل كل شيء على تلك الذريّة الأخرى الأكثر مضرّة، وهي *الذرية النفسية*، التي ظلت المسيحية تعلمها على أفضل وجه ولأطول مدة من الزمن. ولتسمحوا لي بأن أطلق هذه العبارة على

(*) المقصود هنا هو Rugerius Giuseppe Boscovicius حسب التسمية اللاتينية وهو قس من أصل كرواتي(دالماتيا)، من مدينة دوبروفنيك وليس من بولونيا كما يذكر نيتشه هنا. إسمه الأصلي هو Ruder Baskovic، انتقل إلى إيطاليا حيث اشتغل بتدريس الرياضيات في روما وبافي وميلانو، ثم إلى باريس ولندن . وكان عالما متنوع الاختصاصات: فيزياء، فلك، ورياضيات وفلسفة. وقد ترك عدة مؤلفات في مختلف هذه المجالات العلمية، وكتابا في ما سماه بالفلسفة الطبيعية. (م)

(**) «الجسم» في معناه الفيزيائي العام (م)

ذلك الإيمان الذي يجعل من الروح شيئا لا يطاله الهلاك، خالداً، غير متجزّء، جوهراً بسيطاً (مونادة)، ذرّة: هذا *الإيمان* لابد أن يلقى به خارجاً عن دائرة العلم. وفي ما بيننا، ليس من الضروري البتة، وفيما نحن نخوض هذه الحرب، أن نتخلص من «الروح» نفسها وأن نتخلى عن واحد من أقدم الافتراضات وأكثرها وقاراً؛ كي لا نكرر ما يحدث عادة للطبيعانيين في رعونتهم، إذ كلما لامسوا «الروح» مجرد ملامسة إلا وأضاعوها. بل إن الطريق يظل مفتوحا نحو صياغات جديدة وتحسينات للافتراض المتعلق بالروح: وسيكون لمفاهيم من نوع «الروح الفانية» و«الروح كتعدّد ذوات» و«الروح كبنية مشتركة للغرائز والأحاسيس»، سيكون لهذه المفاهيم أن تطالب بمكانها المشروع داخل مدينة العلم. غير أن العالم النفساني الجديد، وبعد أن استأصل كل المعتقدات الخرافية التي كانت تترعرع حول مسألة الروح بما يشبه أدغالا مدارية كثيفة، قد ألقى بنفسه طوعاً داخل قفر جديد وحالة ارتياب جديدة -ولعل السيكوليجيين القدامى كانوا في حال أفضل من الطمأنينة والبهجة-، غير أنه يعرف بالنهاية أنه محكوم عليه بالابتكار، وربما *بالاكتشاف* أيضاً، من يدري؟

13

على الفيزيولوجيين أن يعيدوا النظر في اعتبارهم القائل بأن غريزة البقاء هي الغريزة المحورية لدى الكائن العضوي. فهناك في المقام الأول شيء حيّ يريد أن *يطلق العنان* لقوّته، -والحياة نفسها إرادة قوة؛ وليس حفظُ البقاء سوى واحدة من *النتائج* غير المباشرة لهذه الإرادة وأكثرها تكرّراً. وتبعاً لهذا علينا أن نحترس، هنا كما في كل موضع، من المقولات التيولوجية التي لافائدة من ورائها، من نوع هذه

القائلة بغريزة البقاء (التي ندين بها لتضارب سبينوزا). ذلك هو ما يقتضيه المنهج الذي ينبغي أن يكون في جوهره اقتصادا في المبادئ أولا وقبل كل شيء.

14

بدأت تبرز لدى خمسة أو ستة عقول فكرة أن الفيزياء ليست هي أيضاً سوى تأويل للعالم، وتكييف للعالم (حسب رأينا! بعد إذنكم) وليست تفسيراً للعالم؛ لكن، ولكونها ترتكز على الإيمان بالحواس، تُعتبر شيئا أكثر من ذلك، وستظل كذلك لمدة طويلة من الزمن: أي تفسيراً للعالم. تجد الفيزياء تأييداً من العين واليد، أي أنها مدعومة بالرؤية واللمس، وفي عصر يسوده ذوق عاميّ يكون لهذا مفعول ساحر، مقنع، مفحِم؛ ذلك أنه ينقاد غريزيا إلى قانون الحقيقة الذي تتحكم فيه الحسيّة الشعبيّة. ما هو الشيء الواضح، الشيء الذي يفسِّر؟ أولا، ما يُلمس ويُرى،-عند هذا الحد ينبغي أن يتوقف النظر في كل مسألة. وعلى العكس من ذلك يقوم سحر نمط التفكير الأفلاطوني على *النفور* من البديهيات الحسيّة، وهو نمط تفكير *راقٍ* ربما كان متداولا بين رجال كانوا يتمتعون بحواس أكثر متانة وتطلّباً مما لدى معاصرينا، لكنهم كانوا يشعرون بنشوة ظفر عارمة في فرض سيادتهم دوماً على تلك الحواسّ، وذلك بواسطة نسيج من مفاهيم باهتة، باردة، رمادية يلقون به فوق دوّامة الحواسّ الملوّنة-حواسّ رعاع، كما يقول أفلاطون. كانت تلك السيطرة على العالم وتأويل العالم على المنوال الأفلاطوني تمنح *نوعا من المتعة* يختلف عما يقدمه الفيزيائيون المعاصرون، وكذلك الداروينيون واللاغائيّون من بين عَمَلة الفيزيولوجيا المعاصرين القائلين بمبدأ «أقل ما يمكن من الطاقة»،

وأكثر ما يمكن من السخافة. «حيث لا يكون هناك ما نرى وما نلمس، لا يكون لدينا أيضاً ما نبحث عنه» -وهذا بكل تأكيد مُلزِم مغايرٌ للملزِم الأفلاطوني، غير أنه يمكن أن يكون الملزِم المناسب لجنسٍ شغّيلة من الميكانيكيّين وبنّائي الجسور المستقبليين المطالبين بإنجاز شتى الأعمال الخشنة.

15

كي يتعاطى المرء الفيزيولوجيا بضمير مطمئن، عليه أن يظل مصرًّا على اعتبار الأعضاء الحسية شيئا آخر غير ظاهرات بمعنى الفلسفة المثالية؛ إذ أنها كظاهرات لا تستطيع أن تكون أسباباً! وسيكون عليه بموجب ذلك أن يقبل على الأقل بأن يعتبر الحسية كافتراض تنظيمي، كي لا نقول كمبدأ كشفيّ (heuristich). ماذا؟ والحال أنّ آخرين يزعمون أن العالم الخارجي من صنع أعضائنا؟ لكن، سيكون جسدنا عندها، بما هو جزء من العالم الخارجي، من صنع أعضائنا هو أيضا! لكن، ستكون أعضاؤنا نفسها إذًا -من صنع أعضائنا! إن هذا في جوهره مُحال، حسب ما يبدو لي؛ إذا ما افترضنا أن مفهوم «القائم بذاته» محال في جوهره. وبالتالي فإن العالم الخارجي *ليس* من صنع أعضائنا-؟

16

ما يزال هناك استبطانيّون على قدر من السذاجة، من الذين يعتقدون في وجود «يقينيات بلا توسّط»، مثل «أنا أفكّر»، أو، كما كانت خرافة شوبنهاور «أنا أريد»؛ كما لو أن فعل المعرفة هنا يدرك موضوعه خالصًا وعارياً، في هيأة «شيء في ذاته»، وأنه لا يحصل أيّ

تزوير، لا من جهة الذات، ولا من جهة الموضوع. غير أنني سأظل أكرر وللمرة المئة أن مفهوم «اليقين بلا توسط»، مثله مثل «المعرفة المطلقة» و«الشيء في ذاته»، يحمل في جوهره تناقضاً في المضاف؛ وأنه علينا أن نتخلص أخيرا من غواية الكلمات! ولندع الشعب يعتقد بأن فعل المعرفة يستوفي معرفة الأشياء، أما الفيلسوف فعليه أن يقول لنفسه: إذا ما فكّكت المسار الذهني الذي تعبر عنه مقولة «أنا أفكر»، فسأجد أن هناك سلسلة من المزاعم الجسورة التي يصعب، وربما يستحيل تبريرها؛ على غرار ذلك الزعم بأنني *أنا* الذي أفكّر، وأنه لابد أن يكون هناك أصلا شيء هو الذي يفكر، وأن التفكير فعل ونتيجة متأتّيان عن كائن يؤخذ على أنه سبب، وأن ثمة «أنا»، وأخيراً أن ما تعنيه عبارة تفكير أمر قائم وثابت لديّ؛ أي أنني *أعرف* أيّ شيء هو التفكير. إذ، إن لم أكن قد حسمت المسألة بيني وبين نفسي، فأيّ مقياس سأعتمد إذًا كي أعرف إن لم يكن ذلك الذي حدث لديّ شيئا آخر، ربما «إرادةً» أو «شعوراً»؟ باختصار، هذه الـ«أنا أفكر» *تفترض* أن أقارن حالتي الآنيّة هذه بحالات أخرى أعرفها في نفسي، كي أحدد أي شي هي: وبسبب هذه الإحالة على «معرفة» مستمدة من مصدر خارجي، فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال لحالتي هذه أن تكون «يقيناً» بلا توسّط. -عوضا عن هذا «اليقين» بلا توسط، الذي يفضل الشعب في هذه الحالة أن يؤمن به، يجد الفيلسوف نفسه في الحالة المذكورة هذه أمام جملة من الأسئلة الميتافيزيقية، أسئلة ضمير عقليّ حقيقية تطرح نفسها عليه: من أين أستمد مفهوم «تفكير»؟ ما الذي يجعلني أؤمن بالعلّة والنتيجة، وما الذي يسوّغ لي أن أتكلم عن *أنا*، بل عن *أنا* في مقام علّة علاوة على ذلك، وأخيرا عن *أنا* كعلّة للتفكير؟» من سيكون بإمكانه، استناداً على نوع من *الحدس* المعرفي،

أن يجيب مباشرة عن هذه الأسئلة الميتافيزيقية، كما يفعل ذلك الذي يقول: «أنا أفكر وأعرف أن هذا على الأقل حقيقيّ، واقعيّ، ويقينيّ»؛ ذاك سيلاقيه الفيلسوف اليوم بابتسامة وعلامتيْ استفهام. وربما سيعترض عليه قائلا: «سيّدي، إنه من غير المحتمل ألاّ تكون مخطئًا؛ لكن، لِم الحقيقة بأيّ ثمن بالنهاية؟»-

17

أما فيما يتعلق بالعقيدة الخرافيّة للمنطقيين، فإنني لن أكلّ من العودة إلى ذكر حقيقة واقعة صغيرة قصيرة، لا يرغب هؤلاء الخرافيون كثيراً في الاعتراف بها؛ ومفاد هذه الحقيقة أن الفكرة تأتي متى تريد «هي»، لا متى أريد «أنا»؛ وتبعاً لذلك سيكون *تزويراً* للوقائع أن نقول: المسنَد إليه «أنا» شرطُ المسنَدِ «أفكّر». يفكّر (من خلالي): أن يكون هذا المسند إليه المجهول(*) هو تلك الـ«أنا» الشهيرة القديمة بالذات، فذلك ما أسميه بعبارة ملطّفة مجرّد افتراض، أو زعم، وليس «يقيناً بلا توسط» بأي حال من الأحوال. وبالنهاية فحتى استعمالنا لهذا الفاعل المجهول (es) يعدّ شيئا أكثر مما يلزم؛ فهذا الفاعل المجهول في حد ذاته ينطوي على تأويل للعمليّة ولا ينتمي إلى العمليّة نفسها. إن ما يحدث في الحقيقة هو أننا نعمد هنا، وفقا للتقاليد النحوية المعتادة إلى الاستقراء التالي: «إن التفكير فعل، وبما أنه لا بد لكل فعل من فاعل، فسيكون إذًا. . . . .»، وعلى المنوال نفسه تقريباً كان الذريّ القديم يبحث للطاقة المحرّكة عن تلك المُضغة المادية التي

(*) هناك صعوبة تعترض المترجم في إيجاد مقابل لضمير الغائب "es" (الضمير المحايد)، الذي ينوب عن فاعل ليس بمؤنث ولا مذكّر، ويستعمل للنيابة عن فاعل/ مسند إليه نكرة ، أو فيلاصيغة المبني للمجهول.

تقطن داخلها، ومن داخلها تفعل: الذرّة. غير أن عقولا أكثر صرامة قد عرفت بالنهاية كيف تستغني عن هذه «الفضلة من تراب»، ولعله سيأتي يوم يتعود فيه المنطقيون أيضا على أن يصبحوا في غير حاجة إلى هذا الضمير الغائب الصغير المبني لمجهولٍ (es)، -الذي اختُزل فيه ضمير الـ«أنا» القديم الأكثر صدقاً.

18

أن تكون نظرية ما قابلة للدحض فتلك بكل تأكيد خصلة ليست من أقل خصالها إثارة : بفضلها هي بالذات تغدو جذابة لأكثر العقول لطافة. ويبدو أن نظرية «حرية الإرادة» التي تم دحضها مئات المرات مدينة باستمرارها لهذه الإثارة وحدها: فعلى الدوام يظل يظهر من يحس في نفسه بقدر كاف من القوة على إبطالها.

19

اعتاد الفلاسفة أن يتكلموا عن الإرادة كما لو أنها الأمر الذي للناس به معرفة أكثر من أي شيء آخر في العالم؛ وشوبنهاور قد أوحى لنا فعلا بأن الإرادة وحدها هي الشيء الذي نعرفه حقّا، نعرفه جيّداً وعلى نحو مكتمل، نعرفه دون زيادة أو نقصان. غير أنه يبدو لي مرة أخرى أن شوبنهاور لم يفعل هنا أيضاً سوى ما دأب الفلاسفة على فعله دوماً: أي أنه تناول حكماً مسبقاً شعبيّا وبالغ فيه. فالإرادة تبدو لي شيئا *معقد التركيب*، شيئا لا يشكل وحدة إلا من حيث هو كلمة؛ وفي الكلمة الواحدة بالذات يكمن الحكم المسبَق الذي ظل يغالط الحذر الضعيف للفلاسفة على مر العصور. لنكن حذرين إذًا، لنكن «لا فلسفيين»، ولنقل: في كل إرادة هناك أولا كثرة من الأحاسيس:

الإحساس بوضع *نتركه*، الإحساس بوضع نكون *مقبلين عليه*، والإحساس بتلك الـ«من» و «إلى»، ثم هناك أيضاً إحساس عضليّ مرافق يدخل في اللعبة بموجب ضرب من العادة، لمجرد أن «نريد»، ودون حتى أن تكون قدمانا وذراعانا قد شرعتا في التحرّك. وكما أن الإحساس، بل عددا من الأحاسيس المتنوعة ينبغي أن تدخل في الحسبان كمكونات للإرادة، يوجد ثانيا عنصر آخر هو التفكير: ففي كل فعل إرادة هناك فكرة آمرة، ولنحترس من الاعتقاد بأنه يمكننا أن نفصل هذه الفكرة عن فعل الإرادة، كما لو أنه من الممكن أن تظل هناك إرادة من بعدها. ثالثاً، ليست الإرادة مركّباً من الشعور والتفكير فحسب، بل هي أيضا وفي المقام الأول انفعال (affekt)، وهو انفعال الحركة الآمرة. وما يسمى «حرية إرادة» هو في الحقيقة انفعال التفوّق بالنظر إلى من يكون عليه أن يطيع: «أنا حرّ، وعليه «هو» أن يطيع». هذا الوعي يقطن كل إرادة، مثله مثل توتّر الإرادة، وتلك النظرة الثابتة التي تركز على شيء واحد دون سواه، وذلك التقدير المطلق: «الآن يلزم هذا الأمر ولا شيء غيره»، وذلك اليقين الباطني بأن الطاعة حاصلة حتماً، إلى غير ذلك من كل ما له صلة بالحالة النفسية للآمر. إن شخصاً *يريد*، يأمر شيئا ما في نفسه يعرف أنه يطيعه، أو يعتقد أنه يطيع. لكن لننظر الآن إلى أعجب ما في الإرادة، في هذا الشيء المركب، الذي يكتفي الشعب باختزاله في كلمة واحدة؛ فإذا ما اعتبرنا هذه الحالة التي نكون فيها آمرين ومطيعين في الآن نفسه، وأننا، بوصفنا مطيعين، نعرف أحاسيس الإكراه، والحثّ، والضغط، والمقاومة، والحركة، التي تشرع في الاشتغال داخلنا مباشرة بعد تحرك فعل الإرادة؛ وإذا ما اعتبرنا أننا من جهة ثانية قد تعودنا على تجاهل هذه الازدواجية وعلى حجبها عن أنفسنا بواسطة المفهوم

التأليفي للـ«أنا»، فإن *فعل الإرادة* هذا يكون منطويا بالتالي على سلسلة إضافية من الاستنتاجات الخاطئة، وبالتالي من التقييمات الباطلة في ما يتعلق بالإرادة نفسها، -الأمر الذي يجعل الشخص الذي يريد يعتقد بنيّة صادقة أن فعل الإرادة يكفي لوحده كي يكون الفعل. ونظرا لأنه في أغلب الحالات لا يُراد إلا حيث يكون من المنتظر أن يكون للأمر مفعوله، أي الطاعة، أي الفعل، فقد ترجم *الظاهر* نفسه في إحساس يتوهم *بوجود حتميّة المفعول*؛ وفي كلمة، يعتقد الذي يريد، وبشيء من اليقين، أن الإرادة والفعل شيء واحد بشكل ما؛ -هكذا ينسِب النجاحَ، أيْ تنفيذ فعل الإرادة، إلى الإرادة نفسها، ويحصل له في ذلك تنامٍ للإحساس بالقوّة الذي يرافق كل نجاح-. «حرية الإرادة»: إنها الكلمة التي تعبر عن حالة الالتذاذ المركّبة لذاك الذي يريد، الذي يأمر ويجعل نفسه في الآن نفسه واحداً مع من ينفِّذ؛ يشترك بما هو كذلك في متعة الانتصار على شتى العوائق، لكنه في قرارة نفسه يعتبر أن إرادته هي التي تغلّبت في الحقيقة على تلك العوائق. هكذا يضم صاحب الإرادة إلى عناصر متعته الخاصة كآمرٍ مشاعرَ المتعة التي تنجم عن أدوات التنفيذ الناجعة، وعن «الإرادات الملحَقة» الخادمة، أو «الأنفس الملحَقة» -فجسدنا ليس شيئا آخر بالنهاية غير بناء اجتماعي مكوّن من أنفس عديدة-. *L'effet c'est moi!* - المفعول الحاصل أنا(*): يحدث هنا ما يحدث في كل مجتمع سعيد ومحكم البناء، من أن الطبقة الحاكمة تتماهى مع نجاحات المجموعة. في كل فعل إرادة تتعلق المسألة دوما بأمر وطاعة على قاعدة من بناء اجتماعي من

(*) بالفرنسية في النص الأصلي. وفي هذه العبارة إحالة على مقولة «الدولة أنا» للويس الرابع عشر.

«أنفس» عديدة، كما ذكرنا آنفا: لذلك سيكون على الفيلسوف أن ينتزع حقه في ألاّ يتناول مسألة الإرادة إلا ضمن وجهة نظر الأخلاق: الأخلاق منظوراً إليها كنظرية في علاقات السيطرة التي تنشأ ضمنها هذه الظاهرة المسماة «حياة».[٧]

20

ليست المفاهيم الفلسفية المنفردة شيئا من قبيل الصدفة، ولا هي تنشأعن لا شيء، بل تنشأ وتنمو في علاقة ببعضها وفي ضرب من القرابة. ولئن بدت كما لو أنها تبرز فجأة وبصفة اعتباطية داخل تاريخ الفكر، فإنها تنتمي مع ذلك إلى نظام بعينه، مثلها مثل كل العناصر المكونة لمجموعة حيوانية لمنطقة محددة من الأرض: يتضح لنا ذلك آخرَ الأمر عندما ندرك كيف يظل الفلاسفة على مختلف مشاربهم يعيدون بثبات الانضواء داخل قالب أساسيّ بعينه لمجمل الفلسفات *الممكنة*. وكما لو كانوا خاضعين لسلطة إكراه خفيّة، يظل هؤلاء جميعا يلفّون بصفة مستمرة ومتكررة داخل الدائرة نفسها. وأيًّا كان إحساسهم بالاستقلال بعضهم عن بعض وفقا لإرادة نقدية أو نسقيّة، فإن شيئا ما في داخلهم يظل يقودهم، شيئا ما يجرهم الواحد تلو الآخر إلى نظام بعينه، وهو تلك النسقيّة الفطريّة وعلاقة القرابة بين المفاهيم. إن تفكيرهم في الواقع ليس اكتشافاً، بقدر ماهو تعرّف وتذكّر، وارتداد إلى الخلف وعودة إلى شيء حميم ومألوف في بيت ذخيرة روحية عمومية قديمة قدم الدهر قد انبثقت عنه في ما مضى كل تلك المفاهيم: تكون الفلسفة بهذا المعنى ضرباً من تأسّلية من الدرجة الأرقى؛ وتلك القرابة المدهشة بين مجمل الفلسفات الهندية واليونانية والألمانية تجد، بموجب هذا، تفسيراً لها بكل يسر وبساطة. فحيثما

تكون هناك قرابة لغوية، هناك بالذات، وبفضل فلسفة نحوية مشتركة - أعني بفضل سيادةٍ وسيطرةٍ لا شعورية للوظائف اللغوية المشتركة- لا بد أن تكون الأسس مهيّأة مسبقاً لتطورٍ وتعاقبٍ فلسفيّيْن متشابهيْن، في حين يبدو الطريق مسدوداً أمام أية إمكانية لتأويل آخر للعالم. وهناك احتمال كبير أن فلاسفة لغات أقاليم أورال ألتاي(*) (حيث ظل مفهوم المسند إليه (الفاعل) في مستوى أدنى من التطور) يمتلكون على الأرجح نظرة مختلفة «للعالم»، ولهم طرق أخرى في تأوّله غير تلك التي لدى الهندوجرمان والمسلمين؛ فالإكراه التي تمارسه وظائف نحوية بعينها هو في عمقه الأقصى إكراه تمارسه أحكام قيمية فيزيولوجية وشروط عرقيّة. -هذا ما أردت قوله لدحض المقولات السطحية للوك فيما يتعلق بأصل الأفكار.(**)

21

علّةُ ذاته-Causa sui- هو أكبر تناقض داخليّ مما ابتدع الانسان حتى الآن: ضرب من الاغتصاب والفظاعة المنطقيّة. لكنّ الغرور المجنّح للإنسان قد جره إلى التورط عميقاً وعلى نحو مفزع في هذه السخافة. إن التوق إلى «حرية الإرادة» بذلك المعنى الميتافيزيقي

(*) أقاليم أورال ألتاي هي الأقاليم الآسيوية الواقعة ما وراء جبال الأورال، واللغات المصنفة تحت هذا الإسم هي اللغات غير الهندو أوروبية والسامية.

(**) جون لوك فيلسوف أنكليزي من القرن السابع عشر. من أبرز مؤسسي «النظرية المعرفية» وألف مجموعة من الكتب في هذا الغرض (إلى جانب مؤلفاته السياسية) تعرض في كتابيه الأول والثاني منهما إلى أصل الافكار وعلاقة الأفكار بالتجربة. وعبارة «دحض سطحية لوك» التي ينهي بها نيتشه هذه الفقرة هي في الحقيقة عبارة لشوبنهاور الذي نقد رؤية لوك الفلسفية ونظريته المعرفية ناعتا إياه (أي لوك نفسه) بالسطحيّ-seicht .(م)

المشطّ الذي مازال مهيمناً على عقول أنصاف المتعلّمين للأسف، ذلك النزوع إلى تحمل المسؤولية التامة والنهائية عما يصدر من أفعال، فيما يُعفى من ذلك كلّ من الله والعالم والأسلاف والصدفة والمجتمع، ليس في الحقيقة شيئا آخر غير ذلك الـ *causa sui*: أن يكون المرء علّة نفسه، وأن يعمد، بما يفوق جسارة مونشهاوزن، إلى الإمساك بشعره بقوة ليسحب نفسه من مستنقع العدم إلى الوجود. وإذا ما افترضنا أن أحداً قد تفطّن إلى السذاجة القروية لهذا المفهوم الشهير لـ«حرية الإرادة»(*)، ومحاه من عقله، فإنني سأطلب منه عندها أن يمضي بـ«تنويره» خطوة إضافية، وأن يمحو من عقله أيضاً الصيغة المعاكسة لهذا اللامفهوم؛ أعني بذلك مفهوم «الإرادة المقيَّدة»، الذي يتأتّى عن استعمال تعسّفي لمبدأ السبب والنتيجة. لا ينبغي أن نقع في تشييء «السبب» و«النتيجة» على غرار ما يفعل الطبيعانيون (وكل من يطبْعن اليوم مثلهم في مجال الفكر) وفقا للسخافة الميكانيكية السائدة، فيدعون السبب يضغط ويدفع، إلى أن ينتهي بأن «يصبح مسبِّباً». علينا ألا نستعمل «السبب» و«النتيجة» إلا كمحض *مفاهيم*، أي كمبتكَرات وظيفية لغاية التسمية والتفاهم، *وليس* للتفسير. في «الشيء في ذاته» ليس هناك من «علاقة سببيّة»، وما من «ضرورة»، وما من «تقيّد سيكولوجي»؛ هناك لا «تتبع النتيجةُ السبب»، ولا يحكم أيُّ «قانون».

(*) اخترت هنا عبارة «حريّة الإرادة» كترجمة حرفية لمفهوم "freie Wille"، والذي يمكن أن نعبر عنه استناداً إلى المصطلحات الفلسفية العربية بـ«حريّة الاختيار» أيضاً، أو بـ«الاختيار» فقط. وسأفعل الأمر نفسه في ترجمة عبارة "unfreie Wille" بـ«الإرادة المقيّدة»، عوضا عَن «الحتمية» أو «الجبريّة»، وذلك بدافع الإبقاء على عبارة «الإرادة» والحفاظ على المقابلة بين عبارتي «الحرية» و«التقييد».

بل نحن وحدنا الذين اختلقنا الأسباب، والتعاقب، والتكامل، والنسبية، والإكراه، والعدد، والقانون، والحرية، والسبب، والغرض؛ وعندما نستعمل هذا الحشد من الرموز على أنها «شيء في ذاته»، ونقحمها داخل الأشياء ونخلطها بها، فإننا نتعامل معها على النحو الذي دأبنا على التعامل به دوماً، أي *ميثولوجيًّا*. فالـ«الإرادة المقيَّدة» هي ميثولوجيا، أسطورة، إذ في الحياة الواقعية ليس هناك سوى إرادة *قوية* وإرادة *ضعيفة*. وإنها لعلامة شبه ثابتة على أن نقصاً ما يتخلل المفكّر نفسه، إذا ما ألمّ به أمام كل «علاقة سببية» و «ضرورة سيكولوجية» إحساس بالإكراه والضيق، والتبعيّة، والتقيّد، والعبودية: أحاسيس من هذا النوع فضّاحة - فالشخص يفضح نفسه هنا. وعلى العموم فإن مسألة «الإرادة المقيَّدة» يتم تناولها دوماً، إذا ما صحّت معايناتي، من وجهتين متناقضتين تماماً، لكن بطريقة شخصية إلى أبعد الحدود دوما: البعض لا يريد بأي ثمن أن يتخلي عن «مسؤوليته»، وعن إيمانه بنفسه، والحقّ الشخصي في ما يعود إليه من فضل (وهذه حالة جنس المغرورين)؛ والبعض الآخر لا يريدون، على العكس من ذلك، أن تكون لهم مسؤولية في أي شيء، ولا أي ذنب، ويبحثون، بموجب احتقارٍ عميق للنفس، عن إمكانيّة *للإلقاء* بعبئهم الخاص على أيّ موضع خارجهم. وقد غدا من عادات المنتمين إلى هذا الصنف الأخير عندما يؤلفون كتباً أن يتبنوا قضية المجرمين: وأجمل هيأة يتدبرونها لتنكّرهم هي التقنّع بنوع من الشفقة الاشتراكية. وبالفعل فإن قدَريّة أصحاب الإرادة الضعيفة تفلح في تجميل نفسها على نحو مذهل عندما تعرف كيف تقدّم نفسها كـ«ديانة العذاب الإنسانيّ»: ذلك هو منتهى *«الذوق الرفيع»* لديها.

لتغفروا لي كفيلولوجي قديم لا يستطيع أن يتخلى عن العادة الخبيثة في وضع الإصبع على أفانين التأويل الخاطئة: لكن ذلك «القانون الطبيعيّ»، الذي تتكلمون عنه بكل اعتزاز أيها الفيزيائيون -كما لو أنه قائم فقط بفضل تأويلكم و«فيلولوجيتكم» الرديئة- ذلك القانون الطبيعي ليس بأمر واقع، وليس بـ«نص»، بل هو تدبير إنساني ساذج وتزوير متعمّد بهدف الاستجابة للغرائز الديمقراطية للأنفس الحديثة وإرضائها! «مساواة أمام القانون في كل موضع -والطبيعة في هذا المجال لم تفعل شيئا آخر، ولا شيئا أفضل من هذا الذي نريده»: سوء نيّة لطيف يتحرك من خلاله مرة أخرى ذلك العداء العاميّ لكل ذي امتياز وذي سيادة، لكنه يحمل في طياته أيضا نوعاً ثانٍ لطيف من الإلحاد المتنكّر. «لا ربّ ولا سيّد»(*) -ذلك هو ما تريدونه، أنتم أيضا؛ ولذلك «ليحيا القانون الطبيعيّ!» -أليس كذلك؟ لكن، وكما قلنا، فهذا تأويل وليس بـ«نص»؛ وقد يأتي أحد ما، بنيّة مناقضة وفن تأويل معاكس، يستطيع أن يقرأ ويستمد من صلب الطبيعة نفسها، وبالنظر إلى نفس الظاهرات ما يفرض تحقيق مطامع سلطوية طغيانية غاشمة لا يردعها رادع، - متأوِّلٌ سيطرح أمام أنظاركم الطابع المطلق والضروري لـ«إرادة القوة» بطريقة ستبدو معها في آخر الأمر كل كلمة، وبصفة خاصة كلمة «طغيان» عبارة لا مسوّغ لها، أو مجرد استعارة ذات مفعول موهِن ومسكِّن -لأنها مفرطة في الإنسانيّة-؛ متأوّلٌ سينتهي به المطاف إلى أن يؤكد هو أيضاً عن هذا العالم ما تؤكدونه أنتم الآن من أنه ذو مجرى

(*) "Ni Dieu, ni maître" هكذا وردت العبارة باللغة الفرنسية في النص الأصلي، وهي إشارة إلى اسم الصحيفة التي أسسها الاشتراكي لويس بلانكي سنة ١٨٨٠ بباريس، ثم تحولت فيما بعد إلى شعار للحركة الفوضوية.

«حتميّ» و«قابل للتوقع» ، لكن، *ليس* لأن هناك قوانين تسوده، بل لأنه لا وجود لقوانين داخله على الإطلاق، ولأن كل قوة، تنزع في كل لحظة إلى المضيّ إلى الحد الأقصى من إمكاناتها(*). مع الافتراض بأن هذا أيضا ليس شيئا آخر غير تأويل -وأنكم ستسارعون بالردّ عليه، أليس كذلك؟ -حسناً، فهذا أمر جيّد! Eh bien, tant mieux!(**)

23

ظلت مجمل البسيكولوجيا متوقفة عند حد المسبّقات الأخلاقية وما يرافقها من مخاوف؛ ولم تجرؤ على المضي إلى عمق الأشياء. أما أن يتم تناولها كنظرية في مورفولوجيا *وتطورِ إرادة القوة*، كما أراها أنا، فذلك ما لم يخطر بذهن أحد إلى حد الآن، ولو بطريقة عابرة؛ أي إن كان من المسموح به أن نرى في كل ما كُتب حتى الآن علامة عما ظل مسكوتاً عنه حتى الآن. لقد تغلغل عنف الأحكام المسبقة الأخلاقية عميقاً داخل العالم الأكثر عقلانية، والأكثر برودة على ما يبدو والأكثر تحررا من المسلّمات(٨)؛ وكم كان تأثيرها عليه مضرًّا بطبيعة الحال، ومعيقاً، ومُعْمياً، ومشوِّهاً! كل بسيكولوجيا طبيعيّة تجد نفسها مجبرة على الصراع ضد عناصر مقاومة لاواعية داخل قلب الباحث، فالقلب

(*) ربما سيكون من المفيد أن نتوقف للنظر بعمق في هذا التوقع (التكهّن) الوارد في هذه الجملة الأخيرة بالنظر في الوقائع التاريخية الهائلة التي هزّت القرن العشرين وما اتسمت به من ظهور الأنظمة النازية والفاشية والدكتاتوريات الشمولية الساحقة، وجميعها قد أسست تبرير سلطتها على التأويل المذكور هنا، وعلى مقولتي «الضرورة» و«الحتمية» التاريخية، الشبيهة إلى حد بعيد بالحتمية الميتافيزيقية. (م)

(**) بالفرنسية في النص الأصلي

يقف خصماً في وجهها: وإن نظرية تقول بمبدأ التفاعل المتبادل بين الغرائز «الحسنة» والغرائز «السيّئة» كافية في حد ذاتها، بوصفها نوعا من اللاأخلاقيّة الماكرة، كي تدخل الضيق والأسى على أكثر الضمائر متانة، -أسوأ من ذلك سيكون حال ذلك الضمير أمام نظرية تقول بإمكانية نشأة كل الغرائز الحسنة عن السيئة. ولنفترض أن أحداً ما يمضي إلى حد اعتبار أحاسيس الكراهية والحسد والجشع وحب السيطرة كمكونات أساسية وجوهرية لا بد من وجودها داخل بنية الاقتصاد الحياتي، وبالتالي لابد من تنميتها، إذا ما كان على الحياة أن تنمو بدورها، -ذاك سيكون عليه أن يعاني من مثل هذا المنحى الذي يأخذه حكمه معاناةَ مصاب بدوار البحر. ومع ذلك تظل هذه الفرضية هي الأقل إحراجاً وغرابة في هذه المملكة الشاسعة للمعارف الخطيرة، التي تكاد تكون غير مكتشفة بعد؛ وهناك بالفعل ما يكفي من الأسباب التي تدعو إلى أن يظل المرء في منأى عنها، -إذا ما *استطاع* ذلك. وبالمقابل، إذا ما حصل للمرء أن تنتهي به سفينته إلى هذه الأماكن، فعندها... إلى الأمام! فالعضَّ بالنواجذ الآن! وعيناً مفتوحةً! ويداً صارمة على الدفّة! -إننا نبحر الآن قُدماً إلى ما وراء الأخلاق، وربما ندوس ونسحق آخر ما تبقى لنا من أخلاق ونحن نبحر ونجازف باتجاه تلك المنطقة، -لكن، ما همّنا! أبداً لم يكن لمسافر أومغامر مجازف أن يرى *عالماً أعمق* من المعرفة يمنح نفسه لعينيه: والخبير النفساني الذي «يقدم تضحية» من هذا النوع، لا يقدم أُضحيةَ العقل هنا (sacrifizio dell'intellecto)، بل بالعكس!- سيكون له أن يطالب على الأقل بأن يعترف مجددا للبسيكولوجيا بأنها سيّدة العلوم، وكل ما عداها من علوم تضع نفسها في خدمتها وفي الإعداد لها. ذلك أن البسيكولوجيا قد غدت مجدداً الطريقَ التي تقود نحو المسائل الأساسية.

الفصل الثاني

العقل الحر

24

يا للبساطة المقدّسة! أيّ عالم من التبسيط والتزوير هذا الذي يعيش داخله الإنسان! يكفي أن يفتح المرء عينيه على هذه الأعجوبة، كي يغدو تعجبه بلا نهاية. لكَم جعلنا كل شيء من حولنا واضحاً، حرًّا، سهلا، وبسيطاً! ولكَم سمحنا لحواسنا أن تمضي بحرية نحو كل سطحيّ، ومنحنا أفكارَنا رغبة ألوهية في إنجاز قفزات بهلوانية، واستنتاجات خاطئة! وكيف توفّقنا منذ البداية في أن نظل محتفظين بجهلنا كي نستطيع أن نستمتع بقدر لا يكاد يُتصوّر من الحرية، واللامبالاة، والنزق، والحيوية، والمرح؛ -كي نستطيع أن نستمتع بالحياة! على هذا الأساس الصلب وحده من الجهل كان علينا أن نؤسس العلم: إرادة العلم على أساس من إرادة أخرى أكثر سطوة؛ إرادة الجهل، واللايقين واللاحقيقة، لا كنقيض للعلم الحقيقي، بل كصيغة أكثر لطافة له. ولئن ظلت اللغة، هنا كما في كل موضع آخر، غير قادرة على التخلص من فجاجتها، بحيث تتكلم عن أضداد حيث لا يوجد غير درجات وتنوّع دقيق في المستويات؛ ولئن كان النفاق الذي غدا الآن «لحماً ودماً» فينا قادراً على تزوير الكلمات في أفواهنا

جميعا، بما في ذلك نحن العارفين، فإننا نظل ندرك ذلك بين الحين والآخر ونضحك ونحن نرى كيف أن أفضل العلوم بالذات هي التي تريد أكثر من غيرها أن توثقنا إلى هذا العالم المبسّط، المصطنع من الأساس حتى القمة، المختلَق على قياسنا والمزوّر وفقاً لذلك، وكيف أنها تبجّل الخطأ طوعاً-كرهاً، لأنها -هي المفعمة حياةً- تحبّ الحياة.

25

بعد هذه التوطئة المرحة، أريد أن أجلب الانتباه الآن إلى كلمة أكثر جدية؛ كلمة موجهة إلى الجديّين. لتكونوا على حذر أيها الفلاسفة وأصدقاء المعرفة، ولتحترسوا من الشهادة! لتحترسوا من المعاناة «من أجل الحقيقة»! لتحترسوا حتى من الدفاع عن أنفسكم! سيصيبكم ما يفسد براءة ضميركم وحياديّته، ويجعلكم عنيدين متصلبين تجاه الاعتراض والاستفزازات، يجعلكم أغبياء، ودوابّ وثيراناً، إذا ما عنّ لكم في صراعكم ضد الخطر والافتراء والشبهة والإقصاء وأشياء أخرى أكثر بذاءة مما تفرزه العداوة، أن تجعلوا من أنفسكم مدافعين عن الحقيقة فوق هذه الأرض؛-كما لو أن «الحقيقة» شخص ساذج وأرعن، بما يجعله في حاجة إلى من يدافع عنه! -في حاجة إلى مساعدتكم أنتم بالذات، يا «فرسان الهيأة الأكثر بؤسا»(*)، أيها السادة العاطلون الثرثارون وعناكب العقل! وأنتم تعرفون جيّدا بالنهاية أنه من غير المهم أن تكونوا، أنتم بالذات، على حق مثلما تعرفون أنه ما من فيلسوف كان على حق حتى الآن، وأن كل علامة استفهام صغيرة توضع خلف عباراتكم المفضّلة وتعاليمكم المبجّلة

(*) إشارة إلى لقب دون كيخوته «الفارس ذو الهيأة البائسة»

(وخلفكم أنتم شخصيا في بعض الأحيان) تنطوي على صدق أجدر أحق بالاعتبار مما يمكن أن تنطوي عليه كل الهيئات المهيبة والنبرة الظافرة التي تبدونها أمام المدّعين ومجالس القضاء! لتتنحوْا بالأحرى جانباً! ولتلوذوا بالخفاء! ولتلبسوا أقنعتكم وتتزيوا بلباقتكم كي لا يميّزكم الناس، أو كي يهابوكم قليلا! ولا تنسوا الحديقة أيضا، الحديقة ذات السياج الذهبي! اجعلوا من حولكم أناساً شبيهين بحديقة، أو مثل موسيقى فوق الماء عند المساء، عندما يكون النهار قد أضحى مجرد ذكرى؛ -اختاروا لأنفسكم الوحدة الجيّدة، الوحدة الطوعيّة الشجاعة والخفيفة، التي تمنحكم الحق في أن تكونوا صالحين بمعنى ما! لكَم يغدو المرء سامًّا، ولكَم يصبح ماكراً وسيئا من خلال كلّ حرب طويلة لا تخاض بعنف صريح! ولكَم يغدو المرء *ذاتيًّا* جرّاء خوف طويل وحذر طويل من الأعداء، من أعداء محتملين! كل أولئك المنبوذين، الملاحَقين لزمن طويل، والذين خضعوا للمطاردة الشنيعة -بما في ذلك المتوحدين المرغمين على العزلة، من أمثال سبينوزا وجيوردان برونو-، أولئك ينتهي بهم المطاف دوما إلى التحوّل، وإن في هيأة مَسْخرة عقلية، وأحيانا دون علم منهم بذلك، إلى أرواح متعطشة إلى الانتقام ومعدّي سموم من النوع الماكر الدقيق (لننبشْ ولو لمرة واحدة في القاع العميق لإيطيقا سبينوزا وعلمه اللاهوتي!)-كي لا نتكلم عن رعونة الاستياء الأخلاقي، التي تشكّل لدى الفيلسوف علامة على أن روح السخرية الفلسفية قد هجرته كليّا. إن روح الشهادة لدى الفيلسوف و«تضحيته في سبيل الحقيقة» تكشف لنا أيّ مهرّج وأيّ ممثل يختفي تحت عباءته. وإذا ما افترضنا أننا لم نكن ننظر إليه حتى الآن إلا من خلال عدسة فضول فنيّ، فإنه، وفيما يتعلق ببعض الفلاسفة، سيكون من الطبيعي أن تراودنا رغبة خطيرة في

أن نراه أيضا في هيأة انحطاطه (انحطاط الفيلسوف في «الشهيد»، وفي بوق مسارحَ ومنابرَ). على أن يكون واضحاً لدينا، فيما يتعلق بهذه الرغبة، أيّ مشهد سيمنح نفسه لنا هنا: -لاشيء غير ملهاة ساخرة، وخاتمة هزلية، ولا شيء غير برهان مستمرّ على أن التراجيديا الطويلة الحقيقية *قد انتهت*: إذا ما افترضنا أن كل فلسفة كانت لحظة نشأتها تراجيديا طويلة.

26

كل إنسان من الصفوة يتوق غريزيّا إلى قلعته وموطنه السريّ، حيث *يتخلّص* من العامة والجمهور والأغلبية، وحيث يحق له أن ينسى القاعدة «إنسان»، بوصفه استثناء فيها، -عدا حالة واحدة تدفع به فيها غريزة أقوى إلى المضي رأسا لملاقاة تلك القاعدة، بوصفه عارفاً، بالمعنى العظيم والاستثنائي للعبارة. من لم يعرف في معاشرته للمجتمع البشري مروراً بكل حالات الضيق والاشمئزار والقرف والشفقة، والغم والعزلة، فهو بكل تأكيد إنسان يعوزه الذوق الرفيع؛ وإذا لم يقبل طوعاً بتحمل ذلك العبء وذلك الكدر، بل يسعى إلى تفاديه بصفة مستمرة مفضلا أن يلوذ بالصمت وبالكبرياء مختفيا داخل برجه، فالثابت عندها هو أنه غير مهيّأ للمعرفة، ولم يُجبل لها أصلاً. إذ، لو كان كذلك لوجد نفسه يقول في يوم ما: «ليذهب ذوقي الرفيع إلى الجحيم! فالقاعدة أهم من الاستثناء -منّي أنا الاستثناء!»- و«*ينزل*» عندها من برجه، بل و«*يختلط*» بالجمهور. إن دراسة *الإنسان ذي المستوى المتوسط* طويلة وجدية وتتطلب لهذا الغرض الكثير من التقنّع ومن مغالبة النفس، ومن رفع الكلفة، والمعاشرة السيئة -وكل معاشرةٍ سيئةٌ عدا معاشرة أندادنا-: إن هذا يشكّل فصلا ضروريا من مسار كل

فيلسوف، ربما الفصل الكريه منه والأكثر عفونة والحافل بالخيبات أكثر من أي جزء آخر. وإذا ما كان محظوظا، على غرار ما يكون نصيب طفل المعرفة المدلّل، فإنه سيلتقي بمن يختصر له الطريق ويسهل عليه مهمته، أعني بذلك أولئك المدعوّين بالكلَبيّين، أي أولئك الذين يعترفون بكل بساطة بالحيوان وبالعاميّ و«القاعدة» في أنفسهم، ويتمتعون في الآن نفسه بما يكفي من ثراء العقل ومن الدعابة التي تدفع بهم إلى الكلام عن أنفسهم وعن أمثالهم *أمام شهود*؛ -ويحدث لهم أحيانا أن يتمرغوا داخل كتبٍ تمرّغَهم فوق روثهم. إن الكلبيّة هي الشكل الوحيد الذي تلامس فيه روح العاميّ الصدق؛ وعلى الإنسان الراقي أن يقابل كل كلبية، فجّةً كانت أم لطيفة، بأذن متنبّهة، وأن يتمنى لنفسه حظا سعيداً في كل مرة يتعالى بالقرب منه صوت المهرّج الذي لا يعرف الحياء أو الساخر العالِم. بل هناك أيضا حالات يختلط فيها الاشمئزاز بالإعجاب، وذلك عندما يحدث، بموجب نزوة من الطبيعة، أن تقترن العبقرية بواحد من هذه الأتياس والقردة الوقحة، كما هو الحال لدى القسّ غالياني، أعمق وأذكى وربما أقذر رجل من بين بني عصره؛ غير أنهكان أعمق من فولتير بكثير، وبالتالي أقل ثرثرة منه أيضا. وغالبا ما يحدث، كما ذكرت آنفا، أن تضع الطبيعة رأس عبقري على جسم قرد، وذهناً مرهفا استثنائيا على نفس دنيئة؛ وهذا أمر ليس بالنادر بين الأطباء والفيزيولوجيين الأخلاقانيين خاصة. وحيثما يكون هناك أحد يتكلم دون سخط، بل بتلقائية بريئة عن الإنسان بوصفه بطنا ذا حاجتيْن ورأساً بحاجة واحدة؛ وحيثما لا يرى امرؤ غير جوع ورغبة جنسية وغرور، **ويريد** أن يبحث عن هذه الأشياء ويراها، كما لَو أنها هي الدوافع الوحيدة والأهم التي تقف وراء أفعال الإنسان؛ وباختصار، حيثما يتكلم المرء بـ«سوء» عن الإنسان -وليس

بغرض *الإساءة* بالضرورة -، هناك يكون على محبّ المعرفة أن يصغي بجدّ وبانتباه؛ على أذنيه أن تتجه إلى حيث يتم الحديث دون سخط، لأن الإنسان الساخط، والذي يحكم أسنانه في جسده الخاص عضًّا وتمزيقا (أو في جسد العالم أو الله أو المجتمع، عوضا عن نفسه) قد يعدّه الناس من وجهة نظر أخلاقية أرقى منزلة من الساخر الضاحك والراضي عن نفسه، لكنه، وبكل ما عدا ذلك من المعايير هو الأكثر ابتذالا والأقل أهمية وإفادة. ولا أحد أكثر *كذباً* من الساخط.

27

إنه لمن الصعب على المرء أن يكون مفهوماً؛ خاصة إذا ما فكر وعاش على نحو (غانجاسروتوغاتيّ)(*) بين أناس يفكرون ويعيشون على نحو آخر: على نحو «كورماغاتي»(**) أو في أفضل الأحوال «على طريقة الضفدع»: مانداياكاغاتي-وأنا على أية حال أفعل ما بوسعي كي لا أُفهَم إلا بصعوبة[٩]- وعلينا في كل الأحوال أن نكون شكورين من صميم القلب للنية الحسنة التي يضعها الآخرون في رهافة التأويل. أما عن «الأصدقاء الطيبين»، أولئك الذين يأخذون راحتهم دوماً، ويعتقدون أن لهم الحق، كأصدقاء بطبيعة الحال، في أن يأخذوا راحتهم كما ينبغي؛ هؤلاء يحسن بنا أن نبحث لهم منذ البداية عن ساحة لعب ومرتع لممارسة كل أشكال سوء فهمهم: وهكذا يكون لدينا ما يضحكنا، -أو نتخلص كليّا من هؤلاء الأصدقاء الطيبين،- ويكون لنا أن نضحك أيضاً!

(*) على غرار تدفق نهر الغانج (الهندي)

(**) على طريقة السلحفاة

28

إن أصعب ما يمكن ترجمته من لغة إلى أخرى هو النسق الذي يميز أسلوبها: وهو شيء له أساسه في الطبع الخاص بالعرق، أو بعبارة فيزيولوجية، في متوسط نسق «الأيْض» عند ذلك العرق. فهناك ترجمات حسنة النية تكاد تكون نسخاً مزورة، وابتذالا غير متعمّد للأصل، لا لشيء إلا لأن النسق الجسور والمرح، ذلك الذي يقفز فوق كل ما هو خطير في الأشياء والكلمات ويساعد على تخطّيه، قد تعذّر على الترجمة. فالألماني يجد نفسه عاجزاً تقريبا عن أداء الـ«بريستو» (الإيقاع السريع) في لغته؛ ويحق لنا بالتالي أن نستنتج، وعن وجه حق، بأنه يقف عاجزاً دون الكثير من الدقائق الأكثر متعة وجسارة للتفكير الحرّ، والفكر المتحرر. وبقدر ما تظل روح المهرج والساخر غريبة عنه جسداً وروحاً، يظل عاجزا عن نسق أريستوفان وبيترونيوس. بينما ينتعش لديه على نحو وافر ومتنوع كل ماهو ثقيل وثخين قليل الانسياب، وغليظ مجلجل، وكل أنواع الأسلوب المطنِب والمضجر؛ ولتغفروا لي إذا ما قلت إن الكتابات النثرية لغوته نفسه لا تمثل استثناء في هذا المضمار، بذلك المزيج من التكلّف والتنميق الذيْن يميّزانها كصورة عن «الزمن القديم الرائع» الذي تنتمي إليه، وكتعبير عن الذوق الألماني، في زمن كان فيه «ذوق ألماني»: ذوق زخرف مفرط in moribus et artibus –في الأخلاق وفي الفن. بينما مثّل ليسّينغ استثناء بفضل طبعه المسرحي، الذي استطاع أن يفهم الكثير وأن يتقن الكثير، هو الذي لم يكن من سبيل الصدفة أنه ترجم بايْل، وأنه كان يحبذ معاشرة فولتير وديدرو، وأكثر من ذلك كان يفضل الهروب إلى الشعراء الهزليين الرومان؛ كان ليسينغ يحب في نسق حرية العقل ذلك الملاذ الذي يمنحه إياه للهروب من ألمانيا.

لكن كيف للغة الألمانية، حتى بقلم واحد مثل ليسينغ، أن تحاكي نسق ماكيافيلي الذي يجعلنا في «أميره» نتنفس الهواء الجاف اللطيف لفلورنسا، والذي يظل، وهو يتناول المسألة الأكثر جدية، لا يتخلى عن طرحها في نسق سريع (*allegressimo*) منفلت من كل القيود، ربما ليس دون إحساس فنّي خبيث بذلك التناقض الذي يجازف به: تفكيرٌ مسترسل، ثقيل، قاس، خطير على وتيرة راكضة وبمزاج على قدر لا يظاهى من المرح الطائش. ومن سيجرؤ بالنهاية على ترجمة بيترونيوس إلى الألمانية، ذاك الذي كان، وأكثر من أي موسيقيّ كبير حتى الآن، سيّد البريستو في ابتكاراته ومكتشفاته وعباراته: -وأية أهمية بالنهاية لكل مستنقعات العالم السيء والمريض، بما في ذلك «العالم القديم»، عندما يكون للمرء قدمان من ريح مثله هو، وله هبوبه وأنفاسُه، وهزؤه المحرِّر الذي يشفي كل شيء بما أنه يجعل كل شيء *راكضا*! أما عن أريستوفان، ذلك الروح المبهِج والمكمِّل، والذي سنغفر من أجله لمجمل الكيان الإغريقي أنه وُجد، بشرط أن نكون قد فهمنا بكامل العمق ماكان مبهجا في ذلك الكيان، وما يحتاج إلى الغفران. وإنني لا أعرف شيئا جعلني أنظر بدهشة في الطبيعة السريّة الملغزة لأفلاطون أكثر من هذه الواقعة الصغيرة التي تقول بأن ما وجده الناس تحت وسادته على سرير موته لم يكن «إنجيلا» ما، ولا شيئا من الكتابات المصريّة أو الفيثاغورية، أو الأفلاطونية، بل أريستوفان! وكيف كان لواحد مثل أفلاطون بالنهاية أن يتحمل الحياة -حياة يونانيّة قد أعلن رفضه لها- من دون أريستوفان!-

29

الاستقلالية شأن أقليّة قليلة من الناس؛ إنه امتياز الأقوياء. ومن يحاول ذلك، حتى وهو محقّ في ذلك، لكن دون أن يكون هنالك ما يرغمه عليه، يبرهن بذلك لا على أنه قوي فقط، بل على أنه جسور حدّ الطيش. فهو يلقي بنفسه داخل متاهة ويضاعف آلاف الأضعاف من المخاطر المرافقة لحياة الإنسان في كل الأحوال. وليس أقلها أن لا يكون هناك من أحد يمكنه أن يرى كيف وأين يأخذه التيه داخل متاهته، وحيداً، وفريسة لوحشٍ أشبه بمينوتور الضمير يمزقه إرباً. وإذا ما لقي أحدُ هؤلاء حتفه، فإن ذلك يحدث أبعد ما يكون عن فهم البشر، بحيث لا يمكنهم أن يحسوا بذلك أو يشفقوا عليه. هكذا يكون قد ذهب دون رجعة! دون أن يستطيع العودة إلى شفقة البشر أيضا--

30

سيكون لرؤانا السامية، ولا بد أن يكون لها، وقع الحماقات، وأحيانا وقع الجرائم إذا ما حصل ما لا ينبغي أن يحصل ووقعت في مسامع أولئك الذين ليسوا مهيئين لها، ولا هم ممن خُلقوا لها. فالظاهر والباطن، بحسب تمييز الفلاسفة من كل البلدان والعصور، لدى الهنود واليونانيين والفرس والمسلمين، أي حيثما كان هناك الاعتقاد في التراتب، لا في المساواة وفي الحقوق المتساوية، لا يتميز أحدهما عن الآخر لكون الظاهر يحتل موقع الخارج، ومن هناك -لا من الداخل- ينظر ويقدّر، ويقيس، ويحكم، بل أكثر من ذلك وأهمّ أنه ينظر إلى الأشياء من أسفل، بينما ينظر الباطني إليها *من أعلى*. هناك أعالٍ للروح تبدو التراجيديا نفسها من منظورها وقد كفت عن فعلها المأساويّ؛ وكل بؤس العالم مأخوذاً في مجمله، من ترى

سيحق له أن يجرؤ على الحكم فيما إذا كان لمشهده أن يحثّ ويرغم حتماً على الإشفاق، وبالتالي على مضاعفة الألم؟ إنّ ما يصلح غذاء أو شراباً منعشاً للنوع الأرقى يكون حتماً شيئا بمثابة السمّ بالنسبة لمن هم من نوع مختلف وأدنى. كما أن فضائل العاميّ ستكون على الأرجح رذيلة وضعفاً لدى فيلسوفٍ. وقد يكون من الممكن لإنسان ذي جبلّة رفيعة، أن لا يحوز خصالاً إلا إذا ما انحطّ وهلك، خصالا ستجعل الناس في العالم الأدنى الذي انحطّ إليه يُكبرونه عندها ويُجلّونه كقدّيس. وهناك كتب تكون لها قيمة تختلف من النقيض إلى النقيض بالنسبة للروح والعافية الجسدية، وذلك بحسب ما إذا كانت الأنفس التي تستعملها من النوع الوضيع وذي الطاقات الواهنة، أم من النوع الأرقى والأكثر حيويّة: في الحالة الأولى تكون كتباً خطيرة، مفسدة، مدمِّرة، مفتِّتة؛ وفي الحالة الثانية أصوات النفير التي تحرّض من هم أشد بسالة وتدعوهم إلى تجسيد بسالتهم. إن الكتب الموجهة للجميع تفوح كلها برائحة كريهة: رائحةُ صغار الناس ملتصقةٌ بجلدتها. وحيث يأكل الشعب ويشرب، وحتى حيث يعبد، عادة ما تكون هناك نتانة. وعلى المرء ألاّ يرتاد الكنائس إن كان يريد هواء نقيّاً.(١٠)

31(11)

في سنّيي الشباب نُكبر ونحتقر دون دراية بفنّ الدقائق، تلك التي تمثل أفضل مكسب في الحياة. ويكون علينا بعدها، من باب العدل، أن ندفع الثمن غاليا لنكفّر عما اقترفناه تجاه أناس وأشياء من رجْمٍ بتلك الـ«نعم» و«لا» القطعيّتين. ويبدو أن الأمور قد ضبطت على نحوٍ يجعل أفسد الأذواق، ذوق المطلقات، يغدو عرضة لأقسى أنواع الهزء

و التشنيع، إلى أن يتعلم المرء كيف يُدخل شيئا من الفن على أحاسيسه، بل وأفضل من ذلك أن يقدم على تجربة المصطَنع أيضا، كما يفعل كل الذين لهم دراية حقيقية بفنّ الحياة. فطبع الحدة والإجلال الذي يميّز الشباب، يبدو كما لو أنه لا يهدأ له بال قبل أن يكون قد مارس عمل تزويره على البشر والأشياء، حتى يغدو بإمكانه أن يطوّعها إلى رغباته وأهوائه: فالشباب في حد ذاته شيء مزوِّر ومخادع. وفيما بعد، عندما يكون على النفس الفتيّة، وقد دعكتها مرارات الخيبات المتكررة، أن تنقلب أخيراً على نفسها، وبنفس الحرارة والعنف دائما حتى في شكّها وندمها؛ وبأيّ حنق ستنقلب عندها على نفسها، وبأي عنف ستظل تتمزّق بنفاد صبر، وكيف ستنتقم من ذلك العمى الذي لازمها طويلا، كما لو كان ضرباً من العمى الإرادي! خلال هذه المرحلة الانتقالية يعاقب المرء نفسه من خلال الارتياب في إحساسه الخاص؛ يخضع المرء حماسه إلى التعذيب بواسطة الشك، فراحة الضمير تصبح لديه بمثابة خطر، شيء شبيه بالتستر وبعياء يصيب النزاهة المرهفة. ثم، وأهمّ من ذلك كله، ينحاز المرء عندها؛ ينحاز مبدئيا «ضد الشباب». -عشر سنوات بعدها، ويدرك أن ذلك كله أيضاً -شباباً كان!

32

خلال أطول فترة من تاريخ الإنسانية -وتسمى ماقبل التاريخ- كانت قيمة أو لاقيمة فعل ما تُستمد من نتائجه؛ أما الفعل نفسه فلم يكن يولى أهمية تذكر، مثله مثل مصدره أيضاً، بل ربما لا يُلتفت إليه تقريباً إلا على غرار ما يُعرف في الصين اليوم، حيث كل مفخرة أو عمل يجلب العار يقوم به الأبناء يحسب على الآباء؛ هكذا كان نجاح

أو إخفاق عمل ما هو الذي يقود الناس إلى الحكم عليه بأنه كان حسناً أو سيئا. لنسمّ هذه الفترة من الزمن العصر *ماقبل الأخلاقي* للإنسانية: عصر لم يعرف الناس فيه بعد مبدأ «اعرفْ نفسك بنفسك!». خلال العشر آلاف سنة الأخيرة تدرّج البشر في جزء واسع من الأرض خطوةً تلو الخطوة نحو الكف عن اعتماد نتيجة الفعل، بل أصل الفعل، للحكم على قيمته: إنه حدث عظيم في مجمله، اكتساب دقة أكبر في النظر والحكم، كنتيجة لا إرادية لسيادة القيم الأرستقراطية وللإيمان بـ«الأصل»؛ علامة عصر يمكننا أن نسميه بـ«العصر الأخلاقي» بالمعنى الصارم للعبارة: معه أُنجزت الخطوة الأولى نحو معرفة الذات. الأصل عوضاً عن النتيجة: أيْ قلبٌ لزاوية النظر! ومن المؤكد أنها عملية قلب لم يتم التوصل إليها إلا عبر سلسلة طويلة من الصراعات والأخذ والردّ! ولاشك أن ذلك قد رافقه ظهور خرافة جديدة خطيرة، أي نوع من ضيق التأويل الذي شرع في بسط سيطرته، فقد راح الناس يتأولون أصل فعل بالمعنى الدقيق على أنه أصلٌ *عن قصد* بعينه: وتم الاتفاق على أن قيمة فعل ما تكمن في القصد الذي صدر عنه. القصد بوصفه المصدر الكليّ ومجمل ماقبل تاريخ فعلٍ ما. تحت طائلة هذا الحكم المسبق ظل الناس يمتدحون ويعاتبون ويقاضون ويتفلسفون أخلاقيًّا حتى حدود العصر الحديث تقريبا. لكن، ألا نكون اليوم أمام ضرورة قلب جديد وزحزحة جديدة لأسس القيم، بفضل ما تم من مراجعة جديدة لأنفسنا وقراءة أعمق للإنسان؛ ألا نقف على عتبة مرحلة ربما نستطيع أن ننعتها سلباً بادئ الأمر بالـ *خارجة عن الأخلاق*: اليوم، حيث يسود بيننا، نحن اللاأخلاقيين على الأقل، شك بأن ذلك *اللاقصديّ* بالذات في فعل ما هو الذي ينطوي على القيمة الحاسمة لذلك الفعل، وأن كل قصديّ فيه، كل ما يُرى منه ويدرك، وما يمكن

أن يكون مدركاً «بوعي» لا علاقة له إلا بسطحه وقشرته التي، وككل قشرة، تحجب أكثر مما تفشي من الأشياء؟ وباختصار، نحن نعتقد أن القصد ليس سوى علامة وعرَض يحتاج إلى تأويل قبل كل شيء، وأن العلامة علاوة على ذلك محمّلة بدلالات متعددة، وبالتالي لا تستطيع لوحدها أن تعني شيئا تقريباً.[١٢] ونعتقد أن الأخلاق بالمعنى المتعارف عليه حتى الآن، أيْ أخلاق المقاصد كانت فكرة مسبقة: تسرّعاً، وشيئا مؤقتا ربما، شيئا من منزلة التنجيم والألخيمياء، شيئا لا بد من تجاوزه في كل الأحوال. إنّ تجاوز الأخلاق، أو بمعنى ما، تجاوز الأخلاق لنفسها، سيكون هذا هو الإسم الذي نطلقه على عمل سري طويل ملقى على عاتق الضمائر الأكثر رهافة من عصرنا الحاضر، والأكثر صدقاً وخبثاً، بوصفها محكّات اختبارٍ حيّة للنفس. -

33

لا مفرّ: لا بد أن نخضع كل أحاسيس التفاني والتضحية في سبيل القريب، ومجمل أخلاقيات نكران الذات إلى محاسبة قاسية ومقاضاة صارمة، وكذلك إستطيقا «الرؤية الغيريّة» التي أصبح تخنّثُ الفن يسعى اليوم بطرق مغرية إلى ما يوفر له راحة الضمير في ظل سيطرتها. سحر فائق وعسل كثير في هذه الأحاسيس: «لأجل الآخرين» و «لا شيء لأجلي»- أكثر مما ينبغي كي نضاعف من ارتيابنا، ونتساءل: «ألا تكون هذه كلها *إغراءات*؟» -أن تُعجب من يمتلكها وينتفع من حلاوة ثمارها، وجمهورَ المشاهدين أيضاً، فهذا لا يكفي كي يكون حجة لصالحها، بل إن ذلك هو ما يدعو إلى الحذر. لكن حذرين إذاً!-

أيًّا كانت الزاوية الفلسفية التي ننظر منها اليوم، فإن الطابع المغلوط للعالم الذي نعتقد أننا نعيش داخله، يظل من كل منظور هو الشيء الأكثر يقيناً وثباتاً في كل ما يمكن أن تقع عليه أعيننا؛ وسنجد أسبابا تلو أسباب تجرنا إلى الاعتقاد في وجود مبدأ خادع في «جوهر الأشياء». غير أن من سيجعل تفكيرنا نفسه، أي «العقلَ»، مسؤولا عن مغلوطية العالم -وهذا مخرجٌ مشرّف لكل مدافع عن وعي أو لا وعي عن قضيّة الله-، كل من سيعتبر هذا العالم، بما فيه الفضاء والزمن والشكل والحركة كشيء من قبيل *الاستنتاج* الخاطئ، ذاك سيكون لديه على الأقل سبب وجيه لكي يرتاب بالنهاية في مجمل التفكير نفسه: ألم يوقعنا العقل إلى حد الآن في أكبر الأحابيل؟ وأيّ شيء يضمن لنا أنه لن يظل مستمرا في ما كان يفعله بنا دوماً؟ وبمنتهى الجديّة: هناك في براءة المفكرين شيء مؤثّر، ويبعث على الاحترام مازال يخوّلهم حتى وقتنا الحاضر بأن يقفوا أمام الوعي متوسّلين أن يجيبهم *بصدق*: مثلا، إن كان «حقيقيا»، ولِم يصرّ على التخلص من العالم الخارجي، وأسئلة كثيرة أخرى من هذا النوع. إن الإيمان بـ«يقينيات بلا توسط» ضرب من السذاجة *الأخلاقية* التي تشرّفنا نحن الفلاسفة؛ لكن علينا أن نكف الآن عن كوننا أناسا «أخلاقيين فحسب»! فهذا الاعتقاد، إذا ما صرفنا النظر عن الأخلاق، سخافة ليس فيها ما يشرّفنا في الحقيقة! ولئن كانت الريبة المتحفزة على الدوام علامة «طبع سيئ» في نظر المجتمع البورجوازي، وتعدّ بالتالي قلّة فطنة؛ فما الذي يمنعنا، هنا في ما بيننا، من أن نكون قليلي فطنة وأن نقول: فعلا، للفيلسوف *الحق* في أن يكون «سيء الطبع» بوصفه الكائن الذي ظل حتى الآن الأكثر عرضة للخداع من بين كل ما هبّ على وجه الأرض ودبّ: عليه أن

يجعل اليوم من الارتياب *واجباً*، وأن يلقي على العالم اليوم نظرة سوء قادمة من الأعماق السحيقة للظنّ. ولتغفروا لي مزحة هذا التهكّم القاتم: فقد تعلمت أنا أيضا ومنذ زمن غير قصير كيف أفكر بطريقة مختلفة في مسألة الخداع والوقوع في الخديعة، وكيف يكون لي تقدير مختلف عنه، وأظل محتفظا باحتياطيّ من الوخزات اللاذعة لنوبات الغيظ الشديد، التي يعبر بها الفلاسفة عن رفضهم أن يكونوا قد خُدعوا. ولِم لا يكون ذلك؟ فالاعتقاد بأن الحقيقة أكثر قيمة من الظاهر لم يعد سوى مجرد حكم أخلاقي مسبق؛ بل إنه الفرضية الأكثر تهافتاً في العالم. ولم لا نعترف بأنه لن تكون هناك حياة على الإطلاق إن لم تقم على أسس من تخمينات وظاهريّات منظورية، وإذا ما أردنا بدافع من الحماس الفاضل لبعض الفلاسفة وحماقتهم، أن نلغي العالم الظاهري كليّا، - إذا ما افترضنا *أنكم* تستطيعون ذلك-، فإنه لن يظل هناك شيء من «حقيقتكم» أيضا! إذ، هل هناك من شيء يرغمنا على الافتراض بأن هناك تناقضاً بين ما هو «حقيقي» وما هو «خاطئ»؟ ألا يكون كافياً أن نفترض وجود درجات في الظهوريّة، وأن هناك ظلالا وتلوينات للظهور داكنة هنا وأقل قتامة هناك، أي نِسباً مختلفة، بلغة الرسامين؟ ولم لا يكون هذا العالم *الذي* يعنينا شيئا متخيَّلاً لا غير؟ وإذا ما سألَنا سائلٌ هنا: «لكن، ألا يرتبط وجود المتخيَّل بوجود صانع؟»، ألا يحق لنا أن نجيبه: *ولِم ذلك*؟ ألا يمكن أن تكون «يرتبط» هذه مرتبطة بدورها بمتخيَّل؟ أوَمِن غير المسموح به أن نتعامل بشيء من السخرية مع الفاعل، كما مع الفعل وموضوع الفعل؟ ألا يحق للفيلسوف أن يترفع على الإيمان بالنحو؟ مع كل احترامنا للمربّيات! لكن، ألم يحن الوقت للفلسفة كي تهجر إيمان المربّيات؟[١٣]

35

يا لفولتير! يا للإنسانية! ياللسخافة! للحقيقة والبحث عن الحقيقة شأن وأيّ شأن غريب؛ وإذا تعامل الإنسان مع هذا الأمر على نحو إنساني مفرط في الإنسانية، بمعنى: "il ne cherche le vrai que pour faire le bien"(*) -فإني أراهن أنه لن يجد شيئا![١٤]

36

وإذا ما افترضنا أنه ما من شيء معطى لدينا كواقع سوى عالم رغباتنا وأهوائنا، وأننا لا نستطيع الوصول إلى «واقع» آخر فوقنا أو تحتنا غير واقع غرائزنا -وليس التفكير سوى تفاعل هذه الغرائز مع بعضها البعض-؛ ألا يحق لنا عندها أن نجرّب ونطرح السؤال عما إذا لم يكن هذا المعطى *كافياً* كي نفهم من خلال قياس الشبيه بشبيهه ذلك العالم الآخر أيضاً المسمى بالميكانيكي (أو «المادي»)، ولا أعني بذلك العالم كخدعة، كـ«ظاهر» وكـ«تمثّل» (بمفهوم كل من بيركلاي وشوبنهاور)، بل كعالم من نفس المنزلة الواقعية التي لإحساسنا؛ أي كشكل بدائي لعالم الأحاسيس يتعايش داخله ضمن وحدة صمّاء كل ما سينفصل عن بعضه فيما بعد ضمن الصيرورة العضوية، ويغدو متفرعا ومختلفا (ويغدو أيضا، وفقاً لذلك، ليّنا وضعيفاً)؛ العالم كنوع من الحياة الغريزية تترابط داخلها كل الوظائف العضوية بموجب انتظام ذاتي وإدماج وتغذية وإقصاء وأيْض، ترابطاً تأليفيًّا؛ كشكل قبليّ للحياة؟ -وبالنهاية فإنه ليس مسموحاً فحسب أن نقوم بهذه التجربة،

(*) وردت باللغة الفرنسية في النص الأصلي، وتعني: «لا يبحث عن الحقيقة إلا لفعل الخير»

بل إن الضمير *المنهجيّ* يفرض ذلك. ألاّ نفترض أنواعا عديدة من الأسباب قبل أن نكون قد استوفينا النظر في سبب واحد ودفعنا بتلك العملية حتى حدها الأقصى (إلى حدود اللغو، بعد إذنكم): إن هذه أخلاقية منهجية لا مجال للتملص منها اليوم؛ وهذا معطى بديهي، أو مستمدّ «بحدّ التعريف»، كما يمكن لعالم رياضيّ أن يقول. والسؤال بالنهاية هو: هل نعترف بالإرادة *عنصراً فاعلاً* حقّا، وهل نؤمن بسببية الإرادة؟ وإذا ما فعلنا -والإيمان *بذلك* هو في الحقيقة إيماننا بالسببية نفسها-، ***فسيكون علينا*** عندها أن نجرّب أن نقر افتراضاً بسببية الإرادة بوصفها السببية الوحيدة. إن «الإرادة» لا تستطيع أن تفعل بطبيعة الحال إلا في «إرادة» -لا في «مواد» (ليس في «الأعصاب» مثلا).

وفي كلمة مختصرة: علينا أن نجازف بهذا الافتراض: حيثما يكون هناك اعتراف بـ«نتائج» تكون هناك إرادة تفعل في إرادة، وإن كل عملية ميكانيكية، بما تنطوي عليه من طاقة محرّكة، هي في الحقيقة طاقة إرادة، وفعل إرادة. -وإذا ما افترضنا بالنهاية أنه بإمكاننا أن نفسر مجمل حياتنا الغريزية على أنها تَشكُّلٌ وتَفرُّعٌ عن صورة أساسية واحدة للإرادة ؛ إرادة القوة تحديداً، بحسب *مقولتي*. -وإذا ما افترضنا أنه بإمكاننا أن نحيل كل الوظائف العضوية إلى إرادة القوة هذه، وأن نجد في ذلك حلا لمشكلة الإنجاب والتغذية -وهي مشكلة واحدة في الحقيقة-، فسنكون قد اكتسبنا الحق في أن نعرّف بوضوح *كلَّ* طاقة فاعلة بأنها: ***إرادةَ قوة***. إن العالم، منظوراً إليه من الداخل، العالم محدَّداً ومعرَّفاً في «معقوليّته»، سيكون فعلا «إرادة قوة»، ولا شيء غيرها.

37

«ماذا؟ ألا يعني هذا بعبارة عاميّة: أن الله قد أُبطل، أما الشيطان فلا»؟ بل بالعكس! بل بالعكس، أيها الأصدقاء! لكن، يا للشيطان، ما الذي يرغمكم على الكلام بلغة العامّة!-

38

وكما حدث مؤخراً، وفي عز أنوار العصر الحديث مع الثورة الفرنسية، تلك المهزلة الشنيعة والزائدة عن اللزوم إذا ما نظرنا إليها عن كثب، لكن المراقبين لها عن بعد من الشرفاء والمتحمسين من كامل أنحاء أوروبا ظلوا لفترة طويلة من الزمن يتأولونها وهم يُسقطون عليها شتى ضروب استيائهم وحماستهم الخاصة، إلى أن *توارى النص بالنهاية تحت التأويلات*؛ يمكن أن يحدث لخلف نبيل أن يسئ فهم مجمل الماضي ويمنحه بذلك ما يجعله شيئا مقبولا. بل وأكثر من ذلك: ألا يكون هذا الأمر قد حصل فعلا؟ ألم نكن نحن أنفسنا-ذلك «الخلَف النبيل»؟ أوَلا يكون الأمر قد قُضي وانتهى، الآن بالذات وقد غدونا مدركين له؟

39

لا أحد سيقبل بسهولة بأن يعتبر نظرية ما صحيحة فقط لمجرد أنها تجلب السعادة، أو تجعل صاحبها فاضلاً؛ ربما مع استثناء «المثاليين» اللطيفين المولعين بالخير، وبالحقيقي والجميل ويدَعون شتى أنواع المرغوبات المزوّقة الخيّرة البليدة تسبح في خليط مضطرب داخل بركتها. غير أن السعادة والفضيلة ليستا حجّة. لكن المرء كثيرا ما ينسى، بما في ذلك في صفوف العقلاء، أن جلب الشقاء وفعل الشرّ

لا يمثلان بدورهما حججاً مضادة. يمكن لشيء ما أن يكون حقيقة، مع أنه قد يكون على درجة عالية من الضرر والخطورة. بل إن الهلاك بسبب من المعرفة الكاملة قد يكون جزءً مما يكوّن أساس الوجود؛ بحيث يمكننا أن نقيس قوّة عقل ما بمستوى القدر الذي يستطيع أن يتحمل من «الحقيقة»؛ أو بعبارة أوضح إلى أي حد وبأي مقدار *سيكون عليه* أن يخفّف منها ويحلّيَ، ويعتّم، ويحجب، ويزوّر. غير أنه ما من شك هناك في أنه، لدى اكتشاف *أجزاء* بعينها من المعرفة، تكون الشريرة منها ومسبّبة الوبال هي المحبّذة وصاحبة الحظوظ الأوفر للنجاح، كي لا نتكلم عن الشريرين السعداء، ذلك النوع الذي يتكتم عليه الأخلاقيون دوماً. ربما تكون القسوة والمكر من الشروط الأكثر ملاءَمةً لنشأة العقل القوي والفيلسوف المستقل أكثر من تلك الطيبة الليّنة الرقيقة الطيّعة وذلك النوع من فن السماحة التي يثمّنها الناس، وعن حق، في شخصية العلماء. مع التنبيه إلى شرط أساسي، وهو أن لا يقتصر مفهوم «فيلسوف» على الفيلسوف الذي يؤلف كتباً -أو يطرح فلسفته في كتاب! -وهذه سمة أخرى للفيلسوف الحرّ يقدمها لنا ستاندال، ولا أريد ألاّ أسوقها هنا لمجرد مجاراة للذوق الألماني -إذ هي تتنافى فعلا والذوق الألماني-. «كي يكون الفيلسوف فيلسوفاً جيّداً»، يقول ذلك الخبير النفساني الكبير، «لا بد أن يكون جافًّا، واضحاً، خال من الأوهام. وإنّ مصرفيًّا جمع ثروة يكون حائزاً على جزء من الطبع الضروري للقيام باكتشافات في مجال الفلسفة، أي لكي يرى بوضوح في ما هو كائن.»(*)

(*) يورد نيتشه هذه الجملة لستاندال باللغة الفرنسية في نصه، وجاءت كالآتي:
"pour être bon philosophe", sagt dieser letzte grosse Psycholog,

كل عميق يحب القناع؛ بل إن أعمق الأشياء تمقت حتى الصورة والاستعارة. أوَلاَ يكون الضدّ هو أفضل قناع يضعه حياءُ إله؟ سؤال جدير بأن يُطرح؛ وربما سيكون من الغريب حقّا إن لم يجرؤ أحد المتصوّفة على طرح مثل هذا السؤال على نفسه(*). فهناك مجريات على غاية من اللطافة تجعل المرء يُحسن فعلا بأن يغطيها بشيء خشن فجّ ما ويجعلها خفيّة عن الأنظار. وهناك أفعال يمليها الحب وسخاءٌ جامح يحسُن بالمرء بعدها أن يمسك بعصا وينهال بها على من كان شاهداً عليها: هكذا يلقي غمامة على ذاكرته. هناك من يعرف كيف يشوّش ذاكرته الخاصة ويعنّفها، كي ينتقم على الأقل من ذلك الشاهد الوحيد على فعله: إنّ الخجل سيّد الابتكار. وليست الأفعال السيئة وحدها هي التي تجعل صاحبها يخجل أشد الخجل بسببها؛ وليس المكر وحده هو ما يختبئ وراء القناع، -فهناك الكثير من الطيبة في المكر. وباستطاعتي أن أتصور شخصاً لديه شيء ثمين وهشّ يخبؤه يمضي في الحياة متدحرجا متكوّرا وثقيلا على غرار برميل عتيق: إن رهافة حيائه هي التي تريد ذلك. إن امرئا ذا حياء عميق تمضي وقائع مصيره وقراراته اللطيفة على دروب لا يطرقها غير قلة من الناس، ولا يحق لأقرب الناس إليه ولثقاته أن يعلموا شيئا عن وجودها: فالمخاطر التي تحف بحياته تظل خفية عن أنظارهم، وكذلك أمانُه المستعاد. إن

"il faut être sec, clair, sans illusion. Un banquier, qui a fait fortune, a une partie du caractère requis pour faire des découvertes en philosophie, c'est-à-dire pour voir clair dans ce qui est."

(*) الضد كأفضل قناع لحياء الله؟ أو ما يعني: ألا يكون الشيطان قناعا لله؟ وهنا يمكن أن نصحح قليلا من استغراب نيتشة من عدم تفظن الصوفيين من طرح هذا السؤال بأن نحيل على مرافعة الحلاج عن إبليس وتبرئته.

مثل هذا الرجل المتخفي الذي يحتاج غريزيّا إلى الكلام من أجل الصمت والتكتم، والذي لا ينضب له معين في التملص من التواصل وفي إسدال الحجب على أفكاره، يريد ويصرّ على أن يكون له قناع يحلّ محلّه في قلوب وأذهان أصدقائه؛ وحتى إذا ما افترضنا أنه لا يريد ذلك، فإنه سيدرك مع ذلك في يوم ما أن قناعاً كان دوماً هناك عوضاً عنه[١٥]، -وأن ذلك حسنٌ على أية حال. كل عقل عميق يحتاج إلى قناع؛ بل أكثر من ذلك، حول كل عقل عميق ينشأ دوماً ويتطور قناع ما، وذلك بفضل التأويلات الخاطئة، أي السطحية التي تُتأوّل بها بصفة مستمرة كل كلمة، وكل خطوة، وكل علامة حياة تصدر عنه. -

41

يجب أن يبرهن المرء لنفسه على أنه مجبول للاستقلال وليكون آمراً؛ وذلك في الوقت المناسب. ولا ينبغي أن نهرب من اختبار النفس، وإن كان بإمكان هذا الأمر أن يكون أخطر لعبة مما يمكن للمرء أن يلعب، وهي بالنهاية لعبة براهين نكون الشاهدَ الوحيد عليها، ولا تُطرح أمام أي قاض آخر غيرنا. ألاّ نتعلق بشخص، وإن كان أحبّ الناس إلينا؛ -فكل شخص سجنٌ، وركنٌ للانزواء أيضا. ألاّ نتعلق بوطن، وإن كان الأكثر معاناة، والأكثر حاجة إلى المساعدة -علما وأنه مِن الأسهل على المرء أن يجعل قلبه يتخلص من وطن متغلّب. ألاّ نتعلّق بشفقة، وإن كان المعنيّ إنساناً أرقى جعلتنا الصدف وحدها نطّلع على عذاباته الكبرى وحالة ضيقه النادرة. ألاّ نتعلّق بعِلم، وإن استمالنا بأثمن الاكتشافات التي تبدو كما لو أنه يخبؤها *لنا* خصيصاً. ألاّ نتعلق بانفصالنا وبشهوة المناطق النائية والغريبة التي تغوي الطائر

الماضيَ دوماً هروباً إلى الأعالي ونحو مزيد من الأشياء التي ستتراءى له من تحته: فذاك هو الخطر المحدق بكل كائن مولع بالطيران. ألاّ نتعلق بفضائلنا لنضحّي بكياننا الكلّي لصالح خاصيّة جزئيّة منّا، لـ«سخائنا» مثلا: خطر الأخطار كلها الذي يتهدد الأرواح النبيلة والثريّة التي تبدد نفسها بإسراف وبلا مبالاة تقريباً، وتدفع بفضيلة السخاء إلى حدود الرذيلة. على المرء أن يعرف كيف *يحفظ نفسه*: ذلك هو البرهان الأكبر على الاستقلالية(*).

42

جنس جديد من الفلاسفة يلوح في الأفق: سأغامر بتعميد هؤلاء الفلاسفة باسمٍ لا يخلو من خطر. ولعلهم، بحسب ما حزرتهم، أو لنقل كما سمحوا لي بأن أحزرهم -إذ من طبع نوعهم هذا أنهم *يريدون* في مكان ما وبطريقة ما أن يظلوا لغزاً- فلاسفة للمستقبل، سيكون لهم عن حقّ، وربما دون حق، أن يُمنحوا لقب *المجرِّبين*(**). وهذه التسمية نفسها ليست بالنهاية سوى تجربة، وإذا ما أردنا: تجريباً.

(*) النقطتان الأخيرتان هما بالضبط ما لم يفلح فيه نيتشه. حتى لكأنه يبدو محاورا لنفسه هنا ومحذّرا لها، -كما يفعل في العديد من المواقع من مختلف كتاباته بالمناسبة. ضرب من محاولة بالمسك بعنان شغف جامح لا يستطيع التحكم فيه، ومصير لا يستطيع له ردّا. (م)

(**) Versucher: «المجرِّب» بالمعنى الديني الإنجيلي، وتعني الذي يغري ويغوي. وهو الإسم الذي أطلق على الشيطان في الأناجيل. ونلاحظ أن نيتشه في استعماله للسجل اللغوي الإنجيلي، كما تعودنا منه في مختلف مؤلفاته، يظل دوما على طريقته في توخي الباروديا بهدف «قلب القيم». ينسحب هذا على استعماله لعبارات: مجرِّبين، وتجربة، وتجريب في نفس الجملة.

هل سيكون هؤلاء الفلاسفة المستقبليّون أصدقاء للحقيقة هم أيضاً؟ من المحتمل جدًّا: إذ كل الفلاسفة كانوا محبّين لحقائقهم حتى الآن. لكن من المؤكد أنهم لن يكونوا دوغمائيين. سيكون ذلك منافياً لكبريائهم، ومما لا يناسب ذوقهم أيضاً، إذا ما أُريدَ لحقيقتهم أن تكون حقيقة للجميع؛ وتلك هي الأمنية والفكرة السرية التي ظلت تسكن طموحات الدوغمائيين حتى الآن. «حكمي هو حكمي *الخاص*؛ ولا يمكن لغيري أن يدعي بكل بساطة حقًّا له في ذلك»، قد يقول فيلسوف مستقبليّ. علينا أن نتخلص من الذوق السمج الذي يتمثل في إرادة أن نكون على اتفاق مع عدد كبير من الناس. ما هو «خير» لن يظلّ حسناً إذا ما جرى على لسان جاري. وكيف يمكن أن يكون هناك «خير عمومي»![*] فالعبارة تحتوي على تناقض في ذاتها؛ إذ ما يمكن أن يكون عموميًّا يكون قليل القيمة دوماً. وبالنهاية، ينبغي أن تظل الأمور على ما هي عليه وما كانت عليه دوماً: الأشياء العظيمة للعظماء، والأعماق للعميقين، والأشياء الليّنة والرقيقة للأرواح الرقيقة، وعموماً وباختصار: كل ما هو نادرٌ للنادرين. –[١٦]

(*) مرة أخرى، عبارة تمكّن نيتشه من تلاعب لفظي على معنيين متضادين، "Gemeingut" المركبة من كلمتي خير (أو حسن) و عمومي (وكذلك عامّي)، وتعني «مُلكا عموميا» أو مشتركاً، غير أن نيتشه، وكما عهدنا لديه من تلاعب خبيث بالألفاظ يوظف المعنى الثاني لعبارة gemein (عامّي) ليدس سخريته مما يوحي ظاهر اللفظ بأنه «خير عمومي» ولا يرى فيه سوى «خير عاميّ» –سوقيّ. وبالتالي يكون المعنى الذي أراده نيتشه هو: كل ما هو ملك عموميّ لا يمكن أن يكون حسناً.

هل عليّ الآن، وبعد كل ما قلنا آنفا، أن أضيف أنهم سيكونوا عقولا حرّة هم أيضا، هؤلاء الفلاسفة المستقبليّون، -ومن المؤكد أيضاً أنهم لن يكونوا مجرد مفكرين أحرارا فقط، بل شيئا أكثر من ذلك، أرقى وأكبر ومختلفاً جوهريًّا لا يقبل بأن يساء تقديره وأن يتم الخلط بينه وبين غيره؟ لكن، وفيما أنا أقول هذا، أحسّ تجاههم، وبالقدر نفسه تقريباً الذي أحس به تجاه أنفسنا، نحن طلائعهم والمبشرين بقدومهم، نحن المفكرين الأحرار- أحس *بواجب* أن نبدد عنّا معاً حكماً مسبقاً قديماً وسخيفاً، سوء فهم ظل لزمن طويل مثل ضباب يغمر مفهوم «المفكر الحر» ويجعله غير واضح. ففي كل بلدان أوروبا، وفي أميركا أيضا يوجد الآن من يسيء استعمال هذه العبارة، نوع من ذوي عقول ضيّقة، سجينة مقيّدة، يريدون ماهو مناقض تقريباً لهذا الذي يكمن في مقاصدنا وغرائزنا، -علاوة على أنهم يظلون أشبه بنوافذ موصدة وأبواب مقفلة بالمزاليج في وجه هؤلاء الفلاسفة الجدد القادمين. إنهم من فصيلة مسوّيي *المساحات*، هؤلاء الذين يُدعون زوراً بـ«المفكرين الأحرار»، بوصفهم ألسنة فصيحة وأقلام عبيد بارعة مسخّرة لخدمة الذوق الديمقراطي و«أفكاره الحديثة»: جميعهم أناس لا يعرفون الوحدة، وحدتَهم الخاصة، فئة من النموذج المستقيم الثقيل، لا تنقصهم شجاعة، والحق يقال، ولا أخلاق جديرة بالاحترام، عدا أنهم غير أحرار ومضحكون في سطحيّتهم، خاصة بتلك النزعة التي لديهم جميعاً في اعتبار الأشكال المجتمعية القديمة المعروفة سبباً في *كل* بؤس وإخفاقات الإنسانية؛ وتبعاً لذلك تجد الحقيقة نفسَها تنتصب سعيدة على رأسها! إن أقصى ما يسعون إليه بكل ما أوتوا من قوة هو سعادة القطعان في مروجها

الخضراء، بما يتبع ذلك من أمان ودَعة وهناء وسهولة عيش للجميع؛ أغنيتاهُم، أو نظريّتاهم اللتان تترددان أكثر من غيرها على ألسنتهم هما: «مساواة في الحقوق» و«شفقة تجاه كل متألّم»، -والمعاناة نفسها في نظرهم شيء ينبغي *إلغاؤه*. أما نحن المناهضون لهذه الفكرة، نحن الذين فتحنا أعيننا ووعينا على السؤال: أين ومتى استطاعت نبتة «الإنسان» أن تنمو أقصى نموّها وبأقصى قوّتها حتى الآن؟ فإننا نعتقد أن ذلك كان يتمّ دوما، وبصفة متكررة داخل الظروف المناقضة، وأنه كان لابد لخطورة أوضاع حياته أن تبلغ أولا حدًّا مهولا، كي تجد طاقته الابتكارية وقدراته على التستّر والتمويه (أي عقله) نفسها تتطور تحت إكراهات الضغط الطويل نحو الرهافة والشجاعة، وكي ترتقي إرادةُ الحياة لديه إلى مستوى إرادة القوة: - نعتقد إذًا أن الشدّة، والعنف، والعبودية، والخطر على الطريق وفي القلب، والسريّة، والرواقية، وشتى أفانين التجريب والأعمال الشيطانية، وكل ما هو شرّ وشناعة وطغيان، وكل ما هو من خصال الكواسر والأفاعي في الإنسان، قد أسهمت كلّها في ارتقاء النوع «الإنسان»يّ بنفس القدر الذي فعلته نقائضها. ربما لن نكون قد استوفينا الكلام في هذا الأمر إن اكتفينا بما قلناه الآن، غير أننا، بكل ما قلنا وكل ما لم نفصح عنه هنا نكون على الطرف المقابل لمجمل الإديولوجيا الحديثة ورغبات القطيع: بوصفنا النقيض لها ربما؟ أيّ غرابة إذاً إن لم نكن، نحن «العقول الحرة» بالذات، أكثر العقول تواصلاً؟ وألاّ نرغب في كل مناسبة في إفشاء: *من أي شيء* يمكن للعقل أن يتخلص *وإلى أين* سيقوده ذلك؟ أما عن فحوى مقولة «ماوراء الخير والشر» الخطيرة، فهي التي تقينا على الأقل شرَّ أن يقع الخلط بيننا وبين غيرنا: نحن شيء آخر غير "libres-penseurs"،

"liberi pensatori"، "Freidenker"(*)، إلى غير ذلك مما يحبّذ هؤلاء المنافحون الأفاضل عن «الأفكار الحديثة» أن يطلقوا على أنفسهم من أسماء. العديد من أوطان العقل مسكننا، أو أننا نزلنا يوما ضيوفاً لديها على الأقل؛ فارّون باستمرار من المخابئ المعتّمة المريحة التي يدفعنا إليها التعاطف، والنفور، والشباب، والأصل، ومصادفات الالتقاء باشخاص أو بكتب بعينها، أو حتى التعب من الترحال؛ كلّنا خبثٌ تجاه مغريات التبعية التي تتربص بنا داخل الشهرة، أو المال، أو المناصب، أو غواية الحواسّ؛ شكورون حتى للشدّة والأمراض المتنوّعة، لأنها على الدوام تظل تحررنا من القاعدة و«الحكم المسبق»، شكورون للربّ، وللشيطان، للنعجة والدودة في داخلنا؛ لنا فضول معرفي حد الخلاعة؛ باحثون حدّ الشناعة، بأصابع جريئة على لمس كل مستعصٍ على اللمس؛ لنا أسنان ومِعِدة لكل قاسٍ وعسير على الهضم، مأهّلون لكل حرفة تتطلب ذهناً ثاقباً وحواس مرهفة، متأهبون لكل مخاطرة بفضل فائضٍ في «الإرادة الحرة»؛ لنا

(*) يستعمل نيتشه عبارة "Freie Geiste"، التي تعني حرفيا «العقول الحرة»، في معنى «المفكرين الأحرار» ، كما نرى في كتاب «إنساني مفرط في إنسانيته» (كتاب للمفكرين الأحرار)، لكنه، وكما نرى في بداية هذه الفقرة يتبرم من انتحال عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين لهذا اللقب، ويعتبر ذلك باطلا وتزويرا. ولذلك يعمد هنا إلى تفرقة بين المفكرين الأحرار الحقيقيين(ذوي العقول الحرة والمتحررة) ومن يدّعون ذلك، فيذكرهم بالإسم الذي ينتحلونه، حسب رأيه، في كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وباللغة المحلية لكل منهم، كما لو أن الأمر لا يتعلق في الحقيقة سوى بلافتة إشهارية ليس أكثر. ولكي يؤكد على الفارق الأساسي يذكر الفئة الألمانية من هؤلاء بالإسم الذي سموا أنفسهم به Freidenker. ويبدو هنا كما لو أنه يريد أن يقول: لايكفي أن تدّعي أنك مفكر حر، بل عليك أن تكون عقلا حرًّا قبل كل شيء.

نفسٌ ظاهرة ونفسٌ خفيّة لا تُسبر أغوارٌ لمقاصدها البتة؛ لنا سطوحٌ وأعماقٌ لا تقدر قدم على المضي إلى أقاصيها؛ متخفّون تحت معطف من النور؛ غزاةٌ، وإن بدوْنا أشبه بورثة ومبذّرين؛ مجمّعون ومرتّبون من باكر صباحنا حتى المساء؛ بخيلون بثروتنا وبخزائننا المليئة، خبيرون في اقتصاد التعلّم والنسيان، مبتكرون في التصنيف، وفخورون أحيانا بألواح مقولاتنا(*)، متحذلقون أحياناً، وبومُ عملٍ نشطةٌ حتى في وضح النهار؛ بل وفزّاعات أيضاً، إن اقتضى الأمر- وهناك حقّا حاجة لذلك اليوم؛ أعني بالنسبة لنا بوصفنا، من حيث الفطرة، أصدقاء غيورين *للوحدة*، لوحدتنا العميقة، وحدة منتصف الليل والظهيرة: -أناسٌ من هذا النوع نحن، -نحن العقول الحرّة! ولعلكم شيء من هذا النوع، أنتم أيضا أيها المستقبليّون؟ أيها الفلاسفة ***الجدد***؟-

---

(*) المقولات (Kategorien) هي الأجناس العالية التي تحيط بجميع الموجودات، أو المحمولات التي يمكن إسنادها إلى كل موضوع، وعددها عند أرسطو عشرة، وهي: الجوهر، والإضافة، والكم، والكيف، والمكان، والزمان، والوضع، والملك، والفعل، والانفعال.
والمقولات عند كانط هي التصورات الكلية الأساسية التي يتضمنها العقل المحض، وهي صور قبلية للمعرفة، تستنبط من طبيعة الحكم في مختلف صوره، وتمثل الجوانب الأساسية للتفكير النظري، أو الاستدلالي، وهي أربعة أجناس كبرى: الكم، والكيف، والاضافة، والجهة . ولكل واحدة منهذه المقولات الأربع ثلاثة أقسام. -الكم: الوحدة، الكثرة، الاجمال. - الكيف: الإيجاب ، السلب، التحديد. -الإضافة: العلاقة بين الجوهر والعرض، العلاقة بين العلة والمعلول، الاشتراك (أي التأثير المتبادل بين الفاعل والمنفعل). - الجهة: الامكان والامتناع، الوجود واللاوجود، الضرورة والجواز. (المعجم الفلسفي)

الفصل الثالث

الكائن الديني

45

النفس البشرية وحدودها، ومحيط التجارب الباطنية الذي احتضنته حتى الآن، والأعالي والأعماق التي بلغتها تلك التجارب والمسافات التي قطعتها، وكل تاريخ النفس وما لم يتحقق بعد من إمكاناتها: هذا هو مجال الصيد المنذور لخبير نفساني فذّ وصديق لـ«الصيد الكبير». لكن كم سيكون عليه أن يقول في حالة من اليأس: «وحيد أنا! وحيد أوحدَ، وكل هذه الأدغال الشاسعة والغاب!» ويتمنى لو كان مرفوقاً بمئات من المطارِدين وكلاب صيد مدرّبة، يطلقهم في شعاب تاريخ النفس البشرية ليثيروا طريدته. لكن دون جدوى: على الدوام يظل يخبَر يوما بعد يوم بمرارة وأسى عميق كم صعبٌ هو العثور على مطاردين وكلاب صيد لكل تلك الأشياء التي تثير فضوله. والأسوأ في ذلك كله وأدهى، أن العلماء الذين سيرسلهم إلى مناطق الصيد الجديدة والخطيرة، هناك حيث تكون الشجاعة والذكاء والرهافة مطلوبة وضرورية، سيتضح أنهم لن يكونوا صالحين لشيء، هناك بالذات، حيث يبدأ «الصيد الكبير» والخطر الأكبر. هناك بالذات يفقدون عينهم الثاقبة وحاسة شمهم المرهفة. ولكي يحزر المرء ويدرك

مثلا أي تاريخ كان لمشكلة *العلم والضمير* في نفس الإنسان الديني (*homines religiosi*)، لا بد له أن يكون هو نفسه ربما على ذلك القدر الهائل من العمق، ومن المعاناة ومن العظمة الذي كان عليه الضمير العقلي لباسكال: وربما سيكون علاوة على ذلك بحاجة إلى تلك السماء المفتوحة لعقل مضيء وخبيث باستطاعته أن يرى من أعاليه ذلك الحشد الهائل من الوقائع الخطيرة والموجعة، أن يرتبها ويخضعها لصياغات وقواعد. -لكن، من تراه سيقدّم لي هذه الخدمة؟ ومن له وقتٌ كي ينتظر مثل هؤلاء الخَدَمة؟ -فهؤلاء لا يظهرون إلا نادراً، ومجيؤهم كان قليل الاحتمال عبر كل العصور! وبالنهاية على المرء أن يفعل كل شيء *بنفسه*! -لكنّ فضولا من هذا النوع الذي لديّ يظل ألذ الرذائل الممكنة كلها؛ -عفوا، بل أردت أن أقول إن لِحبّ الحقيقة جزاؤه في السماء، وعلى الأرض قبلها.-

46

إن الإيمان الذي أرادته المسيحية الأولى، وتوصلت إلى تحقيقه في مناسبات عديدة، داخل عالم جنوبيّ ريبي وذي عقل حرّ، عالم عرف لعدة قرون صراعاً طويلا بين مختلف المدارس الفلسفية، بالإضافة إلى تربية التسامح التي جاءت بها الامبراطورية الرومانية؛ ذلك الإيمان *يختلف* كليّا عن ذلك النمط الآخر من إيمان الرعيّة الساذج والشرس الذي أوْثق به لوثر أو كروميل أو غيرهم من برابرة العقل الشماليّين علاقتَهم بربّهم وبمسيحيتهم؛ بل هو أقرب بالأحرى إلى إيمان باسكال، الذي يشبه على نحو مفزع انتحاراً مستمرّا للعقل، - عقل متين وعنيد مثل دودة قاضمة، لا يمكن القضاء عليه بضربة واحدة. فالعقيدة المسيحية كانت منذ بدايتها تضحية: تضحية بكل

حرية، وبكل كبرياء، بكل ثقة للعقل في نفسه؛ وفي الآن ذاته ارتباطاً عبوديّا، واحتقارا للذات، وتشويهاً ذاتيّا. ينطوي هذا الإيمان على شناعة وضرب من تشدّد عقائدي "Phönicismus" ضمن عقيدة تلقي بعبئ ثقيل على ضمير متعَب، معقّد وشديد التطلّب؛ شرطها المسبق في ذلك أن يكون خضوع العقل شيئا مؤلماً على نحو لا يوصف، وأن ينخرط مجمل تاريخ وعادات هذا العقل في مقاومة *الخُلف الأكبر* (Absurdissimum) الذي يمثله ذلك «الإيمان» في نظره. والحداثيّون الذين غدوا عديمي الحساسية تجاه مجمل المدوّنة المسيحية، لم يعد بوسعهم أن يتمثلوا تلك الفظاعة المهولة التي تمثلها مفارقة «الرب على الصليب» بالنسبة لذائقةٍ من العصور العتيقة. إذ لم يسبق أبداً، وفي أي مكان من العالم أن وُجدت مثل هذه الجسارة على قلب العلاقات والمفاهيم، شيء على هذا القدر من الفظاعة ومن الغموض والإشكال مثل هذه الصيغة التي أعلنت قلباً لكل قيم العالم القديم. -إنه العالم الشرقي؛ الشرق *العميق*، العبد الشرقي منتقماً بهذه الطريقة من روما وتسامحها الأرستقراطي النّزِق، ومن «كاثوليكية» الإيمان الرومانيّة. فليس الإيمان هو ما أثار استياء العبيد وتمردهم على أسيادهم، بل تلك الحريّة في الإيمان، تلك اللامبالاة شبه الرواقية المستهزئة بجديّة الإيمان. إن «التنوير» مثير للاستياء، فالعبد يريد المطلق، ولا يفهم غير الطغيان، بما في ذلك في الأخلاق؛ يحب مثلما يحقد، دون تمييز للدرجات والألوان، يحبّ ويحقد حتى الأعماق، حتى الوجع، وإلى حدّ المرض، - معاناته *الدفينة هي التي* تثور ضد الذوق الراقي، الذي يبدو كما لو أنه *ينفي* المعاناة. إن الريبة تجاه المعاناة، مجرد موقف من مواقف الأخلاق الأرستقراطية كان له دور لا يستهان به هو أيضاً في انتفاضة العبيد الكبيرة الأخيرة، التي عرفت بدايتها مع الثورة الفرنسية.

حيثما ظهر العُصاب الديني، في أي مكان من الدنيا حتى الآن، نجده مقترناً بثلاث فرائض حمْيويّة خطيرة: الوحدة، الصيام، وقمع الشهوة الجنسية -لكن دون أن يكون بإمكاننا أن نحدد بصفة واثقة ويقينية هنا أيهما السبب وأيهما النتيجة، وإذا ما كانت هناك علاقة سبب بنتيجة أصلاً. وما يبرر هذا الشك الأخير هو أن الأعراض المتكررة بأكثر انتظام لهذا العصاب لدى الشعوب المتوحشة، كما لدى الأخرى المروَّضة، تتجسد في انفلات فجئي للشهوات الشبقية الأكثر عربدة، التي تنقلب بدورها فجأة إلى ضرب من التشنّج التوْبويّ ونفي للعالم والإرادة ؛ وكلاهما يمكن تأوّلهما كصرْع مقنّع. لكن ما من مجال هناك ينبغي علينا أن نمتنع فيه عن التأويل مثلما ينبغي علينا إزاء هذه الظاهرة؛ فما من ظاهرة سواها قد تنامى حولها حتى الآن كمٌّ هائل من اللغو والخرافات، وما من ظاهرة أخرى تبدو قد استقطبت اهتمام البشر مثلها حتى الآن، بمن فيهم الفلاسفة؛ -ولعله قد آن الأوان، أن نتحلى في هذا المجال بالذات بشيء من البرودة، وأن نتعلّم الحذر، بل أكثر من ذلك، أن نصرف النظر، و نبتعد. -بل إن آخر مواليد الفلسفة، أعني فلسفة شوبنهاور، تحمل في خلفيّتها هي أيضا، كمشكلة في ذاتها تقريبا، ذلك السؤال الشنيع عن أزمة الدين وصحوته. كيف يكون نفي الإرادة ممكناً؟ كيف يكون القدّيس ممكناً؟ -ويبدو أنه حقًّا السؤال الذي شكّل نقطة البداية لدى شوبنهاور وجعل منه فيلسوفاً. وهكذا فإنه من باب الانسجام المنطقي التامّ أن نرى تلميذه الأكثر اقتناعا بأفكاره (وربما آخر تلامذته فيما يتعلق بالألمان)، أعني ريشارد فاغنر، يتوّج مسيرة أعماله الفنية ببلوغ هذه النقطة بالذات، ويختم بتجسيد مسرحيّ لذلك النموذج الفظيع والأبدي في

شخصيّة كوندري(*)، كنموذج حيّ -مجسّداً لحما ودماً. في ذلك الزمن كان لأطباء الأمراض العقلية من كل أنحاء أوروبا تقريبا مبرّر للانكباب على دراسة هذا النموذج بجديّة، في كل مكان شهد اندلاع وتفشي وباء العصاب الديني -أو «الكائن الديني»، كما أسمّي ذلك- في شكل «جيش الخلاص». وإذا ما تساءلنا عما يبدو في الحقيقة على غاية الأهمية في مجمل ظاهرة القديس لدى عموم الناس من كل عصر ومكان، بما في ذلك الفلاسفة، فسيكون بإمكاننا أن نجيب بأن ذلك يعود إلى ظاهر الإعجاز الملازم له، بمعنى تتابع الأضداد في تتالي حالات نفسيّة تعدّ متناقضة من وجهة نظر الأخلاق؛ بحيث يعتقد المرء بأنه يلمس بيديه كيف يتحوّل «إنسان سيء» -طالح- فجأة إلى «قدّيس»، إلى إنسان صالح. في هذه النقطة بالذات قد مُنيت البسيكولوجيا حتى الآن بالفشل الذريع. ألا يعود هذا الفشل أساساً إلى كونها أخضعت نفسها لسلطة الأخلاق، لأنها *تؤمن* هي نفسها بالتناقض الأخلاقيّ للقيم، وأنها وجدت تلك المتناقضات، وقرأتها، و*تأوّلتها* في النص وفي الواقع؟ -ماذا؟ أتكون «المعجزة» مجرد خطأ تأويليّ إذاً؟ قصورٌ في المعرفة الفيلولوجيّة؟

48

يبدو أن علاقة الأعراق اللاتينية بكاثوليكيّتها أكثر حميمية مما عليها علاقتنا نحن سكان الأصقاع الشمالية بمسيحيتنا عموما، وأنّ عدم الإيمان في البلدان الكاثوليكية بالتالي يعني شيئا مختلفا تماماً عما

(*) أوبرا «بارسيفال» لريشارد فاغنر. أنظر «قضيّة فاغنر» لفريدريش نيتشه. منشورات الجمل

يعنيه في البلدان البروتستانتية؛ أي ضرباً من التمرد على روح العرق، بينما يعني لدينا على العكس من ذلك عودة إلى روح (أو لاروح) العرق. فنحن الشماليّين ننحدر، دون أدنى شك، عن أعراق البرابرة، بما في ذلك ما في ما يتعلق بمؤهلاتنا الدينية: نحن غير مهيئين للدين. يمكننا أن نستثني هنا العرق السّلتي الذي كان بسبب ذلك أفضل تربةٍ لانتشار العدوى المسيحية في البلدان الشمالية. في فرنسا استطاعت الفكرة المسيحية أن تزدهر، هناك حيث كانت شمس الشمال الباهتة ملائمة لذلك.[١٧] وحتى هؤلاء الريبيين الفرنسيين من الزمن الحاضر، لكم يبدون هم أيضاً على قدر غريب من التقوى بالنسبة لذوقنا، لمجرد أن يكونوا حاملين لدمٍ سلْتي في عروقهم! وأية راحة كاثوليكية لا ألمانية تعبق بها سوسيولوجيا أوغست كونت بما يلتصق بها من منطق روماني غريزيّ! ولكم يبدو يسوعيًّا «شيشرون بور روايال» الفطن والمحبّب: سانت بوف، مع كل ما يبديه من عداء لليسوعية! بل وإرنست رينان نفسه: أيّ وقع غريب للغته على أسماعنا، ولكم هي ممتنعة على أذهاننا، نحن أهل المناطق الشمالية! -رينان، هذا الذي، يكفي قدرٌ قليل من توتر ديني لكي يدخل في أية لحظة ارتباكاً على توازن روحه المشبعة شهوانية وارتياحا بالمعنى الدقيق للعبارة! لنردد معه هذه الجمل الجميلة، وسنرى كم من المكر والوقاحة ستتحرك مثل رجع صدى لها في نفوسنا التي ربما تكون أقل جمالا وأكثر حدّة، أعني نفوسنا نحن الألمان! *«النقل بكل جرأة أن الدين من صنع الإنسان العادي، وأن الإنسان يكون في أقصى حقيقيّته عندما يكون في أقصى درجات التديّن والوثوق بقدَره اللامتناهي... لأنه عندما يكون خيّراً يريد حينها أن تكون الفضيلة مناسبة لنظام أبديّ، وعندما يتأمل الأشياء بتجرّد من كل مصلحة، يجد الموت حينها عبثيًا ومثيراً للاستياء.*

فكيف يمكننا ألاّ نفترض أن هذه اللحظات بالذات هي التي يرى فيها على أفضل وجه؟ . . .»(*) -هذه الجمل على غاية من *التناقض* مع ما تعوّده سمعي وتفكيري، بحيث كانت ردة فعلي الحانقة الأولى عليها ما خطته يدي على هامشها: *"la niaiserie religieuse par excellence!"*(**) -إلى أن انتهى بي الحنق إلى ردة فعل أخيرة حبّبتْ إليّ هذه الجمل بحقائقها المقلوبة على رأسها! إنه لشيء رائع ومميِّز أن يكون للمرء نقائضه!

49

إن ما يثير الدهشة في التدين الإغريقي العتيق هو ذلك الزخم المنفلت من الشكران الذي يعبق به: -إنه لنوع إنساني نبيل هذا الذي يقف بمثل ذلك الامتنان أمام الطبيعة والحياة! -لكن، فيما بعد، وعندما أصبح الرعاع مسيطراً في اليونان، غزت مشاعر الخوف كل شيء بما في ذلك الدين؛ إنها المسيحية وهي تهيّء للظهور. -

50

الشغف بالله: هناك أنواع خشنة، ساذجة ومزعجة من الشغف، مثل شغف لوثر. والبروتستانتية بمجملها تفتقر إلى اللطف

(*) يورد نيتشه هذهْ الفقرة بالفرنسية داخل نصه:
"Disons donc hardiment que la religion est un produit de l'homme normal, que l'homme est le plus dans le vrai quand il est le plus religieux et le plus assuré d'une destinée infinie... C'est quand il est bon qu'il veut que la vertu coresponde à un ordre éternel, c'est quand il contemple les choses d'une manière désinteressée qu'il trouve la mort révoltante et absurde : Comment ne pas supposer que c'est dans ces moments-là que l'homme voit le mieux ?"

(**) «السخافة الدينية بعينها»

(delicatezza) الجنوبيّ. هناك حالة تهيّج شرقي تطغى عليها، كتلك التي تنتاب عبداً عُتق من غير استحقاق، أو تمّت ترقيته، كما لدى أغطينوس على سبيل المثال، الذي يفتقر افتقارا مهيناً إلى كل نبالة في المواقف والرغبات. وفيها لينٌ وولع أنثويّ يهفو بخجل وجهل إلى وحدة صوفية وفيزيائية (unio mystica et physica)، كما هو الحال لدى مدام دي غويون(*). وفي حالات عديدة يظهر هذا النوع من الشغف بطريقة غريبة كغطاء لمراهقة فتاةٍ أو شابٍّ، وهنا وهناك كهستيريا عانسٍ مسنّة، بل وكآخر طموح لها: ولم يفت الكنيسة أن تمنح لقب القداسة عديد المرات لنساء من مثل هذا النوع.

51

ظل ذوو السلطان والجاه حتى الآن ينحنون إجلالا أمام القديس بوصفه لغزاً في ما يتعلق بقهر النفس والتخلّي الكامل والطوعي: فلِم ينحنون إذًا؟ كانوا يحزرون فيه -وخلف الحيرة التي يثيرها غموض مظهره البائس والهشّ- القوّة المتفوّقة التي يريد اختبارها من خلال ذلك القهر الذي يفرضه على نفسه، وقوة الإرادة التي كانوا يرون فيها ويجلّون صنوَ قوّتهم الخاصة، ولذة السلطة التي يعرفونها عن تجربة شخصية: كانوا يجلّون شيئا من ذاتهم وهم يجلّون القديس. علاوة على أن مشهد القديس يجعلهم يرتابون في أمره: هذا النفي الفظيع وهذا السلوك المنافي للطبيعة لا يمكن أن يكون دون غاية ولا مجانيّا، هكذا كانوا يقولون لأنفسهم ويتساءلون: لعل هناك سبباً لهذا الأمر.

(*) مدام Madame Guyon وليس De Guyon كما يذكرها نيتشه، هي جان ماري بوفييه دي لاموت، المعروفة باسم مدام غويون، متصوفة فرنسية من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر.

ربما هناك خطر عظيم يريد الزاهد من خلال مخاطباته السرية وعن طريق زوّاره الخفيّين أن يكتشف سره؟ وفي كلمة، إن أقوياء العالم كانوا يتعلمون منه نوعاً جديداً من الخوف، وكانوا يحزرون وجود قوّة جديدة، عدوّا غريباً لم يتمّ قهره بعد: -«إرادة القوة» هي التي كانت ترغمهم على التوقّف أمام القدّيس. كان لا بد أن يسألوه.

52

في كتاب «العهد القديم» اليهودي، كتاب العدل المقدّس، يوجد من البشر والأشياء وخُطب ذات أسلوب راقٍ لا نظير لها في الكتابات الإغريقية والهندية. نقف برهبة وإجلال أمام هذه البقايا الهائلة لما كان عليه الإنسان في ما مضى، وتنتاب المرء خواطر حزينة حول العالم الآسيوي القديم وشبه الجزيرة الصغيرة الناتئة عنه: أوروبا التي تزعم بكل إصرار أنها تمثّل صورة لـ«تقدم الإنسان» بالنسبة لآسيا. صحيح أن من كان هو نفسه حيواناً أهليّا ولا يعرف سوى حاجيات حيوان أهلي (كما هو حال علمائنا في هذا العصر، بمن فيهم مسيحيّو «المسيحية المستنيرة»)، لا يجد ما يمكن أن يثير إعجابه أمام هذه الآثار، وأقل من ذلك ما يمكن أن يحزنه -فتذوّق العهد القديم يمثّل محكًّا لتمييز «العظمة» و «الحقارة». ولعل هذا النوع من الإنسان يجد بالمقابل في كتاب «العهد الجديد» شيئا أقرب إلى وجدانه (ففيه الكثير مما يعبق بتلك الرائحة العسليّة والثقيلة للورعين السذّج وللأنفس الصغيرة). وإن الجمع بين هذا «العهد الجديد» ذي الذوق الزخرفي بكل المعاني، ومن جميع النواحي، و«العهد القديم» في كتاب واحد كـ«إنجيل» وبوصفه «الكتاب في ذاته»، رمبا أكبر جسارة وقحة و«خطيئة في حق العقل» ترزح بثقلها على ضمير الأدب الأوروبي.

53

لِم الإلحاد اليوم؟ -لقد تم دحض «الأب» في الإله على نحو جذريّ، وكذلك «القاضي» و«المُجازي». وقد تم في الآن نفسه دحض مبدأ «حريّة إرادته»: فهو لا يسمع، -وحتى لو سمع، فإنه لا يستطيع مع ذلك أن يُساعد. والأسوأ من ذلك كله، أنه يبدوو غير قادر على التواصل بوضوح: أيُعوزه الوضوح؟ -ذلك هو ما توصلت من خلال مجادلات عديدة قضّيتها سائلا ومصغياً، إلى اكتشافه كسبب لانحطاط التوحيد الأوروبي؛ ويبدو لي من خلال هذا كله أن الغريزة الدينية، ولئن ظلت تتطور بقوّة، إلا أنها ترفض جواب التوحيد بالذات بارتياب عميق.

54

مالذي يشغل مجمل الفلسفة الحديثة في الأساس؟ منذ ديكارت- وبالأحرى في مواجهة مع أطروحاته أكثر مما في الاستناد إليها- والفلاسفة يشنون هجوماً من جميع الجهات على المفهوم القديم للروح، تحت ظاهر نقدٍ لمفهوم المسنَد والمسنَد إليه(*)، يعني ذلك: هجوما على الشرط الأساسي الذي تقوم عليه التعاليم المسيحية. فالفلسفة الحديثة بوصفها اتجاها ربيّا في نظرية المعرفة، هي، بصفة واضحة أمْ خفيّة، *مناهِضة للمسيحية*؛ وإن هي في الحقيقة، وهذا

(*) فضلت استعمال عبارتي «المسند والمسند إليه» (الفعل والفاعل) كمرادف لدى النحويين لما يطلق عليه الفلاسفة «الموضوع والمحمول» ترجمة لـ: /Subjekt Prädikat أو sujet/ attribut بالفرنسية. وقد فضلت اختيار المصطلح النحوي هنا، لأن مضمون الفقرة كما سيلاحظ القارئ يطرح مسألة الفعل والفاعل وعلاقتهما ببعضهما، من ديكارت حتى كنط.

نقوله للآذان المرهفة، ليست مناهضة للدين بأي حال من الأحوال. في ما مضى كان الناس يؤمنون بالروح إيمانهم بالنحو وبالفاعل النحوي: كانوا يقولون: «أنا» هي الشرط، و«أفكّر» هي المُسنَد والمشروط، والتفكير فعل **لا بد** أن يكون الفاعل هو سببه. ثم راحوا يبحثون بعناد ومكر جديريْن بالإعجاب عن طريقة للخروج من هذه الورطة، ويتساءلون إن لم يكن العكس ربما هو الصحيح: «أفكّر» هي الشرط، و«أنا» مشروط؛ «أنا» بالتالي مجرد تأليف (synthese) في البداية يصبح منجزاً (مفعولاً) بواسطة فعل التفكير(*). وقد أراد كنط في الأساس أن يُثبت أن الذات (الفاعل-م-) لا يمكن إثباتها من خلال الذات ،-ولا الموضوع أيضاً. ويبدو أن إمكانية وجود *ظاهري* محض للذات، أي «للنفس»، لم تكن أمراً غريبا عنه، تلك الفكرة التي كان لها في ما مضى حضور القوة الجبّارة في ثوب فلسفة الفيدانتا.

55

هناك سلّم طويل للشناعة الدينية، سلّم بدرجات عديدة، لكنّ ثلاثاً منها هي أهمها جميعاً. في البدء كان الإنسان يضحي للآلهته بأرواح بشرية، ربما من أولئك الذين يحبهم أكثر من غيرهم؛ من بينهم الأبكار من البنين الذين كان يضحّى بهم في ديانات ما قبل التاريخ، ومنهم أيضاً أضاحي الامبراطور تيبيريوس في مغارة الإله ميترا بجزيرة كابري؛ تلك المفارقة الرومانية الأكثر شناعة(**). ثم أصبح الإنسان

(*) نجد في هذه الفرضية المقولة التي يقوم عليها الكوجيتو الديكارتي: «أفكّر، إذاً أنا موجود».

(**) ربما يعتبر نيتشه هذا الطقس التضحوي مفارقة شنيعة («المفارقة الرومانية الأكثر شناعة»)، لأن الإله ميترا الذي كان يعبده الرومان خلال القرنين الثاني

فيما بعد، خلال العصر الأخلاقي للإنسانية، يضحي لآلهته بأقوى غرائزه، أي بـ«طبيعته»؛ وكانت *تلك* فرحة الاحتفال التي تلتمع بها النظرات الشنيعة للناسك، ذلك الكائن المتعصّب «المناقض للطبيعة». وأخيراً، مالذي بقي للإنسان مما يمكن أن يضحّي به؟ ألم يغْد عليه بالنهاية أن يضحّى بكل ما كان مجلبة للسلوان، وكل مقدّس، ومخلِّص، وكل رجاء، وكل إيمان بالتناغم الخفيّ، من أجل سعادة وعدالة مستقبليّتين؟ ألم يغد عليه أن يضحّي بالربّ نفسه، وأن يتحوّل، في انتقام قاسٍ منه، إلى عبادة الحجر والغباء والجاذبية، والقدر، والعدم؟ التضحية بالله من أجل العدم -هذه المفارقة اللغز للفظاعة النهائية ستظل من نصيب هذا الجيل الذي نراه صاعداً في وقتنا الحاضر؛ بل إننا جميعنا قد خبرنا الآن شيئا من هذا الأمر.

56

من عرف مثلي، وبرغبة غامضة، تجربة الاجتهاد لمدة من الزمن من أجل التفكير بعمق في التشاؤم ومحاولة سبر أغواره، وليخلّص نفسه من ذلك الضيق وتلك السذاجة النصف مسيحية-نصف ألمانية التي تجسّد بهما التشاؤم في هذا القرن، أعني في شكل الفلسفة الشوبنهاوريّة؛ والذي ألقى ذات يوم حقّا، بعين آسيوية-وأكثر من آسيوية، نظرة داخل الأعماق السحيقة لنمط التفكير الأكثر نفياً للعالم - نظرة ماوراء الخير والشرّ، وليس داخل مدار الأخلاق وأوهامها على غرار بوذا وشوبنهاور؛-ذاك سيكون، ودون قصد في الحقيقة، قد فتح

والثالث بعد الميلاد، هو في الحقيقة إله هندو-إيراني كان يُعبد في بلاد فارس القديمة (كإله الشمس) منذ الألفية الثانية قبل الميلاد، كما تثبت ذلك وثائق سنسكريتية وفارسية قديمة.

عينيه على المثال المعاكس: مثال الإنسان الأكثر نزقاً وحيويّة وإثباتاً للعالم، الإنسان الذي لم يتعلم الاكتفاء بما كان وما هو كائن والتكيّف معه، بل يظل *يريده* مجدداً وبصفة مستمرّة *كما كان وكما هو الآن*، ويظل يهتف إلى ما لانهاية ودون كلل: *da capo!*(*)-إعادة! ولا يردد ذلك على نفسه فقط، بل على مجمل العرض وكل الممثلين، وليس للممثّلين فقط، بل في الحقيقة لكل من هو بحاجة إلى ذلك العرض- ويجعل منه حاجةً. -ماذا؟ أوَلا يكون هذا circulos vitious deus - حلقة مفرغة للعود الأبديّ لله؟

57

مع تطور بصيرته ورؤيته الثاقبة يتسع أفق الإنسان وكذلك الفضاء المحيط به: يغدو عالمه أعمق وتكون هناك نجوم جديدة وألغاز، وصور جديدة تظل تمنح نفسها لنظره باطراد. ولعل كل الأشياء التي ظلت عينُ العقل تدرّب عليها قوّةَ رؤيتها ورويّتها لم تكن في الحقيقة أكثر من تعلّة لهذه الدربة، مجرد لعبة صبيان بالنهاية وشيئا جديرا بعقول صبية. ولعل المفاهيم الأكثر وقاراً، مثل «الله» و «الخطيئة»، التي دارت حولها أكثر الصراعات وأشد أنواع المعاناة شيئا لا يتجاوز في أهميته ما تمثله لعبة صبيان وآلام صبيان في نظر رجل مسنّ؛ - ولربما سيكون «الرجل المسن» في حاجة عندها إلى لعبة جديدة وآلام جديدة، - صبيًّا بما فيه الكفاية ما يزال: طفلا أبديّا!

(*) مصطلح دارج في مجال الموسيقى، ويعني المقطع أو الوصلة التي يعاد عزفها أو غناؤها، ويعمد المؤلف إلى ذلك بقصد مضاعفة التأثير. وقد يهتف بذلك الجمهور أيضا تعبيرا عن إعجابه بمقطع أو وصلة.

أما لاحظنا أن الحياة الدينية الحقيقية (بما فيها ذلك النشاط المجهري المبجّل المتمثل في اختبار الذات، وكذلك تلك السكينة الرقيقة المسماة «صلاة»، كاستعداد دائم لـ«مجيء الربّ») تتطلب العطالة، أو نصف العطالة الخارجية، أعني بذلك عطالة براحة ضمير موروثة ومتناقلة عبر الدم منذ القدم وليست غريبة تماماً عن ذلك الإحساس الأرستقراطي بأن العمل يحطّ *من الإنسان*، بما معناه أنه يجعل الجسم والروح خشنيْن؟ وبالتالي، ألا يكون هذا الولع بالكدّ والعمل في عصرنا الحديث -كدٌّ مفترس للوقت، صاخبٌ فخور بنفسه افتخاراً غبيّا-، ألا يكون هو بالذات وأكثر من أي شيء آخر، تربيةً يومية وتهيئة لـ«عدم الإيمان»؟ ومن بين أولئك الذين يعيشون اليوم في ألمانيا بمعزل عن الدين، أجد أشخاصاً من أنصار «الفكر الحر» من مختلف الأصناف والأصول، وعلى الأخص أغلبية من أولئك الذين جعلهم العمل جيلا بعد جيل يفقدون كل صلة بالغرائز الدينية؛ حتى أنهم أصبحوا لا يدرون أية فائدة من الدين، وغدوا لا يسجلون وجوده في العالم من حولهم إلا بنوع من الدهشة البلهاء. يشعر هؤلاء المواطنون الصالحون بأنفسهم مشغولين بما فيه الكفاية وأكثر، سواء بنشاطهم المهني، أو بمسلّياتهم، كي لا نذكر ما يأخذه من وقتهم «الوطن» والجرائد و«الواجبات العائلية»؛ ويبدو بالتالي أنه ما من وقت متبقّ لديهم للدين، علاوة على أنهم لا يدرون إن سيكون ذلك حصة عمل إضافيّة أم تسليةً جديدة؛ إذ سيكون من العبث، يقول هؤلاء لأنفسهم، أن يذهب المرء إلى الكنيسة لكي يعكّر مزاجه. وهم ليسوا أعداء للطقوس الدينية على أية حال، وإذا ما طُلب منهم في حالات بعينها، ومن طرف الدولة بالتحديد، أن يشاركوا في هذه الطقوس،

فإنهم يفعلون ما يُطلب منهم، تماماً كما يفعل المرء أشياء عديدة، - يفعلون ذلك بجديّة صبورة ومتواضعة، دون مزيد فضول أو نفور؛ فهم يعيشون خارجاً عن هذه الأمور وعلى هامشها، كيما يروا ضرورةً في أن يكون لهم موقف «مع» أو «ضد» حولها. إلى هذا الصنف من اللامبالين ينتمي أغلب البروتستانت الألمان من الفئات الوسطى، وبصفة خاصة أولئك الذين يقيمون داخل مراكز النشاطات الصناعية والتجارية، وكذلك العاملون في المجال العلمي والأوساط الأكاديمية (مع استثناء علماء اللاهوت، الذين ما فتئ وجودهم نفسه يطرح على الخبراء النفسانيين أكثر فأكثر أسئلة ويضعهم أمام ألغاز أكثر فأكثر دقّة).

إنه لمن الصعب على المتقين، أو مرتادي الكنائس على الأقل أن يتمثلوا أي قدر من حسن النيّة، أو من القصد الإرادي ينبغي على العالم الألماني أن يتحلى به كي يأخذ مسألة الدين مأخذ الجدّ؛ فبحكم حرفته (وكما قلت آنفاً، وفقا لوظيفته المهنية التي يفرضها عليه ضميره الحديث) يجد نفسه يميل إلى أرْيحيّة مترفّعة على تخوم المودّة تجاه الدين، يخالطها أحياناً شيء من احتقار موجّه ضدّ عدم نقاوة العقل التي يفترض وجودها في كل مكان يجد فيه من ظل متمسكاً بانتمائه إلى الكنيسة. ولا يفلح العالم إلا بمساعدة التاريخ (لا من منطلق تجربته الخاصة إذًا) في التحلي بجديّة مفعمة بالاحترام في علاقته بالأديان، وشيء من المراعاة المشوبة بالحذر؛ بل وحتى في الحالات التي تذهب فيها مشاعره نحوها حد الاعتراف بالجميل، فإنه، كشخص، لن يكون قد تقدّم مع ذلك خطوة واحدة تقرّبه مما له علاقة ما بكنيسة أو تقوى: بل ربما العكس هو الصحيح. فاللامبالاة العملية تجاه الأشياء الدينية، تلك اللامبالاة التي وُلد وتربي عليها ترتقي لديه باتجاه التجلّي في حيطة ونقاوة عقلية تنفر من ملامسة المتديّنين

والأمور الدينية؛ ولعل عمق تسامحه وإنسانيته بالذات هي التي تدفع به إلى الفرار من حالات الأسى الشديدة التي عادة ما ترافق فعل التسامح نفسه. -لكل عصر نوعه الخاص من السذاجة المقدّسة، التي ستحسده عليها عصور لاحقة؛ -وكم من السذاجة، سذاجة مقدسة، صبيانية، لا متناهية الرعونة ينطوي عليها اعتقاد التفوق السائد لدى رجل العلم، وذلك التسامح بضمير هنيء، والوثوق البسيط اللامبالي الذي تتعامل به غريزته مع الإنسان المتديّن كنمط دونيّ وأقل قيمة قد تخطّاه *وارتفع* بعيدا عن مستواه، -هو القزم المغرور والعاميّ، العامل المجتهد العجول المسخّر يداً وعقلا لخدمة «الأفكار»، لـ«الأفكار الحديثة»!

59

من تأمّل عميقاً في العالم يدرك بسهولة أيّ حكمة هناك في كون البشر سطحيين. إنها غريزة البقاء لديهم هي التي تملي عليهم أن يكونوا متعجّلين، خفيفين ومزيّفين. نجد هنا وهناك ولعاً شغوفا ومشطّا بـ«الشكل الخالص»، لدى الفلاسفة كما لدى الفنانين؛ ولا شك أن من به *هذه الحاجة* إلى الولع بالسطح قد عرف في وقت ما تجربة أليمة في *ما* تحته. بل لعل هناك أيضا تراتباً حتى بين أولئك الأطفال الذين عرفوا الاكتواء بالنار، الفنّانون بالفطرة الذين لا يجدون متعة في الحياة إلا من خلال الرغبة في *تزوير* صورتها (بما يشبه انتقاماً دائما من الحياة)؛ ويمكننا تحديد درجة اشمئزازهم من الحياة من خلال القدْر الذي يرغبون في رؤية الحياة عليه من تزوير وتسطيح وماورائية وتأليه، -ويمكننا أن نعدّ الإنسان الديني (homines religiosi) واحداً من هؤلاء الفنّانين، بل صاحب *المرتبة الأعلى* من بينهم. إنه الخوف المرتاب العميق من التشاؤم العضال هو الذي فرض على

عصور من آلاف السنين بأن تظل تعضّ بالنواجذ على تأويل ديني للوجود؛ خوفٌ تمليه تلك الغريزة التي تحزر بأن الإنسان قد يتوصل إلى الحقيقة *قبل الأوان*، قبل أن يغدو قويًّا بما يكفي، قاسٍ كفاية، وفنّاناً كفاية. . . وستبدو التقوى، أي «الحياة في الله»، منظوراً إليها من هذه الزاوية، بمثابة النتاج الأخير والأكثر رهافة من نتاجات *الخوف* من الحقيقة، أي بوصفها عبادة الفنّان ونشوته أمام التزوير الأكثر اتساقاً، وإرادةَ قلب الحقيقة، إرادةَ الزّيف بأي ثمن. وربما لم توجد حتى الآن من وسيلة أقوى من التقوى لتجميل الإنسان: بواسطتها يغدو بوسعه أن يكون فنًّا، وسطحاً، وانسجام ألوان، وطيبة، بحيث يغدو بالإمكان تحمّل منظره دون ألم.-

60

محبّة الإنسان *لوجه الله*، ذلك هو أسمى وأنبل شعور بلغه البشر حتى الآن. كوْنَ حبّ الإنسان خالصاً من أية نية مقدّسة مضمرة مجردَ سخافة بهيميّة إضافية، وكونَ الميل إلى حب الإنسان لم يعرف قيمته الراقية ورهافته، وملحه وبهاره العطِر إلا باقترانه بميلٍ أسمى؛ فإنه، وأيًّا كان الإنسان الذي أحس بذلك لأول مرة و«عاشه»، وكيفما تعثّر لسانه عند محاولة التعبير عن مثل ذلك الإحساس الرقيق، سيظل بالنسبة لنا، وعلى مر الأزمنة والعصور مقدّساً وجديراً بالاحترام، بوصفه الإنسان الذي حلّق في أعلى المناطق وأخطأ أجمل خطأ حتى الآن!

61

إن الفيلسوف، بالمعنى الذي نفهمه نحن المفكرون الأحرار، بوصفه إنسان المسؤولية الأكثر شمولا والذي يتسع وعي مسؤوليته

لمجمل التقدّم الإنسانيّ؛ هذا الفيلسوف سيجعل من الأديان وسائل مسخّرة لعمله التأديبي والتربويّ، على النحو نفسه الذي يسخّر به الأوضاع الاقتصادية والسياسية الحالية. إن التأثير الانتقائي والتربوي، في فعله التدميري، تماماً كما في فعله الإبداعي والمشكِّل، ذلك التأثير الذي يمكن تحقيقه بواسطة الأديان متعدّدٌ ومتنوّعٌ بتنوع الناس الذين يوضعون تحت ولاية تلك الأديان ووصايتها. فبالنسبة للأقوياء والمستقلّين والمجبولين ليكونوا آمرين، والذين يتجسد فيهم عقل وفن الجنس القياديّ، يكون الدين وسيلة إضافية للتغلب على المقاومة ولجعل سيطرتهم ممكنة: وثاقاً يربط بين السيد ورعاياه، يكشف للأول ويسوق إلى سيطرته ضمائرَ الأخيرين بكل خفاياها ونزوعاتها الباطنية إلى التملّص من الطاعة. وإذا ما حصل لبعض الطبائع من ذات الأصل النبيل أن تميل بموجب روحانيةٍ سامية إلى حياة العزلة والتأمل، ولا تختار لنفسها سوى النوع الأكثر رهافة من السلطة (أي على مجموعة مصطفاة من الأتباع أو إخوان الطريقة)، فسيكون الدين عندها وسيلة للركون إلى الهدوء بعيداً عن صخب ومتاعب الحكم *الفجّة*، ونقاءً من القذارة *الحتمية* الملازمة لكل عمل سياسي. ذلك ما كان يجيده البراهمانيون مثلا؛ لقد استطاعوا بواسطة تنظيم ديني محكم أن يكسبوا سلطة تخوّلهم من تعيين ملوك للشعب، بينما ظلوا هم متمسكين بالانسحاب إلى موقع خارجيّ مع إحساس بكونهم رجالُ مهمّة أسمى، ومن منزلة فوق كل سلطة ملَكية.

يكون الدين مرشداً لفئة من الرعيّة أيضا، يمنحها إمكانية للتهيؤ للحكم والسيادة في يوم ما؛ وهي طبقات صاعدة تنمو ببطء، وداخلها تنمو، بفضل أخلاقيات وتقاليد عائلية ملائمة، قوة إرادة ومتعة إرادة، هي إرادة السيطرة على الذات. هؤلاء يجدون في الدين ما يكفي من

الحوافز والإغراءات لكي يسلكوا طريق الروحانية الكبرى ويخبَروا أحاسيس التغلب الأكبر على النفس، والصمت والعزلة. فالزهد والطهرانية وسيلتان للتربية والتنبّل لا غنى عنهما تقريبا بالنسبة لجنس يطمح إلى تجاوز أصله الطبقي الرعاعيّ وتهيئة نفسه للارتقاء نحو السيادة على الآخرين.

وأخيراً، بالنسبة لعامة الناس -جماهير السواد الموجودة لخدمة الآخرين والمصلحة العامة، والتي لا يحق *لها* الوجود إلا في ذلك الموقع وضمن تلك المهمة- يكون الدين هناك ليمنحهم رضى عن وضعهم ومنزلتهم، يهبهم سلاماً روحيا، ويضفي نبالة على طاعتهم، ويمكّنهم من مشاركة أشباههم أفراحهم وأتراحهم، ويمنحهم ما يبدّل به ملامح حياتهم اليومية، يجمّلها، ويبرر مجمل دونيّتهم ومجمل فقر روحهم شبه البهيمية. يضفي الدين والتأويل الديني للحياة إشعاعاً شمسيّا على هؤلاء البشر المعذّبين على الدوام، ويجعل وضعهم ومشهد بؤسهم محتملا في نظرهم؛ يفعل فيهم فعل الفلسفة الأبيقورية على معذّبين من فئة أرقى، يلطّف المعاناة، يرقّقها، وفي الآن نفسه *يستغلّها*، وفي النهاية يبرّرها ويضفي عليها طابعاً قدسيّا. وربما لا يوجد في البوذية والمسيحية شيء أكثر جدارة بالتقدير مثل ذلك الفنّ الذي يعلّم صاحب المنزلة الأوضع كيف يرتقي بنفسه بواسطة التقوى إلى مرتبة أسمى داخل نظام وهميّ للأشياء، ويغدو بموجب ذلك راضٍ عن النظام الواقعي الذي يعيش حياته القاسية داخله، -وتلك القسوة بالذات هي ما يلزم![١٨].

وأخيراً، لنسلّط الضوء الآن على الوجه الآخر غير السيّء لهذه الديانات، ونُظهر ما تنطوي عليه من خطورة هائلة. يكون الثمن الذي يدفعه الإنسان باهضاً على نحو مرعب دوماً عندما لا تكون الأديان وسيلة تهذيب وتربية يتحكم بها الفلاسفة، بل ترتع حسب هواها *وسيادتها* الخاصة، وعندما تنزع إلى أن تكون هي نفسها غرضاً في ذاتها، لا وسيلة من بين وسائل أخرى. لدى الإنسان، وكما لدى كل الأنواع الحيوانية الأخرى، هناك فائض من المعوّقين، والمرضى والمنحطين، والموهَنين، والمحكوم عليهم بالمعاناة؛ أما الحالات الناجحة فتمثل الاستثناء دوما بين البشر، بل استثناء نادراً إذا ما أخذنا بالاعتبار أن الإنسان هو *الحيوان الذي لم تحدَّد طبيعته على نحو ثابت* بعد. لكنّ الأسوأ من هذا هو: كلما كان صنفٌ إنسانيٌّ محدَّد أكملَ تكويناً، بحيث يمكن اعتماده نموذجاً، إلا وتقلّصت حظوظه في *النجاح*. فالمصادفة، أو قانون العبث الذي يدير مجمل نظام المعاملات الإنسانية يتبدى في أشنع مظاهره بما يمارسه من فعل تدميري على العناصر الراقية من البشر الذين لهم شروط حياتية دقيقة، متنوّعة الأوجه وعسيرة على التقدير. لننظرْ الآن كيف تتعامل الديانتان الكبريان المذكورتان آنفا مع هذا *الفائض* من المعوّقين؟ تحاولان حفظ كل من تقدر على حفظه بطريقة ما وإبقاءه على قيد الحياة، بل تعلنان، باعتبارهما ديانتين *للمتألمين*، انحيازهما إلى هؤلاء وتؤيّدان موقف كل الذين يتألمون من الحياة تألّمهم من مرض، وتحاولان أن تجعلا كل إحساس آخر بالحياة لاغياً ومستحيلاً. وأيًّا كان تثميننا لهذه الرعاية الواقية والحفاظيّة، لأنها، وإلى جانب خدمة الأنواع الدنيا، كانت وما تزال صالحة أيضا لذلك النوع الآخر الأكثر رقيّا من الناس والأكثر

معاناة على أية حال؛ فإن هاتين الديانتين *السائدتين* تمثلان مع ذلك، من منظور الحصيلة النهائية للحساب الجمليّ، العاملين الرئيسيين اللذين ساهما في إبقاء النوع «الإنساني» في أدنى مستوى من التطوّر؛ فقد حافظتا على عدد مهول ممن *كان عليهم أن يهلكوا*. نحن مدينون لهما بفضل لا يقدر بثمن، ومن تراه سيكون على قدر كاف من الإعتراف بالجميل كي لا يرى نفسه فقيراً أمام ما قدمه الروحانيون المسيحيون حتى الآن لأوروبا! ومع ذلك، ما الذي سيظل عليهم أن يفعلوا، بعد كل ما ظلوا يقدمونه من عزاء للمتألمين، ومن شدّ عزائم المضطهدين واليائسين، ومن سند ومتكأ لفاتري الهمّة، ومن مأوى لمحطمي النفس والمتوحّشين الذين يستدرجونهم إلى الأديرة وسجون المرضى النفسانيين بعيداً عن المجتمع؟ ما الذي سيكون عليهم أن يفعلوا بعد كل هذا كي يعملوا براحة ضمير وبمثل هذا التفاني على حفظ كل مريض ومتألم، يعني فعليّا وفي الحقيقة، كي *يعملوا على إفساد العرق الأوروبي*؟ -*قلب* كل معايير التقييم *رأساً على عقب*: ذلك ما كان عليهم أن يقوموا به! أن يحطموا الأقوياء، ويوهنوا الآمال الكبرى، ويلقوا الشبهة على السعادة الناجمة عن الجمال، وأن يحوّلوا كل سيادة على النفس وكل فحل نازع إلى الغزو والسيطرة، وكل الغرائز المميزة لنمط «الإنسان» الراقي، ويجعلوا منها قلقاً وضميراً معذّبا وتدميراً ذاتيّا؛ وأن يقلبوا محبة ماهو أرضي والسيادة على الأرض إلى كراهية للأرض ولما هو أرضي -*ذلك* هو ما طرحته الكنيسة على نفسها، وما كان عليها أن تطرحه على نفسها إلى أن انتهت إلى تقييم خاص بها يجعل «الزهد» و«قتل الحواس» و«الإنسان الأرقى» تنصهر كلها داخل إحساس واحد. لنفترض أننا ننظر بالعين الساخرة واللامكترثة لإله أبيقوري إلى هذه الكوميديا المسيحية

الأوروبية العجيبة والمؤلمة، الفجة والدقيقة في الآن نفسه، فسنظل، حسب ما يبدو لي، نتعجب ونضحك إلى ما لانهاية: ألا يبدو أن إرادةً بعينها قد فرضت سيطرتها على أوروبا لمدة ثمانية عشر قرناً، إرادة تحويل الإنسان إلى *طِرْح جليل*؟ أما من سيتقدّم من هذه الخِلقة المشوّهة والمرذّلة عمداً كصورة للمسيحي الأوروبي (باسكال مثلا)، - من سيتقدّم مسلّحاً بدوافع معاكسة، لا برؤية أبيقورية، بل بمطرقة قدسيّة، ألا يكون عليه أن يصرخ بكل حنق وشفقة وذعر: «أيها الحمقى! أيَّ شيء هذا الذي صنعتموه، أيها الحمقى المشفقون المغرورون! أكان هذا من عمل أيديكم! كيف دمّرتم وشوّهتم صخرتي الجميلة هذه؟ وأيّ شيء هذا الذي صنعتموه لأنفسكم منها!» -أردت أن أقول: لقد كانت المسيحية وما تزال حتى الآن أكثر أنواع الغرور وبالاً. أناس على قدر ضئيل من السموّ والمتانة، كيما يحقّ لهم أن يتولّوا تشكيل *الإنسان* بأيدي فنّانين؛ أناس لايملكون ما يكفي من القوة وبعد النظر كي يقبلوا بموجب إكراهٍ ذاتي جليل بالقانون الأوّل المتحكم بألف وجه ووجه للإخفاق والهلاك ويدَعوه يفعل فعله؛ أناس ليسوا على قدر كاف من النبالة كي يبصروا الفوارق العميقة في نظام التراتب والهوّة السحيقة التي تفصل بين إنسانٍ وإنسانٍ: مثل هؤلاء الناس هم الذين ظلوا يتحكمون حتى الآن في مصير أوروبا وفقاً لمقولتهم «سواسية أمام الله»، إلى أن أفضى ذلك إلى تربية نوع منقوص، مضحك تقريباً، دابّة قطيع، شيء طيّع، سقيم ورديء هو: أوروبيّ العصر الحاضر...[١٩]

الفصل الرابع

حِكَم وفواصل

63

من كان معلّماً بالطبع، لا يأخذ الأشياء مأخذ الجدّ إلا بالنظر إلى تلامذته، -بما في ذلك نفسَه.

64

«المعرفة لأجل المعرفة» -إنها آخر أحبولة للأخلاق: وهكذا يقع المرء في فخها ثانية.

65

سيكون سحر المعرفة ضعيفاً، لو لم يكن هناك الكثير من الحياء الذي ينبغي أن نتغلّب عليه في الطريق إليها.

65 أ

الإنسان أقلّ نزاهة مع ربّه: لا حق لذلك الرب في الخطيئة في نظره!

66

يمكن للميل إلى الاتضاع، وإلى الخضوع للسرقة والكذب والاستغلال أن يكون حياء إلهٍ محاط بالبشر.

67

إن حبّ شخص واحد ضرب من الظلم الهمجيّ؛ لأنه يكون على حساب كل الآخرين. بما في ذلك محبّة الله.

68

«فعلتُ ذلك»، تقول ذاكرتي. لا يمكن أن أكون قد فعلت ذلك، يقول كبريائي ويظل مصرًّا على ذلك. -وأخيراً تتراجع الذاكرة.

69

يكون الإنسان قد أساء النظر إلى الحياة، إن لم ير أيضاً اليد التي تقتل فيما هي تترفّق.

70

عندما يكون المرء ذا طبع متين، تكون له تجربته الخاصة التي تظل تتكرر على الدوام.

71

الحكيم كفلكيّ. -طالما تظل تنظر إلى النجوم كشيء «واقع فوقك»، فاعلم أنك مازلت تفتقر إلى نظرة العارف.

72

ليست قوة الأحاسيس، بل ديمومتها هي التي تصنع الإنسان الراقي.

73

من بلغ مثله الأعلى يكون بموجب ذلك قد تخطّاه.

73 أ

من الطواويس من يخفي ذيله عن كل الأنظار، -ويسمي ذلك كبرياءه.

74

إن شخصاً ذا عبقريّة لايطاق، إن لم يكن حائزاً على خصلتين إضافيتين على الأقل: الاعتراف بالجميل والنقاوة.

75

درجة ونوعية الحياة الجنسية عند شخص مّا يكون لهما أثر يبلغ أعلى قمة في عقله.

76

في حالة السلم، ينهال ذو الطبع القتالي على نفسه.

77

بواسطة المبادئ يسعى المرء إلى التعسف على عاداته، أو إلى

تبريرها، أو إجلالها، أو شتمها، أو التستّر عليها؛ فلشخصيْن يشتركان في نفس المبادئ أغراض يمكن أن تكون مختلفة جوهريّا.

78

من يحتقر نفسه، يظل مع ذلك يحترم نفسه دوماً كمحتقِرٍ.

79

إنّ نفساً تعرف أنها محبوبة، لكنها لا تحبّ بدورها، تفشي ما في أعماقها: قاعُها يصعد إلى السطح.

80

ما يغدو واضحاً، يكف عن كونه يعني لنا شيئا. فما الذي يعنيه ذلك الإله الذي قال: «اعرف نفسك بنفسك»؟ ألا يكون معنى ذلك ربما: كفّ عن كونك تعني شيئا لنفسك! كن موضوعيًّا! -وسقراط؟ - ماذا عن سقراط؟ وعن «رجل العلم»؟

81

إنه لأمر فظيع أن يموت المرء عطشاً في البحر. أوَينبغي أن تضعوا ملحاً في حقائقكم، حتى تصير غير قادرة حتى عن إرواء العطش؟

82

«الشفقة على الجميع!» -لكنّ ذلك سيكون قسوة عليك وطغياناً، يا جاري المحترم!

83

الغريزة- عندما يشب حريق في البيت، ينسى المرء حتى الغداء.
-صحيح، لكننا نتدارك الأمر من بعد على الرماد.

84

تتعلم المرأة أن تكره، بقدر ما تنسى كيف تكون ساحرةً.

85

لنفس الانفعالات نسقان مختلفان لدى المرأة والرجل؛ لذلك لا يكف الرجل والمرأة عن سوء التفاهم.

86

حتى النساء لهنّ في خلفية غرورهنّ الشخصيّ احتقارٌ لاشخصيّ لـ «المرأة».

87

قلب مقيَّد، عقل حرّ. - عندما يوثق المرء قلبه بشدة ويجعله مقيَّداً، يغدو بإمكانه أن يمنح الكثير من الحريّة لعقله: كنت قد قلت هذا مرة في ما مضى. غير أنه ما من أحد يصدقني، عدا أن يكون المرء عارفاً بذلك سلفاً...

88

يشرع المرء في الارتياب في أشخاص على قدر عالٍ من الذكاء، حالما يبدو عليهم الارتباك.

89

تدعو التجارب الفظيعة إلى التساؤل عما إذا لم يكن ذاك الذي يعيشها شيئا فظيعاً هو نفسه.

90

القاتمونَ وذوو الطبع الكئيب يغدون، بفعل أحاسيس الكراهية والحب، أكثر خفة أمام الأشياء التي تثقل على الآخرين؛ وهكذا يطفون مؤقتاً على سطحهم.

91

إنه بارد جدّا، جليديّ، بما يجعل الأصابع تحترق لملامسته! كل يد تلمسه ترتدّ مذعورة! -ولهذا السبب بالذات يظنه البعض متوقّداً.

92

من تُرى لم يضحّ بنفسه مرة -من أجل حسن سمعته؟

93

ما من كراهية للإنسان تسكن لطف الدماثة، لكنّ فيها لذلك بالذات قدراً عالياً من الاحتقار.

94

نضج الرجل: يعني ذلك أن المرء قد استعاد الجدّية التي كانت له في الصبا، إبّان اللعب.

95

خجلُ المرء من لا أخلاقيته درجةٌ على السلّم الذي إذا بلغ أعلاه وجد نفسه يخجل من أخلاقيّته.

96

علينا أن نغادر الحياة كما غادر عوليس ناوزيكا؛ -مبارِكاً إيّاها أكثر ممّا كان عاشقاً.

97

ماذا؟ رجل عظيم؟ لا أرى سوى ممثّل لدورِ مَثَله الخاص.

98

عندما نروّض ضميرنا سيقبّلنا أيضاً وهو يخزنا.

99

خائب الظن يتكلم: «كنت أصغي طمعاً في صدًى، ولم أسمع غير مديح».

100

أمام أنفسنا نفتعل جميعُنا بساطة أكثر من تلك التي فينا: لحظة استراحة من بني جنسنا.

101

اليوم يمكن لسالك درب المعرفة أن يشعر بنفسه بسهولة إلهاً متحوّلاً حيواناً.

102

عندما يكتشف المحب أن محبوبه يبادله الحب يكون ذلك في الحقيقة داعياً إلى الاستفاقة والتساؤل حوله: ماذا؟ أيكون على هذا القدر من التواضع كي يحبك أنت؟ أم على قدر من الغباء؟ أم... أم..؟

103

مكمَن الخطر في السعادة. - «كل شيء يمضي الآن لصالحي، والآن أرحّب بكل قدَر: -من يرغب في أن يكون قدَري؟»

104

ليست محبتهم للإنسان، بل عجز محبتهم هو الذي يمنع المسيحيين اليوم -من أن يلقوا بنا إلى المحرقة.

105

إن العقل الحر، «تقيَّ المعرفة»، ينفر من الغشّ التقيّ (pia fraus)، الذي يتنافى وذوقه (و«تقواه») أكثر مما ينفر من الغش اللاتقيّ (impia fraus). من هنا يأتي نفوره العميق من الكنيسة، كما يجدر بنوع «العقل الحر» -نفوره منها بوصفها عبوديّته.

106

بفضل الموسيقى تجد الانفعالات متعةً في نفسها.

107

بعد اتخاذ القرار على المرء أن يسدّ أذنيه عن أفضل الآراء المضادة: تلك علامة الطبع المتين. يعني إرادة الحمق بين الحين والآخر.

108

ما من ظاهراتٍ أخلاقية هناك، بل تأويلٌ أخلاقي للظاهرات، لا غير.

109

غالباً ما يكون المجرم غير جدير بجريمته: يحطّ من شأنها ويشوّهها.

110

قلّما يكون لمحاميّي المجرم ما يكفي من الحسّ الفنّي، كي يوظّفوا ما في الجريمة من فظاعة جميلة لصالح مقترفها.

111

عندما يُهان كبرياؤنا بالذات، يكون غرورنا أكثر امتناعاً عن الإهانة.

112

من يحس بنفسه مجبولاً للتأمل وليس للإيمان، سيجد كل المؤمنين كثيري صخبٍ ومزعجين: ويتفادى قربهم.

113

تريد أن تكسب ودّه؟ فلْتفتعل الارتباك أمامه.

114

إن الانتظارات الهائلة التي تُعلَّق على الممارسة الجنسية، والخجلَ من تلك الانتظارات تفسد على المرأة كل الإمكانيات مسبقاً.

115

حيث لا يكون هناك من دور للحب والكراهية، تكون المرأة لاعبة رديئة.

116

أعظم فترات في حياتنا تكون هناك حيث نمتلك الشجاعة على أن ننظر إلى شرّنا على أنه أفضل ما لدينا.

117

إرادة التغلّب على انفعال مّا هي بالنهاية إرادة انفعال بعينه أو عدة انفعالات أخرى.

118

هناك براءة في الإعجاب لا يمتلكها سوى من لم يخطر له على بال أنه بإمكانه هو أيضاً أن يكون محلّ إعجاب في يوم ما.

119

يمكن للاشمئزاز من القذارة أن يبلغ حدًّا يغدو معه عائقاً يمنعنا من تطهير نفسنا- من «تبرير» نفسنا.

120

غالبا ما تتعجّل الحسيّةُ نموّ الحبّ، بحيث تظل الجذور ضعيفة وسهلة الاستئصال.

121

كان ذلك شيئا لطيفاً من قِبل الله أنْ تعلّم اللغة اليونانية عندما أراد أن يصير كاتباً-وأنه لم يتعلّمها جيّداً!

122

يكون السرور بالمديح عند البعض مجرد سماحة نفْس،-والنقيضَ لغرور العقل.

123

الارتباط الحرّ(التسرّي) قد طاله الفساد هو أيضاً -بواسطة الزواج.

124

من يبدو جذِلاً فوق المحرقة، لم ينتصر على الألم، بل على كونه لم يحس بأي ألم هناك حيث كان يتوقّعه. -وهذا مثَل.

125

عندما نريد أن نغيّر رأينا في شخص ما، نحاسبه بشدة عن الإزعاج الذي يسببه لنا ذلك.(*)

126

وجود شعب بأكمله هو الطريق الملتوية التي تسلكها الطبيعة نحو خلق ستة، سبعة رجال عظام، -لتتخلى عنهم من بعدها وتتجاوزهم.

127

كل النساء الحقيقيات يجدن في العلوم شيئا منافياً للحياء. ويكون لهن إزاءها إحساس بأن هناك من يريد أن ينظر ما تحت جلدتهنّ؛ بل أسوأ من ذلك ما تحت حليّهنّ وتنّوراتهن.

128

كلما كانت الحقيقة التي تريد أن تعلّمها أكثر تجريداً، إلا وكان عليك أن تضاعف من استمالة الحواس إليها.

129

للشيطان الأفق الأوسع في رؤية الله، لذلك يفضّل البقاء بعيداً عنه. الشيطان: أعني بذلك أقدم صديق للمعرفة.

(*) يجد قارئ نيتشه نفسه هنا مدفوعاً هنا إلى استحضار علاقته بكل من معلّميْه السابقيْن شوبنهاور وفاغنر والحدّة التي ميّزت انتقاداته لهما (المترجم)

130

يشرع المرء في الكشف عن شخصيّته الحقيقيّة مع تراجع موهبته؛ عندما يكفّ عن إظهار *مقدراته* . فالموهبة حلْيةٌ أيضاً؛ والحلْية مخبأ أيضاً.

131

يخطئ الجنسان كلاًّ في معرفة الآخر: وذلك يعني أن كلاّ منهما لا يحب في الحقيقة ويُكبر غير نفسه (أو مثَله الخاص، بتعبير أكثر مجاملةً). وهكذا يريد الرجل من المرأة أن تكون مسالمة؛ غير أن المرأة في جوهرها غير مسالِمة، مثلها مثل القطة، أيّا كانت براعتها في إظهار المسالَمة.

132

لا يعاقَب المرء أشد العقاب إلا عن فضائله.

133

من لا يستطيع أن يجد طريقاً إلى المَثَل الأعلى الخاص به، يحيا أكثر طيشاً ووقاحة ممّن لا مثل له.

134

الحواس هي المصدر الأول لكل مصداقيّة، ولكل راحة ضمير وكل تجسّد عيانيّ للحقيقة.

135

ليست الفرّيسية انحطاطاً يطرأ على الإنسان الخيّر؛ بل هي في جزء هام منها شرط لكل *ما* هو خيّر.

136

واحد يبحث عن مُساعد على توليد أفكاره، والثاني عمّن يحتاج إلى مساعدة: هكذا تنشأ محادثة جيّدة.

137

يخطئ المرء طريقه بسهولة في التعامل مع العلماء والفنانين: فليس نادراً أن نجد خلف رجل علم فريد من نوعه إنساناً رديئًا، وخلف فنّان رديء -وهذا ما يحدث غالبا- رجلا فريداً من نوعه.

138

هذا هو ما نفعله في اليقظة كما في الحلم: نبدأ بتخيّل وابتكار الإنسان الذي نتعامل معه -وسرعان ما ننساه.

139

في الانتقام وفي الحب تكون المرأة أكثر وحشيّة من الرجل.

140

نصيحة في هيأة لغز. «إن أردتَ ألا ينقطع الوثاق، عليك قبل كل شيء أن تعضّ عليه.»

141

أسفل البطن هو ما يمنع الإنسان من أن يعدّ نفسه بسهولة إلهاً.

142

أكثر العبارات حياءً مما سمعت: «في الحب الحقيقي، تكون الروح لحافاً للجسد.»(*)

143

ما نستطيع القيام به على أفضل وجه، ذلك بالذات هو ما يريد غرورُنا أن يجعل منه أصعب الأشياء علينا. من هنا كانت نشأة عدد من ضروب الأخلاق.

144

عندما تكون لامرأة ميول علمية، فإن شيئا في حياتها الجنسية يكون غير طبيعيّ. العقم وحده هو الذي يهيؤها لضربٍ من ذكوريّة في الذوق؛ فالرجل، بعد إذنكم، هو «الحيوان العقيم».

145

إذا ما قارنّا بين المرأة والرجل إجمالا، سيكون بوسعنا أن نقول: ما كان للمرأة أن تنعم بعبقرية الزينة، لو لم تكن لديها غريزة الدور *الثاني*.

(*) ترد بالفرنسية في نص نيتشه:

"Dans le veritable amour c'est l'âme, qui enveloppe le corps"

146

من يصارع الوحش، سيكون عليه أن يحترس من أن يصبح بدوره وحشاً. لأنك إذا حدقتَ طويلا في الهاوية، فإن الهاوية تنظر في أعماقك هي أيضاً.

147

من قصّة فلورنسية قديمة، وهي واقعةٌ معاشَة علاوة على ذلك: buona femmina e mala femina vuol bastone. Sacchtti Nov. 86 -المرأة الصالحة والمرأة الطالحة بحاجة إلى الضرب.(*)

148

استدراج شخصٍ إلى تكوين رأي حسن عنّا، ثم الاعتقاد من بعدها بكل براءة في ذلك الرأي: من تُراه يجيد هذه اللعبة مثل النساء؟-

149

الأمر الذي يرى فيه عصرٌ بعينه شرًّا، عادة ما يكون راسباً قد تجاوزه الزمن لشيء كان يعدّ خيراً في عصر سابق: إحياء لمثل أعلى قديم.

(*) بالإيطالية في نص نيتشه. مقتطعة من قصة للكاتب والشاعر الفلورنسي فرانكو ساكّيتي من القرن الرابع عشر. أحد رواد الكتابة الحديثة في إيطاليا التي يمكن اعتبارها طليعة الحركة الإنسية الأوروبية.

150

من حول البطل يغدو كل شيء تراجيڈيا، ومن حول نصف الإله كلّ شيء مهزلةً؛ ومن حول الله يصير كل شيء. . . -ماذا؟ ربما «عالَماً»؟

151

لا يكفي أن يكون للمرء موهبة؛ عليه أن ينال إذنكم في ذلك أيضاً، - أليس كذلك، أيها الأصدقاء؟

152

«حيث توجد شجرة المعرفة، هناك الجنة دوماً»: هكذا تتكلم كل الحيّات، -الأقدمَ منها والحديثة.

153

ما نفعله عن حبّ، يحدث دوماً ما وراء الخير والشرّ.

154

الاعتراض والانفصال والارتياب المرِح والسخرية علامات عن العافية: كل مطلَق له صلة بعالم الأمراض.

155

الحس التراجيدي ينمو ويتقلّص بحسب مستوى الحسيّة.

156

الجنون شيء استثنائي لدى الأفراد، أما لدى المجموعات والأحزاب والشعوب والعصور فهو القاعدة.

157

التفكير في الانتحار وسيلة عزاء قويّة؛ بواسطته يتجاوز المرء بسلامٍ ليالي شؤم كثيرة.

158

ليس عقلنا وحده هو الذي يخضع إلى أقوى الغرائز لدينا-الطاغية الذي في داخلنا-، بل ضميرُنا أيضاً.

159

علينا أن نردّ بالمثل، خيراً كان أم شرًّا؛ لكن لِم نردّ بالذّات لذاك الذي فعل بنا خيراً أو شرًّا.

160

يكف المرء عن حبّ معرفته بالقدر المطلوب حالما يُشرك الآخرين فيها.

161

يتعامل الشعراء بلا حياء مع تجاربهم: يستغلّونها.

162

«قريبُنا ليس جارَنا، بل جار جارنا»، هكذا يفكر كل شعب.

163

يكشف الحب عن الخصال السامية والخفيّة لمن يحبّ، عماهو نادر فيه واستثنائي؛ وبذلك يخدع بسهولة فيما يتعلق بما يمثل القاعدة فيه.

164

كان يسوع يقول ليهوده: «جُعل القانون للعبيد، -أحبوا الله كما أحبه أنا، بوصفي إبنه! ما شأننا والأخلاق، نحن أبناء الله!»-

165

في ما يخص كل الأحزاب: يحتاج الراعي دوماً إلى كبش يتقدّم القطيع، -أو يجد نفسه مضطرّا بين الحين والآخر لأن يكون هو نفسه كبشاً.

166

يكذب المرء بلسانه، لكنّ التكشيرة التي ترتسم على فمه وهو يفعل ذلك، تجعله يقول الحقيقة رغماً عنه.

167

تُعدّ الحميمية لدى القساة شيئا يلفّه الحياء، وبالتالي شيئا ثميناً.

168

وضعت المسيحية لإيروس سمًّا في شرابه؛ -صحيح أنه لم يمت بذلك، غير أنه انحطّ إلى منزلة الرذيلة.

169

كثرة كلام المرء عن نفسه، يمكن أن تكون وسيلة للتستر على نفسه.

170

في المديح إزعاجٌ أكبر مما في الملامة.

171

الشفقة لدى محب المعرفة تبدو شيئا مضحكاً تقريبا، شأن كفٍّ رقيقة لعملاق سايكلوبيّ.

172

من منطلق محبة الإنسانية يعانق المرء أحياناً شخصاً ما(لأنه لا يستطيع أن يعانق الجميع)؛ لكنّ ذلك بالذات هو ما لا ينبغي أن يبوح به لذلك «الشخص ما».

173

لن نكره امرئًا طالما نظل نستصغره، بل فقط عندما نرى فيه ندًّا أو شخصاً أرفع قيمة.

174

أيها النفعيون، أنتم أيضا تحبون كل نافعٍ كعربة *نقل* لميولكم، وأنتم أيضا تجدون في الحقيقة أن لدواليبها صخباً لا يطاق.

175

والمرء يعشق بالنهاية رغبتَه، لا الشيءَ المرغوب.

176

لا ينفر ذوقُنا من غرور الآخرين إلا إذا ما نفر منه غرورُنا.

177

ربما لم يوجد بعد من هو على قدرٍ كافٍ من الصدق عندما يتعلّق الأمر بمعرفة ما هي «الصدقيّة».

178

لا أحد يصدق حماقات الفطنين؛ أيّ خسارة لحقوق الإنسان في هذا!

179

تظل نتائج أفعالنا آخذة بتلابيبنا، غير مكترثة بكوننا قد «صحّحنا» أنفسنا في الأثناء.

180

هناك براءة في الكذب، وهي علامة إيمان صادق بقضيّة ما.

181

إنه لا إنساني أن نبارِك، هناك حيث نُلعَن.

182

رفْع الكُلفة من قِبَل المتفوّق شيء مثير للسخط، لأن الطرف المقابل لا يستطيع المعاملة بمثلها.

183

ما هزّني ليس أنك كذبت عليّ، بل أنني لم أعد أصدقك.

184

للطيبة إفراطٌ يبدو أشبه بالخبث.

185

«إنه لا يعجبني». -لماذا؟ -«لأنني دون مستواه».
هل حدث أن أجاب امرؤ هكذا؟

الفصل الخامس

عن التاريخ الطبيعي للأخلاق

186

غدا الإحساس الأخلاقي في أوروبا اليوم على غاية من الدقة والحداثة، والتنوع، والحساسية والرهافة، في مقابل «علم الأخلاق» المتصل به، الذي ما يزال حديث العهد، مبتدئا، فجًّا وغير دقيق؛ تضادٌّ يجلب الانتباه، يتجسد أحيانا ويأخذ له شكلا حيًّا في شخصِ الأخلاقانيّ نفسه. وعبارة «علم الأخلاق» في حد ذاتها تبدو، بالنظر إلى ما تعبّر عنه، مفرطة في الغرور ومنافية للذوق *السليم* الذي يميل دوما إلى استساغة عبارات أكثر تواضعاً. وعلينا هنا أن نقرّ بكل صرامة بما سيظل لمدة طويلة من الزمن ضروريا، وبما سيظل مسموحاً له وحده بأن يكون محور اهتمامنا لفترة من الزمن: أي تجميع الموادّ، وصياغةٌ مفوهميةٌ وترتيبٌ لمجال هائل من الأحاسيس القيَمية والاختلافات القيَمية الدقيقة التي تحيا وتنمو وتتوالد وتنقرض،-وربما القيام بمحاولات للكشف عن الأشكال المتكررة والأكثر ظهورا لهذا التبلّر الحيّ، وذلك كتمهيد لظهور *نِماطيّة* أخلاقية. وفي الحقيقة، كان ينقص الجميع التواضع في هذا المجال إلى حد الآن. فقد ظل كل الفلاسفة يرغمون أنفسهم، وبجديّة متصلّبة تبعث على الضحك، على

شيء فائق العلوّ، أكثر طموحاً وأكثر أبّهة، حالما يتطرقون إلى الأخلاق كعلم: كانوا يريدون *تأسيس* الأخلاق،- وكل فيلسوف قد اعتقد أنه أسس الأخلاق، أما الأخلاق نفسها فظلت تُعتبر «معطاة». كانت هذه المهمة المتمثلة في الوصف التي تتراءى لهم غير مجيدة، مهمَلة في التراب وبين النفايات، كانت أبعد ما يكون عن اهتمامات غرورهم الثقيل، بينما هي في الحقيقة مهمة قلّما بلغت الأيدي والحواسُ قدراً من الرهافة مناسبا لما تتطلّبه. ولأن فلاسفة الأخلاق بالذات لم تكن لهم حول الوقائع الأخلاقية سوى معرفة عمومية مستقاةٍ من مقتطفات اعتباطية ومختصرات عشوائية مما نُقل إليهم من طرف محيطهم وطبقتهم الاجتماعية، وكنيستهم، وروح عصرهم، ومناخهم، وإقليمهم؛ -ولأنهم كانوا ذوي معرفة سيئة بما يتعلق بالشعوب والعصور وبالماضي، وكانوا قليلي الفضول المعرفي من جهتهم، فإنه لم يتيسر لهم أبداً أن يبصروا شيئا من المشكلات الحقيقية للأخلاق؛ تلك التي لا تظهر إلا من خلال *المقارنة* بين أخلاقيات عديدة. ومهما سيبدو الأمر عجيباً، فإن ما ظل غائباً عن «علم الأخلاق» في مجمله حتى يومنا هذا هو طرح مسألة الأخلاق نفسها: ما ظل ينقص ذلك «العلم» هو الشكُ في ما إذا لم يكن هناك إشكال في هذه المسألة. أما ما كان الفلاسفة يسمونه بـ«تأسيس الأخلاق» وما ظلوا يطرحونه كمهمة على أنفسهم، فإنه لم يكن، إذا ما نظرنا إليه في وضوحه الحقيقي، سوى صيغة عالمة لـ *الإيمان* بالأخلاق السائدة، وأداة جديدة *للتعبير* عن نفسها، يعني واقع حالٍ داخل منظومة أخلاقية بعينها، بل هو في نهاية المطاف ضرب من الرفض لـ *إمكانية* أن تكون هذه الأخلاق قابلة لأن تُتناول كمشكلة: وفي كل الأحوال فقد كان ذلك نقيضاً لكل ما هو فحص، وتمحيص، وتشكيك، وتشريح لهذا الإيمان بالذات.

لنستمع مثلا إلى شوبنهاور وتلك البراءة التي تكاد تكون جديرة بالاحترام، التي يطرح بها مهمته؛ ولنستخلص ما ينبغي أن نستخلصه من حكم حول علميّة «علم» مازال آخر معلميه يتكلّمون مثل الأطفال والعجائز: «هذه المقولة، يقول شوبنهاور في Der Grund-problem der Moral. 136 –المشكل الأساسي للأخلاق)[*]، أو المبدأ الأساسي الذي يتفق حول محتواه كل الأخلاقيين: niminem laede, immo omnes quantum potes, juva[**] – هو المبدأ الذي يجتهد في تأسيسه كل المنظرين الأخلاقيين. . .إنه الأساس *الحقيقي* للإيطيقا، الذي ما انفكوا يبحثون عنه مثل حجر الفلاسفة الشهير». ولا شك أن العثور على ما يبرر هذه المقولة المذكورة أمر على غاية من الصعوبة – ومن المعلوم أن شوبنهاور أيضاً لم يفلح في ذلك–؛ ومن سيحسّ على نحو عميق في يوم ما كم هي خاطئة هذه المقولة، وباهتة وعاطفية في عالم تشكّل إرادةُ القوة ماهيتَه، سيكون علينا أن نذكّره بأن شوبنهاور، وبالرّغم من أنه كان متشائماً، كان يعزف على الناي يوميًّا بعد تناول أكله؛ ولنراجع في هذا الصدد كاتب سيرته. وإني لأتساءل، بهذه المناسبة: متشائمٌ، رجل ينفي الله والعالم، يتوقّف أمام الأخلاق؛ يقول نعم للأخلاق ويعزف الناي لأخلاقيّةِ «لا تؤذ أحداً!»–laede-neminem؛ –هل يمكن أن يكون حقّا متشائماً؟

(*) Schopenhauer, Preisschrift über die Grundlage der Moral. § 6: Vom Fundament der kantischen Ethik

(**) «لا تؤذ أحداً، بل ساعد الجميع قدر استطاعتك.»

187

بصرف النظر عن قيمة مزاعمَ من نوع «هناك أمر ملزِم في داخلنا»، يظل بإمكاننا أن نسأل: بماذا ينبئ زعمٌ مثل هذا عن ذاك الذي يزعمه؟ هناك أنواع من الأخلاق مهمتها أن تبرر صاحبها أمام الآخرين، وأخرى مهمتها طمأنته وجعله في حالة انسجام مع نفسه، وأخرى يسعى من خلالها إلى الصليب وإذلال النفس، وأخرى يسعى من خلالها إلى الانتقام، وأخرى إلى التستّر، وأخرى إلى التنكر والارتقاء والانفصال؛ هنا أخلاق تساعد صاحبها على النسيان، وهناك أخرى تساعد على أن يُنسى هو، أو شيء مّا مما له علاقة به. من الأخلاقيين من يريد أن يمارس سلطته على الإنسانية ويطلق العنان لمزاجه الابتكاري؛ وآخر -ربما يكون كنط بالذات واحداً من هذا الصنف- يريد من خلال أخلاقه أن يبلّغ الآخرين: «إن الأمر الجدير بالاحترام في شخصي هو أنني قادر على الطاعة، -ولا يمكن للأمر لديكم أن يكون مخالفًا لما هو عليه لديّ!» -وباختصار: ليست الأخلاق سوى *لغة مشفّرة للانفعالات*.

188

كل أخلاق هي، على عكس التسيّب، نوع من التعسف الذي يمارس على الطبيعة وعلى «العقل» أيضاً: غير أن هذا الأمر لايعدّ اعتراضاً عليها، عدا أن يكون علينا أن نقرّر، ومن منطلق ضربٍ آخر من الأخلاق، بأن كل نوع من التعسّف والجهالة غير مباح. ما هو جوهري وثمين في كل أخلاق هو كونها إكراهاً طويلا: ولكي نفهم الرواقية أو مدرسة بور رويال، أو الصفويّة، يحسن بنا أن نذكّر بذلك الإكراه الذي عرفت كلُّ لغة حتى الآن قوتَها وحريّتَها تحت تأثيره، -

إكراه الأوزان الشعرية، والتعسف الذي يمارسه الإيقاع والقافية؛ وأيّ جهد ومعاناة كان على الشعراء والخطباء من كل الشعوب أن يتحملوا! ولا يمكن أن نستثني بعض كتّاب النثر من عصرنا الحاضر، ممن يسكن أُذنهم ضمير صارم لا يرحم -«من أجل حماقة خرقاء»، كما يقول «الأغبياء النفعيّون» متوهّمين بذلك أنهم أكثر فطنة؛ أو «بموجب الاستسلام لسلطة قوانين قهريّة»، كما يقول الفوضويّون، متوهّمين بذلك أنهم «أحرار»، بل عقول حرة أيضا. غير أن الواقع المدهش والغريب في الأمر هو أن كل ما يوجد، وما وجد على وجه الأرض من حريّة ورهافة، وجرأة، وخفة راقصة وبراعة واثقة، سواء كان ذلك في التفكير نفسه، أو في سياسة الحكم، أو في الكلام والإقناع، في الفنون كما في الخُلقيّات، -كل ذلك لم يستطع أن يتطور إلا بفضل «استبداد تلك القوانين القهرية»؛ وبكل جديّة، هناك احتمال غير ضئيل بأن يكون ذلك بالتحديد -وليس التسيّب- «طبيعةً» وشيئا «طبيعيًّا»! وكل فنّان يعرف كم تكون حالته الأكثر طبيعيّة بعيدة عن إحساس التسيّب في لحظات «الإلهام»، وأنه يكون منصرفاً بحرية إلى عمله، يرتّب، وينضّد، ويهيّئ، ويشكّل؛ وبأية صرامة ودقّة يُخضع نفسه حينها إلى القوانين المتعددة التي تسخر صرامتُها ودقتها من كل صياغة مفهومية (وحتى أكثر المفاهيم متانة يكون مقارنة بها حاملا لشيء فضفاض، متعدد الأوجه وملتبس). ويبدو أن الأمر الجوهري («في السماء كما على الأرض»)، ولنكررها مرة أخرى، هو أن نلتزم بالطاعة طويلا، وفي الإتجاه نفسه دوماً: عن هذا نشأ في الماضي وينشأ دوما مع مرور الزمن ما يجعل إقامتنا على الأرض شيئا جديراً بالعناء: فضائل على سبيل المثال، وفن، وموسيقى، ورقص، وعقل، وروحانية؛ -شيء مغيِّر لوجه الأشياء، مرهف، جنونيّ وألوهيّ. تلك

التجربة الطويلة لتقيُّد العقل، والإكراه الارتيابي في تواصل الأفكار، ونظام الانضباط الصارم الذي أخضع المفكرُ نفسَه له بالتفكير وفقاً للمقاييس الكنسيّة أو ضمن الفرضيات الأرسطاطوليسيّة، وتلك الإرادة العقلية المستديمة لتأويل كل الوقائع وفقاً لنموذج مسيحيّ، وجعل كل مصادفة اكتشافاً جديدا وتبريرا إضافيّا للرب المسيحي؛ -كل ذلك العنف والتعسف والقسوة، والإجراءات المرعبة والمنافية للعقل، سيتضح أنها كانت الوسيلة التي تم للعقل الأوروبي من خلالها أن يكتسب قوته وفضوله المعرفي المنفلت من كل القيود، ومرونتَه أيضاً؛ -مع الاعتراف بأن كمًّا هائلا من الطاقة ومن العقل كان عليه أن يُقمع خلال ذلك ويُخنق ويَفسد (فهنا أيضا، وكما في كل موقع تظهر «الطبيعة»، كما هي، في كامل عظمتها المبذّرة، *اللامبالية*، المثيرة للاستياء، -والنبيلة مع ذلك). لآلاف السنين ظل الأوروبيون لا يفكرون إلا من أجل البرهنة على شيء -أما اليوم، فكل مفكّر يريد أن «يبرهن على شيء» يغدو محلّ شبهة لدينا-، وكانوا طوال الوقت، وهم ينسجون على منوال الفلكيين الآسيويين في ما مضى، أو على منوال التأويل الأخلاقي المسيحي للوقائع الشخصية الأكثر حميمية في عصرنا الحاضر، -كانوا يحرصون مسبقا على أن تكون النتائج التي ينبغي أن تفضي إليها تأملاتهم الصارمة متجهةً نحو «مجد الله» و«من أجل خلاص الروح»: ذلك الاستبداد وذلك التعسف، وتلك الحماقة الهائلة قد أسهمت في *تربية* العقل. يتضح إذًا، وبحسب ما يبدو لنا، أن العبودية بالمعنى الفج والمعنى الدقيق معا، هي الوسيلة التي لاغنى عنها لتأديب العقل وتربيته. يمكننا بالتالي أن نفهم كل أخلاقٍ من هذا المنظور: إن «الطبيعة» هي التي تعمل داخل الأخلاق على تعليم الإنسان أن ينبذ التسيّب ويكره الحرية المفرطة، وهي التي تربي

الحاجة إلى الأفق المحدودة والمهمات التي في متناول اليد، وتلقّن ضيق الأفق، وبالتالي الغباء بمعنى ما كشرط للحياة والنموّ. «عليك أن تلتزم بالطاعة لأحد ما وعلى مدى طويل، *لئلاّ* تهلك وتفقد كل احترام لنفسك»: هذا هو في ما يبدو لي الملزِم الأخلاقي الطبيعيّ، وهو غير «حمْليّ»، كما يريده العجوز كنط (ومن ذلك كانت تلك الـ «لئلاّ»)، ولا هو موجّه إلى الأفراد (إذ، ماذا يعني الأفراد بالنسبة للطبيعة!)، بل إلى الشعوب، والأعراق، وإلى مجمل الحيوان «الإنساني» في المقام الأول: إلى الجنس البشريّ.

189

تجد الأعراق المجتهدة صعوبة فائقة في تحمّل العطالة؛ وقد كانت الغريزة الأنكليزية على قدر عال من الحيلة عندما قدست يوم الأحد تقديساً بالغاً وجعلت منه يوما مضجراً، بحيث أصبح الأنكليزي، دون إدراك واع يحنّ إلى بقية أيام الأسبوع والعمل؛ الأحد كنوع من *الصوم* الذي تم ابتكاره وإدراجه في الحياة بطريقة ذكية، على غرار الأمثلة المشابهة العديدة التي نعثر عليها في العصور القديمة (وإن لم يكن الأمر يتعلق بالعمل بالذات لدى الشعوب الجنوبية). لابد أن تكون هناك أنواع مختلفة من الصوم، وحيثما تكون هناك غرائز وعادات قوية مهيمنة يحرص المشرّعون على إدراج أيّام كبيسة تقيِّد فيها تلك الغرائز وتتعلم فيها الجوع من جديد. هناك أجيال وعصور عندما تتملك بها حالات من التزمت الأخلاقي، تتراءى للناظر إليها من أعلى في هيأة تلك الأزمنة التي تعيش أوقات الصوم والإكراه، والتي تتعلم غريزةٌ ما أثناءها أن تركع وترضخ، بل وأن *تتطهر* أيضا *وتشحذ قواها*. وهناك أيضا بعض الفرق الفلسفية (مثل الرواقية من عمق

الحضارة اليونانية وهوائها المشبع شبقاً والمضمّخ بالعطور المهيِّجة) التي تسمح لنا بمثل هذا التأويل. ههنا إشارة تقودنا إلى تفسير تلك المفارقة المتمثلة في أن الغريزة الجنسية، في العصور المسيحية الأوروبية بالذات وفي ظل ضغوطات الأحكام القيمية المسيحية، قد عرفت تساميها وتصعيدها في العشق (العشق الشغوف(*)).

190

هناك في الفلسفة الأخلاقية لأفلاطون شيء لا علاقة له بالأفلاطونية في الحقيقة، لكنه وجد في فلسفته فحسب، بل ويمكننا القول أنه وجد رغماً عن أفلاطون، وهو السقراطية التي كانت دون منزلته النبيلة. «لا أحد يريد أن يُلحق الضرر بنفسه، وبموجب ذلك فإن كل سوءٍ يحدث دون إرادة من صاحبه. فالسيء يُلحق الضرر بنفسه؛ غير أنه ما كان ليفعل ذلك، لو عرف أن السيّءَ سيءٌ. تبعاً لذلك لا يكون الإنسان السيّء سيئًا إلا بموجب خطأ؛ وإن نحن أزحنا عنه خطأه، فسنجعل منه حتماً إنسانا -صالحاً.» -هذا النوع من الاستنتاج يفوح برائحة *الرعاع*، الذين لا يرون من العمل السيء إلا نتائجه المضرة، ويحكمون في الحقيقة كالآتي: «إنه من الغباء أن يسيء المرء الفعل»؛ في حين يرون في ما هو «حسن» شيئا مساوٍ لـ«النافع والمريح» ولا شيء غير ذلك. وإنه لَيحق لنا إزاء كل نفعية أخلاقية أن نحزر بهذا الأصل الرعاعيّ منذ البداية وأن نتبع حاسة شمّنا؛ ولن نخطئ إلا نادرا. -لقد فعل أفلاطون كل ما بوسعه كي

(*) يستعمل نيتشه هنا عبارة amour-passion الفرنسية، التي يستعيرها من ستاندال: Stendhal, *De l'amour*, 1er livre, chap.1

يقحم بواسطة التأويل شيئا ما مرهفا ونبيلا في مقولة معلّمه، بل أن يقحم نفسه، -هو الأكثر جسارة من بين المؤوّلين جميعاً، الذي التقط مجمل سقراط من الزقاق مثل موضوع عاميّ وأغنية شعبية، ليطوره وينوّعه إلى ما لانهاية، وحتى حدود المستحيل؛ أي وهو يلبسه كل أقنعته الخاصة وأوجه تنوّعه. ولكي نتكلم بشيء من الدعابة، ومن الروح الهوميرية علاوة على ذلك: أي شيء هو سقراط الأفلاطوني إذًا، إن لم يكن *«أفلاطون من الأمام، وأفلاطون من الخلف، و خيميرا في الوسط»*(*).

191

إن الإشكال اللاهوتي القديم حول «الإيمان» و«العلم»، أو بعبارة أوضح مسألة الغريزة والعقل- أي السؤال حول ما إذا كانت الغريزة تتمتع في ما يتعلق بتقييم الأشياء بسلطة أكبر من سلطة العقل، الذي يولي بالأحرى اهتماما بمسألة «أسباب» الأشياء في تقييمه لها وفي عمله، أكثر مما يهتم بغرضيتها ونفعيتها. إنها دوما نفس المشكلة الأخلاقية القديمة، كما ظهرت لدى سقراط أولا، وظلت تفرق العقول منذ عصور طويلة سابقة على المسيحية. صحيح أن سقراط نفسه، وبما تتمتع به موهبته من ذوق -موهبة الجدليّ المتفوّق-، قد وقف بدءًا إلى جانب العقل؛ وماذا ظل يفعل طوال حياته في الحقيقة غير السخرية من العجز الأرعن لنبلاء أثينا المعاصرين له، الذين كانوا رجال فطرة، مثلهم مثل كل النبلاء، ولم تكن لهم من قدرة البتة على تقديم أجوبة

(*) خيميرا، أو chimaera في اللاتينية : حيوان خرافي له رأس وصدر أسد وبطن ماعز وذيل ثعبان. والمقولة الأخيرة التي ترد في نص نيتشه باللغة اليونانية منقولة عن الإلياذة الكتاب الرابع، ١٨١.

شافية في ما يتعلق بأسباب أفعالهم؟ لكنه كان في الحقيقة يضحك من نفسه في السرّ: فقد وجد لديه أيضاً، وأمام ضميره المرهف، نفس الصعوبات ونفس القصور الذي كان لديهم. فلِم يكون علينا إذًا (قال مسرًّا لنفسه) أن نتخلص من غرائزنا؟ علينا بالأحرى أن نفيها حقها، وكذلك العقل *أيضاً*؛ علينا أن نتبع الغرائز، وأن نحْمل العقل على دعمها في ذلك بحجج متينة. تلك كانت *الخدعة* الكبرى لذلك الساخر الغامض الكبير؛ لقد توصل بضرب من الاحتيال على النفس إلى إرضاء ضميره: وفي الحقيقة كان قد كشف عن لامعقولية الأحكام الأخلاقية واطّلع على سرها. -أما أفلاطون، وهو الأكثر براءة في مثل هذه الأمور، والمجرد من مكر الرعاع، فقد سعى بكل ما لديه من قوة - بأكبر قدر من القوة مما استطاع فيلسوفٌ حتى ذلك الحين أن يسخّر- سعى إلى إقناع نفسه بأن الغريزة والعقل يسعيان تلقائيا إلى نفس الغاية؛ إلى «الخير» و«الله». ومنذ أفلاطون والفلاسفة جميعاً يمضون على نفس الطريق؛ يعني ذلك: لقد كان الانتصار في المسائل الأخلاقية دوما للغريزة، أو«الإيمان»، كما يسمي ذلك المسيحيون، أو ما أسميه أنا «القطيع». يجب أن نستثني من ذلك ديكارت، أب العقلانية (وجدُّ الثورة تبعاً لذلك)، ديكارت الذي لم يكن يعترف بسلطة إلا للعقل وحده: غير أن العقل ليس سوى أداةٍ، وديكارت كان سطحيًّا.

192

من يتابع تاريخ علم بعينه يجد في تطوره خيطاً رابطاً يمكّن من فهم أقدم الإجراءات وأكثرها تداولا في كل «علم ومعرفة»: هنا، كما هناك، تكون الفرضيات المتسرعة، والخيالات، وإرادة «الإيمان» السخيفة، وقلة الارتياب والافتقار إلى الصبر هي أول ما تطور داخلها؛

فحواسنا لا تتعلم إلا بصفة متأخرة، ولا تتعلم البتة على نحو كامل أن تكون أعضاء دقيقة ووفيّة لتحصيل المعرفة. وأعيننا تجد من الأيسر لها أمام معطى محدد أن تعيد إنتاج صورة قد تم إنتاجها مراراً في ما سبق، وتفضل ذلك على التمسك بماهو جديد ومخالف في انطباع ما؛ فالأمر الأخير يتطلب قدراً أكبر من القوة، ومستوى أعلى من «الأخلاقية». إن سماع شيء جديد صعب ومزعج بالنسبة للأذن؛ واستماعنا إلى موسيقى غريبة يكون رديئًا. وعندما نستمع إلى لغة أجنبية نحاول بصفة لاإرادية أن نشكل من أجراس الكلمات الغريبة التي نسمعها كلمات لها وقع معتاد ومألوف على أذننا: هكذا اشتق الألمان كلمة Armbrust من خلال تبديل أجروه على كلمة arcubalista(*). ما هو جديد عادة ما تقابله حواسنا أيضا بالنفور والرفض؛ وفي «أبسط» إجراءات الحواسّ لدينا تسود الأحاسيس، مثل الحب، والخوف، والكراهية، بما في ذلك أحاسيس الكسل السالبة. -وإنه لمن النادر أن نجد قارئا في وقتنا الحاضر يقرأ كل الكلمات المنفردة (أو حتى مقاطع لفظية) في صفحة ما؛ بل غالباً ما يلتقط من مجمل عشرين كلمة حوالي خمس كلمات على سبيل المصادفة، ويحزر من خلال تلك الكلمات الخمس ما يمكن أن يتوقعه من معنى مناسب. وعلى النحو نفسه لا نرى شجرة بدقة وبكلية تفاصيلها ونحن نركز على أوراقها وأغصانها وألوانها وشكلها؛ بل نجد بالأحرى أنه من الأيسر علينا بكثير أن نشكل من

(*) Armbrust إسم يطلق على سلاح يشبه القوس (يسمى arbalète بالفرنسية) وقد اشتق الألمان صياغته من كلمة arcubalista اللاتينية التي تبدأ بكلمة قوس (arcu)، ولعلهم تأولوا العبارة وهم يستمعون إليها (يسمعون جرسها الغريب) ويرون السلاح، بأنه سلاح يحمل بين الذراع والصدر، فنحتوا كلمتهم المركبة من ذراع (Arm) وصدر (Brust) -م-

خيالنا شجرة بصفة تقريبية. وكذلك نفعل حتى في خضم الأحداث الاستثنائية؛ نبتكر من خيالنا الجزء الأكبر من الحدث، وما من شيء يستطيع أن يلزمنا بأن نشاهد عملية مّا ونحن مجردين من صفتنا كـ«مبتكرين». كل هذا يعني أننا، في أساسنا ومنذ تاريخنا القديم، *متعودون على الكذب*، أو بعبارة أكثر سموّا ورياء، أو بعبارة ألطف: نحن فنّانون أكثر مما نعتقد.[٢٠] -خلال محادثة حماسية غالبا ما أرى في وجه مخاطبي، وبما يناسب الفكرة التي يعبر عنها أو التي أثرتها فيه، كمًّا من الوضوح والدقّة، إلى حدّ تغدو معه هذه الدرجة من الوضوح متجاوِزة لما تسمح به قدراتي البصرية: - تلك الدقة في حركات عضلات الوجه وتعبير العينين لا يمكنها أن تكون إذاً إلا من ابتكار خيالي. ومن المحتمل أن يكون لوجه ذلك الشخص تعبير مغاير تماماً، أو أن يكون دون أيّ تعبير أصلا.

193

Quidquid luce, tenebris agit[*]؛ لكنّ العكس صحيح أيضاً. ما نعيشه في الأحلام، بشرط أن نعيشه عدة مرات، هو بالنهاية جزء من مجمل حياتنا النفسية مثل كل معاش «في الواقع»؛ وبفضله نكون أكثر ثراء، أو فقراً، وتزداد حاجاتنا أو تنقص، ونغدو في نهاية المطاف، في وضح النهار وحتى في اللحظات الأكثر وضوحاً ليقظة عقلنا مسيّرين إلى حد ما بعادات أحلامنا. ولنفترض أن شخصاً غالبا ما يجد نفسه طائراً في الحلم، ليصبح بالأخير كلّما حلم إلا ووجد نفسه على وعي واثق بقدرته على الطيران وإتقانه، وبمهارته في ذلك

(*) لاتينية، وتعني: كل ما يحدث في وضح النهار يفعل فعله في الظلام.

كامتياز خُص به وحده، وحظوةِ سعادةٍ يُحسد عليها؛ رجل كهذا يعتقد أنه قادر بأبسط حركة على إنجاز شتى الحركات البهلوانية في طيرانه، ويحدوه إحساس بضرب من الخفّة والمرونة الألوهية صعوداً «إلى الأعالي» دون توتر أو إكراه، «نزولا» دون إرخاء أو انحدار متعجرف أو انحطاط واتضاع -*دون ثقل*! -فكيف لرجل عرف تجربة طيران وعادات طيران مثل هذه ألاّ يصبح لعبارة «سعادة» لون آخر ودلالة أخرى في ذهنه في حال اليقظة من بعدها؟ وكيف لا يكون عليه أن لا يصبو إلى السعادة على نحو مغاير؟ وسيغدو «التحليق»، حسب الوصف الذي يقدمه عنه الشعراء، شيئا «معيقا» لهذا النوع من «الطيران» في نظره، شيئا أرضيًّا أكثر مما ينبغي، عضليًّا، عنيفاً، بل «ثقيلا» مفرطاً في الثقل.

194

إن اختلاف الناس لا يتجلى في اختلاف تقييماتهم للممتلكات فقط، أي في كونهم يعتبرون ممتلكات مختلفة جديرة بالتملك، ويختلفون فقط حول درجة قيمة الممتلَكات ومراتبها؛ بل تتجلى بالأحرى في ما يعتبرونه *حيازة* حقيقية *وامتلاكاً* حقيقيا لممتلَك ما. ففي ما يتعلق بالمرأة على سبيل المثال، يكتفي الأكثر تواضعا من الناس بمجرد الاستمتاع بجسدها وبالمتعة الجنسية التي يستمدها منه كعلامة كافية ومرْضيّة عن التملّك، بينما لا يرى شخص آخر ذو تعطش للملكية أكثر ارتياباً وتطلّبا سوى «نقاط الاستفهام» والظاهرِ المغالط في ذلك الممتلك، ويريد في المقام الأول براهين أكثر دقة تمكنه من معرفة إذا ما كانت تلك المرأة لا تهب نفسها له وحده فحسب، بل تتنازل له أيضاً عما تملك أو ما تتمنى امتلاكه: هكذا، وهكذا فقط يغدو بوسعه

أن يعتبرها «ممتلَكة». لكنّ نوعا ثالثا لا يكفيه هذا المستوى أيضا كي يتخلص كليّا من شكوكيته ويشبع رغبته في التملك، فيجد نفسه يتساءل عما إذا لم تكن تلك المرأة وهي تتخلى عن كل شيء من أجله، تفعل ذلك فقط من أجل صورة شبحية عنه وليس لشخصه الحقيقي؛ إنه يريد أن يُعرف معرفة دقيقة وعميقة، بل أن تعرف تلك المرأة عمق أعماقه أولا كي يصبح بإمكانها أن تحبه، ويغامر بأن يجعل نفسه معروضاً للاكتشاف. -وعندما تصبح المحبوبة على بيّنة من أمره، غير منخدعة بشيء فيه، وعندما تحبه وهي على معرفة جيدة بشروره وبجشعه الدفين الذي لا يشبع، أكثر مما تفعل بسبب طيبته وصبره وعقله الراقي، - عندها فقط يشعر أنها غدت في حوزته تماماً.

هنا واحد يريد أن يملك شعباً، وتغدو أرقى فنون كيد كاغليوسترو وكاتيلينيا مسخّرة له من أجل بلوغ غايته هذه. وهذا آخر يقول لنفسه، مدفوعاً برغبة تملّك أكثر لطافة، «لا ينبغي على المرء أن يَخدع حيث يريد أن يتملّك»، ويكون على غاية من التوتر والقلق عندما يتصور أن قناعاً له هو الذي يتحكم في قلوب جماهير شعبه؛ «عليّ إذاً أن أعرّف بنفسي، وعليّ قبلها أن أعرف نفسي!». ولدى المحسنين ومقدّمي العوْن نصادف بصفة منتظمة تقريباً ذلك المكر البليد الذي يعدّون به مسبقا صورة من نسج رغباتهم عمن ينبغي أن يتلقى المساعدة، كأن يكون «جديرا» بالمساعدة مثلا، وأنه يطلب مساعدتهم هم بالذات، وأنه وسيغدو ممتنًّا لهم عن كل مساعدة، وفيّا وخاضعاً. ومن منطلق هذه التصورات يسخّرون المحتاج تسخيرهم لمتاع، وفقاً لكونهم من منطلق الرغبة في الملكية فقط قد أصبحوا أناسا محسنين ومقدّمي عوْن. وسنجدهم شديدي الغيرة إذا ما التقينا معهم في عمل مساعدة، أو سبقناهم إليه. ويفعل الآباء بأبنائهم شيئا مشابهاً لهذا -ويسمون ذلك

تربية. فما من أمّ تشك في قرارة نفسها لحظة واحدة في كونها أنجبت متاعاً بإنجاب أطفالها، وما من أب يجادل في حقه في أن يخضع إبنه لأفكاره وتقييماته *الخاصة*. بل، كان يبدو للآباء في أزمنة قديمة أنه أمر عاديّ ومن حقهم أن يتصرفوا كما يحلو لهم في موت أو حياة مواليدهم الجدد (كما كان يحدث لدى الألمان القدامى). وعلى غرار الأب، مازال المعلّم، والطبقة، والكاهن والأمير حتى يومنا هذا يرون في كل قادم جديد مناسبة لا منازع حولها لحيازة ممتلك جديد. وبالتالي...

195[21]

اليهود، -شعب «منذور للعبودية»، كما كان يقول تاسيتوس(*) ومجمل العالم القديم؛ «شعب الله المختار»، كما يقولون هم عن أنفسهم وكما يعتقدون،- اليهود هم الذين أنجزوا معجزة قلب القيم الذي مكّن الحياة على الأرض من أن تكسب لبضعة آلاف من القرون ذلك السحر الجديد والخطير. أجرى أنبياؤهم عملية صهر لمفاهيم «غنيّ»، «كافر»، «شرير»، «عنيف»، «حسيّ» داخل كيان واحد ليشكلوا منه لأول مرة عبارة «دنيا» كشتيمة. داخل عملية قلب القيم هذه (وضمنها يندرج استعمال كلمة «فقير» كمرادف لـ«مقدّس» و«صديق»(**)) تكمن أهمية الشعب اليهودي: معه بدأت *انتفاضة العبيد في مجال الأخلاق*.(***)

(*) السيناتور والمؤرخ Gaius Cornelius Tacitus

(**) المقصود هنا «حبيب الله». أنظر الهامش ٢٢ حيث ترد بعبارة أوضح في الصياغة الأولية لهذه الفقرة.

(***) Tacitus, Historiae V,8

196

يمكننا أن نستنتج أن هناك عددا لا يحصى من الأجرام المعتّمة بجوار الشمس، -أجرام لن نراها أبداً. وفيما بيننا، نحن نتكلم هنا بأمثال؛ وخبير علم النفس الأخلاقي يقرأ مجمل كتابة النجوم كأمثولة ولغة علامات تسمح بكتمان الكثير من الأشياء.

197

نسيء جوهريا فهم الضواري من الحيوان وبني الإنسان(قيصر بورجيا على سبيل المثال)، ونسيء فهم «الطبيعة» طالما نظل نبحث عن شيء «مرَضي»، بل وعن «جحيم» فطريّ في التركيبة العميقة لهذه الكائنات الفظيعة من حيوانات ونباتات مداريّة هي الأكثر متانة وعافية في الحقيقة، -كما درج على ذلك جلّ الأخلاقانيين حتى الآن. ألا يبدو أن الأخلاقانيين يكنّون كراهية للأدغال وللمناطق المداريّة؟ وأن «الإنسان المداريّ» لابد أن يشنّع به بأي ثمن بوصفه حالة مرضية وانحطاطا في النوع البشري، وأنه جحيم نفسه ومعذّب نفسه؟ ولِم ذلك؟ ألصالح المناطق الأكثر اعتدالا؟ والإنسان المعتدل؟ و«الأخلاقانيين»؟ والرديئين؟ -يضاف هذا إلى فصل «الأخلاق بوصفها خوفاً».

198

أي شيء هي كل هذه الأخلاقيات التي تتجه إلى الأفراد من أجل «سعادتهم» كما يقال، إن لم تكن مجرد وصْفات سلوكيّة تتناسب ودرجة *الخطورة* التي يعيشها الإنسان في علاقته بذاته؛ وصفات ضد الأهواء، ضد ميوله الحسنة منها والسيئة، طالما تظل مسكونة بإرادة

القوة وبالرغبة في السيادة؛ حيلاً صغيرة وكبيرة وأدواراً ماكرة تفوح منها روائح الزوايا الرطبة وحكمة العجائز؛ وجميعها في شكل يضج بالزخرف والحماقة، لأنها تتجه إلى «الجميع»، ولأنها تعمِّم حيث لا يجوز التعميم؛ وجميعها تتكلم بالمطلَقات، وترى نفسها مطلَقة، وجميعها لا تكتفي بحبة ملح واحدة في بهارها، بل لا يمكنها أن تكون مستساغة، ومغرية أحياناً، إلا عندما تكون مشطّة التوابل وتعبق برائحة نفّاذة خطيرة، برائحة «العالم الأخروي» خاصة. كل هذا عديم القيمة في معيار العقل، وأبعد ما يكون عن «العلم»، ناهيك عن «الحكمة»، بل هي وكما قلنا آنفا، وكما نرددها ثلاثا لا تعدو كونها: حيلة، حيلة، حيلة ممزوجة بغباءٍ، غباءٍ، غباءٍ؛ سواء تعلق الأمر بتلك اللامبالاة وبرودة الحجر التي نصح بها الرواقيون من قبل ووصفوها كعلاج مضاد لتأجج جنون الانفعالات؛ أو بذلك التخلي عن الضحك والبكاء الذي يدعو إليه سبينوزا بوصْفتُه السخيفة التي تقتضي تدمير الأحاسيس من خلال تحليلها وتشريحها؛ أو بالحط من الأحاسيس وتقليصها في رداءة ليّنة طيّعة يمكن إشباعها بسهولة، أي كأرُسطيّةٍ أخلاقية؛ أو أخلاقٍ كمتعة للحواس ضمن عملية تخفيف وعقلنة إراديّتيْن من خلال الترميز الفنّي، في شكل موسيقى مثلا؛ أو كمحبّة لله والإنسان، لوجه الله -إذْ أصبح للشغف مكانه داخل الدين أيضاً، شريطة أن. . . . ؛ وأخيرا حتى في ذلك الاستسلام الطوعي والنّزِق للأحاسيس، كما دعا إلى ذلك حافظ وغوتة بتلك الشجاعة في إطلاق العنان، وتلك الـ *licentia morum* -الإباحيّة الأخلاقية المرتبطة بحالات استثنائية لحكماء عجائز سكّيرين وغريبي الأطوار، «لم يعد يتهددهم خطرٌ» من ورائها. -وهذا أيضا مما يضاف إلى فصل «الأخلاق بوصفها خوفاً».

اعتباراً وأن وجود البشر كان على مر العصور مقترنا بوجود قطعان بشرية (عشائرَ، جماعات، قبائل، شعوبا، دولا، كنائس) وعدد غفير من المطيعين مقابل أقلية قليلة من الآمرين؛ واعتبارا أن الطاعة كانت بالتالي الأمرَ الذي دأب على ممارسته البشر وظلوا يربّونه ويطورونه على أفضل وجه ولأطول مدة من الزمن، فإنه يحق لنا إذًا أن نفترض بصفة إجمالية أن كل فرد قد غدا الآن مسكوناً بحاجة فطرية تعادل *ضميراً قطعيًا* آمراً بـ: «ينبغي عليك حتماً أن تفعل هذا الشيء، وأن تترك حتماً هذا الآخر»، وبعبارة واحدة «*ينبغي عليك*». تسعى هذه الحاجة إلى إشباع رغبتها، وإلى جعل شكلها يمتلئ بمحتوى ما؛ وبحسب ما تكون عليه من قوة، وتلهّف، وتوتّر تشتغل تلك الحاجة متناولة بشهية فجّة دون تمييز أو انتقاء كل ما يقع في أذنها من أوامر أيّ آمرٍ: العائلة، والمعلّمون، والقوانين، والأحكام المسبقة الطبقية، والرأي العام. إن المحدودية الغريبة للتطور الإنساني، وكل ما ميّزه من تردد وبطء، وارتدادات على الأعقاب ولفّ ودوران على الذات، تعود كلها إلى كون غريزة الامتثال القطيعيّة هي التي توارثتها الأجيال على النحو الأفضل وعلى حساب فنّ القيادة والأمر. وإذا ما تصوّرنا أن تتطور هذه الغريزة حتى حدها الأقصى فإن العالم سيجد نفسه بالنهاية خالياً من الآمرين والرجال المستقلين، أو أن هؤلاء سيجدون أنفسهم يعانون من أزمات تأنيب الضمير، وسيكون عليهم أن يبتكروا خدعاً يتحايلون بها على أنفسهم من أجل أن يأمروا: أي أن يظهروا كما لو أنهم لا يفعلون هم أيضا سوى الامتثال والطاعة. وهذا هو واقع الحال اليوم في أوروبا، وأسميه الرياء الأخلاقي للآمرين. فهؤلاء لا يجدون من إمكانية للتحصن من تأنيب الضمير سوى في أن يعرضوا أنفسهم

كمنفذين لأوامر أعرق وأسمى (أوامر السلف، والدستور، والقوانين، أو الله أيضا)، أو أنهم يستعيرون من تفكير القطيع شعارات قطيعيّة، مثل «الخادم الأول للشعب»، أو «أدوات في خدمة المصلحة العامة».
ومن جهة أخرى يظهر إنسان القطيع الأوروبي نفسه اليوم كما لو أنه النوع البشري الوحيد المسموح له بالوجود؛ يمجّد خصاله التي تمكنه من أن يكون ليّنا، محتمل المعشر، ومفيدا للقطيع، على أنها الفضائل الحقيقية للإنسان، وهي: الحس الاجتماعي، الطيبة، الاحترام، الاجتهاد، الاعتدال، التواضع، الحِلم، الشفقة. لكن، وفي الحالات التي لا يرى هؤلاء فيها إمكانية للاستغناء عن القائد كرّاز القطيع، تجري اليوم المحاولة تلو المحاولة لتعويض القائد الآمر بجمع مركّب من العناصر الذكية من عناصر القطيع: من هنا مثلا أصل كل أنظمة الدساتير التمثيلية. ومع ذلك، أيَّ نعمة وأيَّ خلاص من عبء ثقيل رغم كل شيء سيكون لدواب القطيع الأوروبية في ظهور الحاكم الآمر المطلق! وقد مثل الأثر الذي خلّفه ظهور نابليون الدليلَ الأكبر والقاطع على ذلك: إن تاريخ التأثير الذي مارسه نابليون يعادل تقريبا تاريخ السعادة الأرقى التي جلبها هذا القرن بأثمن رجاله وأرقى لحظاته.[٢٢]

200

إن إنسان عصر التفكك الذي اختلطت فيه الأعراق، إنسانٌ يحمل في داخله موروثا من شتى الأصول، بما يعني غرائز وقيم متناقضة، بل ومتضاربة يجري بينها صراع دائم لا يعرف هدنةً؛ إنسان الحضارات المتأخرة والأضواء المنكسرة سيكون في المعدّل العام إنساناً أضعف؛ وتكون رغبته الأعمق هي أن تنتهي أخيراً تلك الحرب التي *تدور في كيانه نفسِه*؛ وتتراءى له السعادة في التلاؤم مع دواء ونمط تفكير

مهدئيْن (من النمط الأبيقوري أو المسيحي على سبيل المثال)، كسعادة الراحة في المقام الأول، والإطمئنان والشبع، والوحدة النهائية؛ أي كـ«سبْت السبوت»(*) بلغة القديس الخطيب أغسطينوس، الذي كان بدوره إنساناً من هذا النوع.

أما إذا ما اشتغل التناقض والحرب داخل طبع من هذا النوع كمثيريْن وحافزين إضافيّين، وإذا ما أضافت الوراثة والتربية إلى هذه الغرائز القوية المتناحرة بلا هوادة ذلك الفن والبراعة الحقيقيّة في محاربة النفس، أي القدرة على التحكم في النفس، والاحتيال على النفس؛ عندها ينشأ النموذج الخارق للمعهود، الساحر والعصيّ على الفهم لأولئك الرجال الغامضين المنذورين للنصر وغواية العالم، الذين اتخذوا أجمل صورة مجسدة لهم في ألسيبيادس وقيْصر (والذين أضيف إليهم بكل سرور ذلك الأوروبي *الأول* الموافق لذوقي، فريدريش الثاني من آل هوهنشتاوفن)، وربما ليوناردو دا فينشي من بين الفنانين. وقد كان ظهورهم جميعهم في تلك العصور نفسها التي ظهر فيها النمط الواهن بتطلّعه إلى الراحة، واحتل مقدمة المشهد: إن كلا النموذجين مكملان واحدهما للآخر وينشآن عن نفس الأسباب.(٢٣)

201

طالما تظل النفعية سائدة داخل الأحكام القيَمية الأخلاقية، والنفعية القطيعية حصراً؛ وطالما يظل النظر مركزا على حفظ بقاء

(*) «سَبْت السبوت» عند الأنبا مرقس الناسك مثلا : هو راحة النفس العاقلة الحكيمة، التي تسحب العقل خارجا، حتى من الكلام المقدس المخبأ سرا في المخلوقات؛ وفي بهدة الحب تلبسه رداء إلهيا فقط، حتى أنه بواسطة معرفة الله السريّة تجعل النفسُ العقل متحداً بالله اتحاداً كليًا..

المجموعة دون غيره، وتقصّي اللاأخلاقي داخل الدائرة الحصرية لما يبدو مضراً بتماسكها، فلن يكون هناك من وجود لـ«أخلاق محبّة القريب». وإذا ما افترضنا أن هناك أيضا قدراً يسيراً من ممارسة المراعاة، والشفقة، والعدالة، واللين، والتعاون المتبادل؛ وإذا ما افترضنا أن كل تلك الغرائز التي ستشرَّف فيما بعد باسم «فضائل» لتصبح بالنهاية مرادفاً لمفهوم «الأخلاقية» كانت تشتغل داخل هذا الوضع المجتمعي، فإنها ستظل مع ذلك بعيدة عن أن تكون مما ينتمي إلى مجال التقييمات الأخلاقية؛ -فهي ما تزال *خارجة عن نطاق الأخلاق*. إن عملاً مُشفِقاً مثلا، لا يسمى في العصر الذهبي للحضارة الرومانية لا خيراً ولا شرًّا، لا أخلاقيًا ولا لاأخلاقيًّا؛ وإذا ما تم الإطراء عليه فسيكون عليه أن يتحمل ذلك الإطراء كضرب من الاستنقاص غير المقصود حالما يتم ربطه بما يتجه إلى خدمة الجمهورية في مجملها. وبالأخير فإن «محبة القريب» شيء ثانويّ دوماً، وفي جزء منه شيء تقليديّ وإرادي في ظاهره مقارنة بـ*الخوف من القريب*. وعندما تبدو بنية المجتمع في مجملها وقد ثبتت وتمتّنت وغدت محصنة من الأخطار الخارجية، فإن ذلك الخوف من القريب هو الذي سيخلق منظورات جديدة للتقييمات الأخلاقية. فبعض الغرائز القوية والخطيرة مثل روح المبادرة، والجسارة الجنونية، ورغبة الانتقام، والاحتيال، وحبّ الاستيلاء، والتوق إلى التسلط، التي كانت حتى تلك اللحظة لا تحظى في ظل اعتبارات المصلحة العامة بالإكبار فحسب -تحت مسمَّيات أخرى طبعاً غير هذه التي اخترتها هنا-، بل كان لابد من الحرص على تربيتها وتنميتها (لأن الحاجة إليها كانت ملحة لمواجهة المخاطر التي تتهدد الجميع من عدو مشترك للجميع)، تلك الغرائز القوية والخطيرة ستبدو على قدر مضاعف من القوة

والخطورة الآن، حيث لم يعد هناك من وجود لقنوات تصريفها القديمة، وشيئا فشيئا ستُدمغ بطابع اللاأخلاقية وتصبح مستباحَة للافتراء والتشويه. الآن أتى دور الغرائز المناقضة لكي تحظى بالتمجيد الأخلاقي، وغريزة القطيع تتقدم خطوة خطوة نحو استخلاص النتائج. كم من الخطر على المجموعة وعلى المساواة يكمن في فكرة مّا، في حالة وأحاسيس بعينها، في إرادة ما، وفي موهبة ما: ذلك هو المنظور الأخلاقي للتقييم الآن. لكن الخوف يظل أب الأخلاق هنا أيضا، فعندما تندفع الغرائز الراقية والأكثر قوة بالطاقة العالية للشغف، وتدفع بالأفراد خارجا عن القطيع وإلى ما فوق متوسّط ومتدنّي وعيه القطيعي، عندها يتزعزع الإحساس الذاتي للمجموعة، وينهار إيمانها بذاتها وينكسر معه العمود الفقري لكيانها: لذلك السبب بالذات تصبح تلك الغرائز هدفاً مبجلاً لأقسى حملات التشويه والتشنيع. تغدو العقلانية الراقية وإرادة التفرّد، والعقل الفذ كلها بمثابة الخطر؛ وكل ما من شأنه أن يُميز الفرد ويرفعه فوق مستوى القطيع، ويثير خوف الآخرين يسمّى بدايةً من تلك اللحظة *شرًّا*، بينما تصبح روح التسامح والتواضع والانصياع والمساواة والرغبات القنوعة *المحدودة* هي التي تحظى بألقاب الأخلاقية والشرف. وأخيراً، تغدو الأوضاع المسالمة مفتقرة أكثر فأكثر إلى الدواعي والحاجات الدافعة إلى تربية حسّ الصرامة والشدة، وعندها تصبح أبسط أنواع الصرامة، حتى في العدل، شيئا مزعجاً للضمير: كل نبالة سامية وقاسية، وحتى روح المسؤولية نفسها تصبح جارحة تقريباً وتوقظ الارتياب، بينما الخروف، أو بالأحرى «الكبش» هو الذي يشهد ارتفاع رصيده من الاحترام. هناك لحظة من الترهّل والتليّن المرَضي في تاريخ المجتمع، يغدو فيها هذا الأخير مقبلا طوعا على الانحياز بحديّة وبصدق حتى

إلى المضر به، إلى *المجرم*؛ ويتراءى له عندها العقاب أمراً غير عادل من جهة ما، إذ من المؤكد أنّ تصوّر «العقاب» و«وجوب العقاب» يؤلمه ويخيفه: «ألا يكفي أن نجعل من الفرد شخصا غير خطير؟ لِم العقاب إذًا؟ فالعقاب في حد ذاته شيء مخيف!» -بهذ السؤال تستخلص أخلاق القطيع، أخلاق الخوف استنتاجها النهائي. وإذا ما افترضنا أنه بإمكاننا أن نلغي الخطر أصلا، أي سبب الخوف، فسنكون قد ألغينا في الآن نفسه هذه الأخلاق أيضا: إذ ستصبح غير ضرورية، وتكون هي *التي جعلت نفسها* شيئا لا موجب له! ومن يختبر ضمير أوروبيي العصر الحاضر، سينكشف له من كل زوايا ومخابئ الأخلاق نفس الأمر الملزِم: ملزِم الخوف القطيعي: «نريد ألاّ يصبح لنا شيء نخافه في يوم ما!» -في يوم ما! إن الإرادة، والطريق المؤدية إلى هذا الـ«يوم ما» تدعى اليوم في أوروبا بـ«التقدم».

202

لنقلها مرة أخرى[٢٤]، مكررين ما قلناه مئة مرة في ما مضى، إذ لا يبدو أن الآذان مقبلة اليوم على سماع مثل هذه الحقائق -حقائقنا نحن-. ونحن نعلم جيّداً كم يمكن أن يكون مهيناً أن يعمد أحد ما، دون ملاطفة في التعبير أو مجاز، إلى وضع الإنسان في خانة الحيوانات؛ غير أن ما يُحسب علينا كجرم تقريباً هو أننا في كلامنا عن إنسان «الأفكار الحديثة» بالذات نستعمل بصفة مستمرة عبارات من نوع «قطيع» و«غرائز قطيعية» وما شابهها. ما العمل؟ إذ لا خيار لنا في ذلك: فهنا بالذات تكمن رؤيتنا الجديدة. لقد وجدنا أن أوروبا كلها، وكل البلدان الواقعة تحت تأثيرها أيضا أصبحت مجمعة على كل الأحكام الأخلاقية: غدا واضحاً أننا صرنا نعرف ما كان سقراط يقرّ بأنه

لا يعرفه، وما زعمت تلك الحيّة العجوز الشهيرة أنها تُعلّمه، -صرنا «نعرف» اليوم ما الخير والشرّ. والآن سيصبح مما تستثقله الأذن وتمجه الأسماع أن نظل نعيد ونكرر التأكيد بأن الذي يعتقد هنا أنه يعرف، والذي يمجّد نفسه ويعجب بنفسه هنا من خلال المديح والعتاب، إنما هي غريزة القطيع البشريّ، تلك الغريزة التي أنجزت ظهورها وحققت تفوقها وسيادتها على الغرائز الأخرى، وما زالت تواصل تحقيق المزيد يوماً بعد يوم وفقا لسيرورة التقارب والتشابه الفيزيولوجية، -وتمثل هي عرَضاً من أعراضها. *الأخلاق في أوروبا اليوم هي أخلاق القطيع*: أي أنها، وبحسب فهمنا للأشياء، ليست سوى نمط محدد من الأخلاق الإنسانية، إلى جانبها، وخلفها، وأمامها أنماط أخرى كثيرة، أنماط أخلاقية *أرقى* خاصة، ما تزال ممكنة أو ينبغي أن تكون ممكنة. غير أن هذه الأخلاق تقاوم وتصارع بكل قواها ضد هذه «الممكنة» وهذه الـ«ينبغي أن»: وتقول وتردد بإصرار عنيد: «أنا الأخلاق، وما من أخلاق أخرى هناك!» -ويتم ذلك بمساعدة ديانة تستجيب إلى أسمى رغبات القطيع وتجاريها، إلى حد أنه أصبح بإمكاننا أن نجد داخل المؤسسات السياسية والمجتمعية نفسِها تعبيراً بيّناً عن هذه الأخلاق: والحركة *الديمقراطية* هي وريث المسيحية[٢٥]. غير أن نسقها ما زال يبدو مفرط البطء والتثاقل بالنسبة للمتعجّلين والمرضى ومدمني الغريزة المذكورة، وذلك ما يعبر عنه الصراخ المتكرر الذي يزداد حنقاً، وصرير الأسنان الذي بالكاد يخفي نفسه لدى الفوضويين، تلك الكلاب المتسكعة اليوم في أزقة الحضارة الأوروبية، في تعارض على ما يبدو مع الديمقراطيين المسالمين والجادين في العمل، والمنظرين الثوريين، وتعارضٍ أكثر مع المتفلسفين المغفلين ودعاة الأخوة المتحمسين الذين يسمون أنفسهم بالاشتراكيين وينادون بـ«مجتمع حرّ»،

لكنهم في الحقيقة موحّدون جميعهم في عدائهم الجذري والغريزي لكل شكل مجتمعي آخر غير مجتمع القطيع السائب (عداء يمضي حدّ رفض فكرة «السيّد» و«الخادم»-: «لا ربّ ولا سيّد»، يعلن أحد الشعارات الاشتراكية)؛ متحدون في المقاومة الشرسة ضد كل طموح خصوصي، وكل حق خصوصي، وكل امتياز (بما يعني بالنهاية ضد *كل حق*: إذ عندما يتساوى الجميع، لن تكون هناك من حاجة إلى «حقوق»)؛ متحدون في الارتياب تجاه العدالة القمعية (كما لو أنها اعتداء على الضعفاء، ومظلمة في حق كائن هو نتاج حتمي للمجتمعات السابقة)؛ لكنهم موحّدون أيضا حول ديانة الشفقة، وحول التعاطف مع كل من يحسّ، يحيا، ويتعذّب (نزولا حتى الحيوان، وصعوداً حتى الله؛-والإفراط في «الشفقة على الله» من مكوّنات *عصر* ديمقراطي هي أيضاً)؛ ومتحدون جميعهم حول صرخة الضيق المشفقة، وحول الحقد الأعمى على المعاناة عموماً، في عجز شبه أنثوي عن الاكتفاء بمشاهدة المعاناة وعن *فسح المجال* للمعاناة؛ موحّدون حول القبول بتلك الكآبة والميوعة القسريّة التي تبدو كما لو أنها تتهدد أوروبا بشبح بوذية جديدة؛ موحَّدون في الإيمان بأخلاق الإشفاق *الجماعي*، كما لو أنها الأخلاق في ذاتها، والقمة النهائية التي بلغها الإنسان، والأمل المستقبلي الوحيد، وعزاء الحاضر، والتكفير الأعظم عن ذنوب الماضي: -موحّدون جميعهم حول الإيمان بالمجموعة *كمخلِّص*، بالقطيع إذًا، -بـ«أنفسهم».

203

نحن الذين لنا إيمان آخر-، نحن الذين لا نرى في الحركة الديمقراطية شكلاً من أشكال انحطاط التنظيم السياسي فحسب، بل

انحطاطاً؛ أعني بذلك شكلا لتصغُّرِ الإنسان وتردّيه، وحطّا من قيمته؛ إلى أين ستتجه آمالنا؟[٢٦] -نحو *فلاسفة جدد*، لا خيار لنا غير هذا؛ نحو عقول قويّة وأصيلة بما فيه الكفاية من أجل الشروع في إجراء تقييمات مناقضة، وقلب «القيم الأبدية»؛ نحو الطلائع، نحو رجال المستقبل، الذين يُحكمون في الحاضر ربط عقدة الإكراه والحتمية التي سترغم آلاف السنين القادمة على السير على طرق *جديدة*. أن يُعلَّم الإنسان أن مستقبل الإنسان هو *إرادته*، وأنه رهْن إرادة إنسانية؛ وأن تتمّ التهيئة لمغامرات كبرى ولتجارب عمومية في التأديب والتربية، ليوضع بذلك حدّ للسيادة الشنيعة للسخافة والمصادفة التي ظلت تُدعى «تاريخا» حتى الآن، ولم تكن سخافة «السواد الأعظم» سوى شكلها الأخير: إنه الغرض الذي سيخلق في يوم ما الحاجة إلى نوع جديد من فلاسفة وقادة سيتراءى كل ما ظل قائما على الأرض من أرواح خفية شنيعة ورحيمة باهتا وحقيرا أمام صورتهم. صورة هؤلاء القادة هي التي تحوم الآن أمام أعيننا، -هل تسمحوا لي بأن أعلن عن هذا جهراً، أيها المفكرون الأحرار؟ أما عن الشروط التي ينبغي علينا أن نهيئها، والجزء الآخر منها الذي علينا أن نستغلّه؛ والطرق والتجارب التي من المفترض أن تسمح لنفسٍ بالنمو وبلوغ ذروتها وقمة عنفها كي تشعر بالقوّة المرغِمة لهذه المهمات؛ قلبُ القيم التي سيُصهر داخله وتحت مفعول ضغطه ومطرقته وعيٌ جديد فولاذي وقلبٌ بصلابة البرونز مما سيجعله قادراً على تحمّل العبء الذي تلقي به عليه هذه المسؤولية؛ ومن جهة أخرى، ضرورة وجود أولئك القادة، والخطر المفزع المهدِّد، خطر احتمال عدم قدومهم، أو أن يخفقوا في مهمتهم، أو يطالهم الانحراف والانحطاط: -تلك هي *مشاغلنا وهمومنا* الحقيقية كما تعلمون ذلك جيّداً، أيها المفكرون الأحرار! وتلك هي أفكارنا البعيدة القاتمة

والسحب الثقيلة التي تعبر سماء *حياتنا*. فليس هناك من ألم أشدّ من أن ترى أو تشعر أو تحزر بأن رجلا قد انحرف عن دربه وانحطّ. غير أن من كانت له العين النادرة لكي يبصر الخطر العام *لانحطاط* «الإنسان» نفسِه، مَن استطاع، على غرارنا نحن، أن يدرك لعبة الصدف الشنيعة التي ظلت حتى الآن تتحكم بمستقبل الإنسان، -لعبةٌ لا يدَ، ولا حتى إصبعَ لله فيها! -، والذي استطاع أن يحزر القدر المشؤوم الكامن في السذاجة السخيفة والثقة العمياء في «الأفكار الحديثة»، بل وأكثر منها في الأخلاق المسيحية الأوروبية، -ذاك يتعذّب بمخاوف ليس لها من مثيل. فهو يدرك من نظرة واحدة ما الذي مازال بالإمكان *تربيته وتنميته في الإنسان* إذا ما تهيّأ لذلك تجميعٌ وإنماءٌ للطاقات والمهمات الملائمة؛ يدرك بكل ما لديه من وعي كم ما يزال لدى الإنسان من إمكانيات كبرى لم تستنفد بعد، وكم عرف النوع الإنساني من الحالات التي وجد نفسه فيها يقف أمام قرارات غامضة ودروب جديدة؛ ويعرف أفضل المعرفة بفضل ذاكرته المتخمة بالعذابات أيَّ صغائرِ الأشياء هي التي كانت حتى الآن سبباً معتاداً في جعل إنسانٍ في خضم صيرورة الصعود إلى أرقى منزلة ينكسر ويتحطم، ويقع إلى الحضيض والحقارة. إن *الانحطاط الشامل للإنسان* هبوطاً حتّى منزلة ذاك الذي يتراءى اليوم للمغفلين الاشتراكيين والعقول المسطحة «إنسانَ المستقبل» الذي يحلمون به -مثلَهم الأعلى-، إن انحطاط الإنسان وانحساره في منزلة حيوان القطيع (أو في إنسان «المجتمع الحر» كما يقولون)، حيْونةَ الإنسان التي تجعل منه نوعاً حيوانيا ضئيلا بحقوقٍ وطموحات متساوية أمرٌ *ممكنٌ*، ما من شك في ذلك! ومن مضى مرة بتفكيره في هذه الإمكانية حتى النهاية يعرف اشمئزازاً لا يعرفه غيره -ولعله يعرف أيضاً *مهمّة* جديدة! -

الفصل السادس

نحن العلماء

204

وبالرغم مما هناك من خطر أن تبدو عادةُ الوعظ هنا أيضاً، كما كانت عليه دوماً، إصراراً عنيداً على إظهار الجراح الشخصية، حسب عبارة بلزاك(*)-، فسأجازف بالاعتراض على قلبٍ للمراتب غير لائق ومضر نراه ينزع اليوم بسلاسة ودون أي حرج إلى الاستقرار في سلّم التراتب الذي يحدد موقعيْ العلم والفلسفة. أعتقد أننا، وبما في رصيدنا من تجربة- والتجربة، كما يبدو لي، تعني دوماً تجربة سيئة؟- في موقع يخوّلنا من الحق في الإدلاء بدلونا في مثل هذه المسألة الهامة التي تتعلق بالتراتب؛ كي لا نتكلم كالعميان عن الألوان، أو كالنساء والفنّانين ضد العلم («أفّ، يا لهذا العلم اللعين!» هكذا يتنهد حياؤهم وغريزيتهم، «إنه يفلح دوما في *كشف المخفيّ*!»). إن إعلان استقلال رجل العلم وتحرره من سيطرة الفلسفة، هو إحدى لطائف مخلّفات النظام واللانظام الديمقراطي: فالإدعاء والتمجيد الذاتي يعرفان اليوم كامل ازدهارهما وقمة ربيعهما لدى رجل العلم في كل مكان؛-غير أن

(*) ترد هنا بالفرنسية: montrer ses plaies

هذا لا يعني أنّ مديح الذات في هذه الحالة يفوح برائحة زكيّة! «لننعتق من سلطة كل الأسياد!» -ذلك هو نداء غريزة الرّعاع هنا أيضا؛ الآن وقد أفلح العلم في التصدي بنجاح إلى سلطة اللاهوت بعد أن كان «خادمة» بيته لزمن طويل، هو ذا الآن، وبكل غرور وطيش، يريد أن يفرض قوانينه على الفلسفة ويصبح هو الذي يلعب دور «السيّد» -دور ماذا؟ - دور *الفيلسوف*. ذاكرتي -ذاكرة رجل علم، بعد إذنكم!- تعجّ بسخافات الغرور التي سمعتها تتردد حول الفلسفة على أفواه باحثين شبّان وأطبّاء متقدمين في العمر (ناهيك عن أكثر العلماء تعلّماً وغروراً وهم الفيلولوجيّون ورجال التعليم الذين أكسبتهم مهنتهم هاتيْن الصفتيْن المميّزتيْن). فتارة كان رجل الاختصاص، ذو الأفق المحدود، هو الذي يتصدى غريزيّا لكل المهمات والكفاءات التوليفية عموماً؛ وتارة كان الشغّيل المجتهِد وقد اشتمّ رائحة العطالة والبذخ الأرستقراطي في نفسيّة الفيلسوف، رائحةً جعلته يحسّ بالحيْف وبالصّغَار؛ وتارة أخرى كان عمى الألوان لدى الرجل النفعيّ، الذي لا يرى في الفلسفة غير سلسلة من الأنظمة *المتهافتة* وتبذير «لا نفع فيه»؛ وأحيانا كان التخوّف من ضربٍ من الصوفية المقنّعة وحدودٍ تُضرَب على المعرفة هو الذي يحتلّ الصدارة؛ وأحيانا أخرى كان احتقار رهط من الفلاسفة هو الذي تحوّل لاإراديّا إلى احتقار معمَّم على الفلسفة في مجملها؛ وأخيرا، غالباً ما لمستُ في ما يبديه علماء شبّان من استعلاء على الفلسفة أثراً سيئا لفيلسوف قد تم الخروج عن طاعته، لكن دون الخروج عن مسلكه في التشهير بغيره من الفلاسفة وتحقيرهم، -ونتيجة ذلك: نفور شامل من مجمل الفلسفة. (وعلى هذا النحو يبدو لي تأثير شوبنهاور على ألمانيا الجديدة: لقد توصل بحنقه المتهوّر على هيغل إلى جعل الجيل الأخير من الألمان يقطع

الصلة بالثقافة الألمانية في مجملها، ثقافة، إن نظرنا إليها بعين الإنصاف، قد مثلت أرقى وأبهى ما توصلت إليه رهافة *الحس التاريخي*: غير أن شوبنهاور كان في هذه النقطة بالذات على قدرٍ من الضحالة والانغلاق والعدوانيّة واللاألمانيّة -حدّ العبقريّة). عموماً وإجمالا، يمكن أن تكون تلك الإنسانية المفرطة في إنسانيتها قبل أيّ شيء آخر، أو باختصار، فقر الفلاسفة أنفسهم هو الذي زعزع أسس مهابة الفلاسفة، وفتح الباب على مصراعيه للغرائز الرعاعيّة. ولا يسعنا سوى أن نقرّ بأن عالمنا الحديث قد غدا أبعد وأغرب ما يكون عن مجمل ذلك النوع الذي يمثله هيراقليطس، وأفلاطون، وإمبيذوقلس وغيرهم من تلك الفئة الملوكيّة الباذخة من قديسي العقل المتوحّدين؛ وسيكون من حقّ رجل علم مستقيم أن يرى نفسه اليوم من طينة أنبل ومنزلة أرقى، مقارنةً بمثل هؤلاء الممثّلين عن الفلسفة الذين غدوا اليوم، بموجب ما تقتضيه الموضة، مسيطرين على أعلى الساحة كما على أسفلها-ولنا هنا في ألمانيا على سبيل المثال نماذج من نوع أسَديْ برلين: الفوضوي أويجين دوهرينغ، والتلفيقي إدوارد فون هارتمان-. إن مشهد فلاسفة الخلط والتلفيق، هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بـ«فلاسفة الواقع» أو «الوضعيين» لَيثير الارتياب حقّا في نفس كل رجل علمٍ شاب مجتهد وطموح؛ وهؤلاء في أفضل الأحوال رجال علم واختصاصيون، وهذا واضح لا غبار عليه! -وهم في مجملهم مهزومون تمت *إعادتهم* للانضواء تحت راية العلم، وكانوا قد طرحوا على أنفسهم في وقت ما مهمة بلوغ *شيء أكبر*، دون أن يكون لهم ما يؤهلمهم لذلك الـ«أكبر» وما يفترضه من مسؤولية، -وهاهم يصبحون الآن، وبكل ما يحدوهم من جديّة وغيظ ورغبة في الانتقام، الممثلين بالكلمة والفعل *لعدم الإيمان* بالمهمة القيادية للفلسفة وسيادتها. وكيف

لهم ألاّ يكونوا على هذا الموقف بالنهاية؟ هاهو العلم يزدهر اليوم، وعلى سحنته تُلمح سمات الرضى عن النفس، بينما هذا الذي تدهورت إليه مجمل الفلسفة الجديدة، هذه البقايا الحالية من الفلسفة لا تجلب إليها سوى الارتياب والنفور، إن لم نقل الهزء والشفقة. إن الفلسفة، مختزَلةً في «نظرية المعرفة»، ليست في الحقيقة سوى نظرية خجولة للتبتّل ونبذ العالم؛ فلسفة لا تتجاوز العتبة وتحرم نفسها من حق الدخول على نحو مشين -إنها فلسفة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وهي نهايةٌ، واحتضارٌ: شيء يدعو إلى الشفقة. فكيف لمثل هذه الفلسفة أن -تسود؟

205

إن المخاطر المحيطة بتطور الفلسفة غدت على قدر من التعدد اليوم، مما يدفع بنا إلى الشك فيما إذا سيُكتب لهذه الثمرة أن تبلغ النضج في يوم ما. لقد اتسع محيط العلوم وارتفع برجها إلى أعال رهيبة، الأمر الذي سيجعل الفيلسوف يصاب بالتعب في مسيرته كمتعلِّم، أو يبحث لنفسه عن موقع استقرار في مكان ما ويسلِم نفسه لـ«التخصص»، بحيث لن يبلغ ذروته أبدا، أي ذلك الموقع الذي يخوّله من النظرة الشاملة، والنظرة المحيطة، والنظرة من *أعلى*. أو أنه يبلغها بعد فوات الأوان، أي عندما يكون أوج العمر والطاقاتِ قد غدا خلفه؛ أو يبلغها وقد نال منه العطب والخشونة والتدهور، مما يجعل نظرته وحكمه العام عديمة القيمة. ربما تكون رهافة ضميره العقلي هي التي تجعله يتردد، ويتلكّأ؛ تعيقه الخشية من الوقوع في غواية الهواية، وأن يغدو متنوّع الحِرف بألف يد وألف مجسّ، وهو يدرك جيّدا أن من فقد احترامه لنفسه لن يغدو بوسعه كعارف أن يأمر، ولا أن يقود. ولن

يظل أمامه عندها سوى أن يحلم بالتحول إلى ممثل، غاغليوسترو فلسفيّ وصائد أرواح، وفي كلمة: إلى محترف غواية. إنها بالنهاية مسألة ذوق، إن لم تكن مسألة ضمير. غير أن ما يضاعف من مشاكل الفيلسوف هو أنه يطالب نفسه بحكم، حكم بنعم أو لا، لا على العلوم، بل على الحياة وعلى قيمة الحياة، فيتعلم بموجب ذلك ورغماً عنه، أنه من حقه، أو بالأحرى من واجبه أن يمارس ذلك الحكم، ولا يتلمس طريقه نحو ذلك الحق إلا من جهة الوقائع الأكثر عمومية-ربما أسوأها وأكثرها ضرراً-، وغالبا بكثير من التردد والتشكّك والخجل الصّموت. وفي الحقيقة قد ظل عموم الناس لزمن طويل يجهل الفيلسوف ويخلط بينه وبين رجل العلم والعالِم المثالي حينا، والراهب المتبتّل «الزاهد في الدنيا»، المنتشي المولّه بشغف المحبة الإلهية حيناً آخر؛ وإذا ما سمعنا اليوم من يطري على شخص ما بأنه يحيا حياة «الحكيم»، أو مثل «فيلسوف»، فإن ذلك لا يعني أكثر من أنه «فطِنٌ حذِرٌ ومنسحب». فالحكمة تبدو في عين العامة ضربا من الهروب، وسيلة وحيلة للانسحاب من لعبة كريهة مهلِكة. غير أنّ الفيلسوف الحقيقي يحيا على نحو «لافلسفيّ» و«غير حكيم»، وعديم الفطنة خاصة- ألا يعدّ كذلك في نظرنا *نحن*، أيها الأصدقاء؟-، يحمل عبء وواجب مهمة القيام بألف تجربة والانسياق إلى ألف غواية مما تمنحه الحياة: - يخاطر بنفسه بلا انقطاع، ويلعب *اللعبة* المهلِكة. . .

206

مقارنة بالعبقري، أعني بذلك إما كائناً *يُخصّب* أو كائناً *يلد*، وذلك في المعنى الواسع للكلمتين، يكون العالِم، رجل العلم المتوسّط، دوماً أشبه بالعانس؛ إذ لا دراية له بالوظيفتين الأكبر قيمةً

في الإنسان. وفي الحقيقة لا يسعنا سوى أن نقرّ بالاعتبار للعالِم كما للعانس كتعويضٍ (مع الإلحاح على الاعتبار)، لكن ليس دون شيء من إكراه مرافق لهذا الاعتراف مع قدر مماثل من الامتعاض. لننظر الآن إلى الأمر بمزيد من الدقة: أيّ شيء هو رجل العلم؟ بدءا، هو إنسان من صنف غير نبيل، وبفضائل رجل غير نبيل، أي لا هو بسيّد، ولا هو بذي سلطة ولا حتى بذي اكتفاء بنفسه: من ميزاته الاجتهاد والانضواء بصبر داخل السرب والجسد الجماعي، والانتظام والاعتدال في المقدرة والحاجة، وله حسٌّ غريزي بالشبيه وبما يحتاج إليه ذلك الشبيه، مثلا تلك الرقعة الصغيرة من الاستقلال والمرج الأخضر، التي من دونها لا يكون هناك من اطمئنان في العمل، وذلك الحق في التشريف والاعتراف (وهو ما يفترض أولاً وأهم من كل شيء وجود معترِف، ومؤهّلات للاعتراف)؛ إنه ذلك الشعاع الشمسي الذي يلقيه الإسم والسمعة، وذلك التكريس المستمر لقيمته وفائدته، كشيء ضروري بفضله يستطيع التغلب دوماً وبصفة متكررة على *الارتياب* الخفيّ الذي يسكن أعماق قلب كل التابعين وكل دابة القطيع. وللعالِم أيضا، وكما هو معلوم، أمراضُ وعاهاتُ صنفٍ غير نبيل: غنيّ بمظاهر الحسد الصغيرة، وله عين يقظة على ما هو دنيء في تلك الطبائع النبيلة التي لا يستطيع الارتقاء إلى منزلتها. وهو أليف، لكن ألفةَ من يدع نفسه ينساق، لكنه لا يعرف *تدفّقاً*، وأمام ذوي المزاج المتدفّق بالذات، تجده بارداً مغلقاً، ويكون لعينه عندها هيأة بحيرة راكدة ممتنعة عن كل حركة لا يتموج على سطحها أي أثر لإعجاب أو تعاطف ما. إن أسوأ وأخطر ما يقدر عليه رجل علمٍ إنما ينبع من غرائز الرداءة التي تسكن نوعَه: من يسوعيّة الرداءة، التي تعمل غريزيا على إبادة الإنسان الخارج عن دائرة المعتاد والمألوف، وعلى كسر كل

قوس متوتّر، أو-من الأفضل- على إرخاء توتّره. ذلك أنّ الإرخاء بمداراةٍ وبيد رقيقة بطبيعة الحال، *الإرخاء* بإشفاقٍ أليفٍ هو الفن والبراعة الحقيقية لليسوعية التي كانت تتقن دوماً كيفية تقديم نفسها كديانة الشفقة والرحمة.

207

أيًّا كان امتناننا للعقل *الموضوعي* (ومن منا لم يعرف مرة واحدة على الأقل مللاً حدّ الغثيان من كل تلك الذاتيّة وما تحمله من تضخّم الأنا المقيت؟)، فإنه سيكون علينا مع ذلك أن نتعلم أولا الحذر تجاه الامتنان وكبح جماح الشطط الذي يزيّن لنا نكران الذات وتجرد العقل من ذاتيته اللذين يشاد بهما كغاية في ذاتها، وكخلاص وتحوّل روحانيّ؛ وذلك هو ما عهدنا حدوثه بصفة متكررة لدى أتباع مدرسة المتشائمين الذين لديهم أسبابهم التي تدفع بهم إلى تمجيد «المعرفة اللانفعية». إن الإنسان الموضوعي الذي لم يعد يلعن ويشتم، مثله مثل المتشائم، رجل العلم *المثاليّ* الذي استطاعت الغريزة العلمية لديه أن تنهض أخيراً وتتفتق بعد عثرات وكبوات وإخفاقات كاملة أو جزئية عديدة، ذاك الرجل الموضوعي أداةٌ من أثمن ما يوجد من أدواتٍ بكل تأكيد، لكنه يظل بحاجة إلى يدٍ شخص أكثر قدرة منه. إنه مجرّد أداة، ولنقل إنه مرآة، -وليس بـ«غاية في ذاته» بأي حال من الأحوال. والإنسان الموضوعي مرآة بالفعل: وكشخص معتاد على الانصياع لكل ما هو قابل للمعرفة، دون أية متعة أخرى غير تلك التي يجدها في أن يعرف، أي في أن يكون مرآة «تعكس» ذلك الذي يعرفه؛ ينتظر قدوم شيء ما، ثم يستلقي بهدوء، كي لا يفلت منه أي رفيف أو حركة لكائنات شبحية تنزلق بأقدام خفيفة على جلدته وفوق رأسه.

وكل ما يظل متبقّيًا لديه مما يعود إلى «الشخص» فيه سيبدو له شيئا عرضيًّا، واعتباطيّا أحيانا، ومزعجاً في أغلب الأحيان، لفرط ما أصبح بكليته مجرّد معْبر وانعكاس لكائنات ووقائع من خارجه. يحاول بعناء شديد أن يعود إلى ذاته، وبطريقة خاطئة في أغلب الأحيان. لا يفلح في تمييز نفسه عن غيره، فيخطئ في تحديد حاجياته الشخصية، ويغدو هنا بالذات غير دقيق ومهمِل. وربما كانت له معاناة من حالته الصحية ومن تفاهاتِ وضيقِ أفق الحياة مع زوجته وبين أصدقائه، أو من غياب الأصدقاء والعلاقات الاجتماعية؛ -أجل، تجده يرغم نفسه على التفكير في معاناته: لكن دون جدوى! فسرعان ما يطير به فكره بعيداً، نحو الحالات *العمومية*، وإذا هو في الغد على نفس القدر الضئيل لأمسه من المعرفة بما يمكن أن يساعده. لقد نسي كيف يأخذ نفسه مأخذ الجدّ، وكذلك الوقتَ الذي يلزمه لنفسه؛ وإذا ما رأيته منشرحاً فإنه يكون كذلك لا لغياب البؤس في حياته، بل لافتقاره للحس الجيّد ببؤسه وللقدرة على إدراكه. فتعوّده على القبول بكل شيء وكل حدث، ورحابة الصدر والتلقائية الودودة التي يستقبل بها كل شيء مما يعترضه، وذلك النوع من المودّة التي لا تعرف حدودا أو تمييزاً، واللامبالاة الخطيرة بمواقف القبول والرفض: وكم هناك للأسف من الحالات التي سيكون عليه فيها أن يدفع الثمن غالياً عن فضائله المذكورة هذه!-وسيجد نفسه كإنسان يتحول بسهولة فائقة إلى نفاية (caput mortuum) لتلك الفضائل. وإذا ما طُلب منه أن يحب ويكره؛ أعني حبّا وكراهية كما يفهم ذلك الله والمرأة والحيوان، فإنه سيفعل ما بوسعه ويمنح ما يستطيع. لكن لا ينبغي أن نستغرب إذا ما جاء ذلك على قدر ضئيل، وإذا ما بدا في ذلك مزيّفاً، هشًّا، مشبوهاً ورخواً. فحبّه متكلّف وكراهيته مصطنعة وأشبه بحيلة، بمغالاة وغرور

صغير. فهو لا يكون على حقيقته إلا حيث يحق له أن يكون موضوعيًّا: لا يكون «طبيعة» و«طبيعيًا» إلا في تعميمه السعيد. لم تعد روحه المرآتية (العاكسة) المملَّسة باستمرار قادرة على الإثبات ولا على النفي؛ لا يأمر، ولا يهدم، بل يردد قول لايبنتز «*Je ne méprise presque rien*»(*) -لا أكاد أحتقر شيئا»؛ فلا نغفلنّ ولا نقللنّ من أهمية هذه الـ«*presque rien* -لا شيء تقريباً»(**)! وهو لا يشكل أنموذجاً ولا يمثل قدوة لأحد، ولا يتبع أحدا أيضاً؛ ينسحب ويناى بنفسه عن كل شيء، أبعد مما يمكن أن يجعل لديه سببا مّا للانحياز للخير أو للشرّ. وإذا ما ظل لمدة طويلة من الزمن يعدّ بموجب خلْط من بين *الفلاسفة* ورجال العنف الثقافي وجرّاحي التربية والتكوين، فقد كان ذلك تكريماً وتمجيداً أكبر وأسمى بكثير مما يستحق، وعمى عما هو جوهريّ فيه: أي كأداة ونوع من عبد، وإن كان بلا شك من النوع الأسمى من العبيد، لكنه في ذاته لاشيء -*لاشيء تقريباً*

(*) ترد بالفرنسية في نص نيتشه والمقولة للايبنتز، وترد لديه أيضا باللغة الفرنسية. والمعروف عن لايبنيتز، الفيلسوف والقانوني وعالم الرياضيات أنه شديد الالتصاق بالثقافة الفرنسية، ويعد من حيث التنوع الكبير لاختصاصاته ومعارفه (الفلسفة والرياضيات والتاريخ والأدب، وحتى ما يتعلق بمجالات الصناعات والأعمال الحرفية)، يعد إذًا من طلائع الانسيكلوبيديين -أو أنسيكوبيدي سابق للعصر. وهذا بالذات هو ما يعيبه عليه نيتشه، كما على العلماء الذين يتحدث عنهم في هذه الفقرة، وهو الأخذ من كل شيء بطرف.

(**) كان من الممكن أن نترجم قولة لايبنيتز ترجمة شبه حرفية كما يلي: «لآ شيء تقريباً يمكنني أن أحتقره» كي نتمكن فيما بعد من استغلال عبارة «لا شيء تقريباً» في المعنى الساخر الذي وظفها له نيتشه (بما سمحت له به اللغة الفرنسية)، لكنني فضلت صياغة أسلم في اللغة العربية: «لا أكاد أحتقر شيئا»، وذلك على حساب اللعبة اللغوية المبجلة لدى نيتشه. هكذا تضعنا الترجمة غالبا أما التضحية التي يستوجبها الاختيار، -للأسف! (م)

presque rien! إن الإنسان الموضوعي أداة، أداة قياس ثمينة وسهلة الانكسار ومرآة بديعة ينبغي التعامل معها برفق وباحترام؛ لكنه ليس بغاية، ولا هو بنهاية ولا ببداية أو بمنطلَق، لا هو بالمتمِّم الذي يمنح بقيّة الوجود مبرّراً، ولا هو خاتمة، وأقل من ذلك بداية، وخلقاً وعلّة أولى، لا شيء فيه من خشونةٍ، وقوّةٍ، واستقلالية تريد السيادة؛ بل لا شيء أكثر من وعاء ليّن دقيق طيّع قابل لشتى التشكلات ينتظر محتوىً، صورةً تملؤه و«يتشكّل» بشكلها، -إنه عادة إنسان لا محتوى له ولا صورة، إنسان «غيريّ»؛ وبالتالي، لا يعني شيئا بالنسبة للمرأة أيضا -بين قوسين-.

208

عندما يدّعي اليوم فيلسوف بأنه ليس ريبيًّا -وأتمنى أن نكون قد استخلصنا العبرة مما طرحناه آنفاً حول العقل الموضوعي-، لا يجد لدى الناس جميعاً من أذن تريد أن تسمع هذا الكلام: ينظر المرء إليه بشيء من الوجل، ويريد أن يطرح عليه أسئلة وأسئلة... بل إن ذلك سيُعدّ أمراً خطيرا لدى المستمعين المتوجّسين، وكم هم كُثر في عصرنا هذا! يتراءى لهؤلاء من وراء نفيه الارتياب عن نفسه، كما لو أنهم يستمعون إلى دويّ ينذر بالخطر قادم من بعيد، كما لو أن مادة متفجّرة يتمّ تجريبها في مكان ما، عبوةَ ديناميت عقليّة، وربما عدميّةً روسية جديدة مكتشَفة للتوّ، تشاؤماً حسنَ النيّة لا ينفي قولاً فقط، ولا ينفي إرادةً فحسب، بل -ويا للتصور المرعب!- ينفي فعلاً. ولمواجهة هذا النوع من «حسن النيّة»- إرادة نفي حقيقيّة وفعليّة للحياة- ليس هناك اليوم من مسكّن أو مهدّئ أفضلَ من الريبة: ذلك الخشخاش الريبيّ الناعم المريح المهدهِد. بل إن هملت نفسه سيغدو اليوم وصفة

ينصح بها أطباء هذا العصر ضد «العقل» وهدير أغواره ودمدماته. «ألا يكفينا هذا الذي يملأ آذاننا الآن من أصوات شؤم كريهة؟»، يقول الريبي بوصفه صديقاً للهدوء ونوعاً من حرس أمن العقل؛ «إن هذه الـ«لا» المدمدمة في الأغوار مريعةٌ! لتصمتي الآن إذًا يا فئران الخُلْد!» فالريبي، ذاك الكائن الرقيق، يختنق بسهولة؛ وضميره قد تربّى على نحو يجعل فرائصه ترتعد، بل ويحسّ بعضّة موجعة أمام كل «لا»، بل وأمام كل «نعم» حاسمة وحادّة أيضاً. الـ«نعم» و الـ«لا» شيء مناف لأخلاقيته؛ وبالمقابل يعجبه ويروق التحفّظَ النبيلَ لفضيلته أن يردد مع مونتانيي: «ما أدراني؟» أو مع سقراط: «أعرف أنني لا أعرف شيئا»، أو: «لا أجرؤ، فما من باب مفتوح أمامي هنا»، أو: «وفرضاً أن الباب مفتوح، لِم ينبغي لي أن أدخل؟»، أو: «ما نفع كل الافتراضات المتسرّعة؟ ألاّ نقوم بافتراضات البتة، يمكن أن يكون بسهولة مما يوافق الذوق السليم. أينبغي عليكم في كل الأحوال أن تسارعوا إلى تقويم كل معوجّ؟ وأن تسدّوا بخرقة ما كل ثغرة؟ أليس لدينا متّسع من الوقت لذلك؟ أليس للوقت متّسع من الوقت؟ ألا يمكنكم أن *تنتظروا*، أيها الملاعين؟ فللاّيقين أيضا سحره، وأبو الهول هو أيضاً كيركا، وكيركا الساحرة أيضا كانت فيلسوفة.» -هكذا يعزّي الريبيّ نفسه؛ وهو حقّا في حاجة إلى شيء من العزاء. فالريبة هي التعبير العقلي عن تكوينة فزيولوجية مركّبة تسمى في لغة التبسيط العاميّ ضعفاً عصبيا وحالة سقم؛ حالة تنشأ في كل مرة يتم فيها على نحو فجئي وحاسم التقاءُ وتلاقح عرقين أو طبقتين اجتماعيتين ظلتا لزمن طويل منفصلتيْن. ولدى ذلك الجنس الجديد الذي يحمل في دمه موروثاً من معايير وقيم مختلفة يكون كل شيء قلَقاً واضطراباً وشكّا وتجريباً: أفضل الطاقات تفعل فعلَ العائق، والفضائلُ المختلفة تمنع بعضها من

النمو والتمتّن، وفي الجسم كما في النفس ينعدم التوازن ومركز الثقل والانتصاب الواثق على القدمين. غير أن أكثر ما سيكون أعمق اعتلالا وانحطاطا لدى هؤلاء الخلاسيين هي *الإرادة*: هؤلاء لا يعرفون استقلالية في القرار ولا متعة جريئة في الإرادة؛ إنهم يشكّون في إمكانية وجود «حرية إرادة» حتى في أحلامهم.(*) وقارتنا الأوروبية اليوم، وهي مسرح تجريب فجائي أحمق لخلط راديكاليّ للطبقات، وبالتالي للأعراق، قد غدت بسبب ذلك ربيّة من القاع إلى القمّة، بتلك الربية المتحركة حيناً، تلك التي تقفز قلِقةً وشهوانيّةً من غصن إلى غصن؛ والثقيلة القاتمة حيناً آخر مثل سحابة مشحونة أسئلةً، - وغالبا ما تتراءى وقد أصابها الملل من إرادتها، مللاً حدّ الموت! شلل الإرادة: فمن بوسعه أن يدلّني على مكان لا نلتقي فيه اليوم بهذا الكسيح! وبأيّة حلية غالباً! وبأية غواية في المظهر المتبرّج! فلهذا المرض أجمل ما يوجد من أزياء الأبّهة والمغالطة؛ وأغلب ما يُعرض في المتاجر العلمية اليوم على سبيل المثال كـ«موضوعية»، و«عقل علميّ»، و«فنّ للفنّ»، و«معرفة محض مستقلة عن الإرادة» ليست سوى ربيّةٍ وشلل إرادة مزوّقتيْن،-ههنا تشخيص للمرض الأوروبي أتبنّاه وأمنحه ضمانتي. إن مرض الإرادة هذا قد انتشر داخل أوروبا بدرجات متفاوتة، ويظهر على نحو أشدّ وأكثر تنوعا هناك حيث تكون الحضارة مستقرة منذ فترة طويلة من الزمن، وينزع إلى الاختفاء حيث ما يزال «الهمجيّ» -أو حيث عاد مجدداً إلى فرض حقه في الوجود تحت الرداء الفضفاض للحضارة الغربية. تبعاً لهذا فإن فرنسا

(*) يبدو نيتشه هنا كما لو أنه قليل المعرفة بأبسط مبادئ علم الأحياء والجينيتيقا (المترجم)

المعاصرة، كما يمكن أن نتوقع ذلك بسهولة وكما نستطيع أن نلمسه لمس اليد، هي البلاد التي تعرف الإرادةُ فيها حالة مرضها الأسوأ. وفرنسا التي كانت تتمتع دوماً ببراعة فائقة في تحويل حتى تقلّباتها الفكرية التي يمكن أن تكون مجلبة للمهالك إلى شيء ساحر له غوايته، تُبين اليوم، بوصفها مدرسة ومسرحاً لكل مفاتن الريبة وسحرها، عن تفوقها الثقافي على كل أوروبا. إن قوة الإرادة، وبصفة أدق استمرارية الإرادة وطول مداها، تبدو أقوى بقليل في ألمانيا، وأقوى منها في الشمال الألماني مما في ألمانيا الوسطى؛ لكنها أقوى بكثير في أنكلترا وأسبانيا وكورسيكا؛ مرتبطةً ببرودة الطبع لدى الأولى، وبالعناد لدى الأخيرتين؛ ناهيك عن إيطاليا، التي هي أصغر سنًّا من أن تستطيع أن تعرف ماذا تريد، وعليها أن تبرهن أولا على أنها تستطيع أن تريد،- غير أن الإرادة تعرف ذروة صلابتها وطابعها المدهش في تلك الامبراطورية الوسطية الهائلة الواقعة على التخوم التي تنسرب فيها أوروبا عائدة إلى آسيا: في روسيا. هناك ترقد طاقات الإرادة التي ظلت لزمن طويل مخزَّنة ومدّخَرة؛ هناك تقبع الإرادة - دون معرفة إذا ما كانت إرادة نفي أو إثبات- منتظرة على نحو مهدِّد أن يتمّ تفعيلها، كي نستعمل عبارة محببة لدى الفيزيائيين اليوم. وليست الحروب ضد الهند والتورط في قلاقل آسيوية كافية لوحدها كي تستطيع أوروبا أن تدرأ عنها المخاطر الكبرى التي تتهددها بسببها، بل لابد من زعزعة داخلية لتلك الإمبراطورية الوسطيّة وتفتيتها، وبصفة أخص أن يتم اعتماد الحماقة البرلمانية فيها وما يتبعها من قراءة الصحف عند الفطور كواجب شخصي لكل مواطن. لا أقول هذا كشيء أتمنى حصوله، بل إن عكس ذلك هو الأقرب إلى قلبي؛ أعني بذلك تنامٍ مستمر للتهديد الروسي يجعل أوروبا مرغمة على أن تصبح

بدورها على نفس القدر من الخطورة، أي أن *تنشأ لديها إرادة موحّدة* بواسطة طبقة مسيطرة؛ إرادة خاصة مُريعة ذات مدى زمني طويل تستطيع أن تحدد أهدافاً لآلاف السنين القادمة، وهكذا يتم وضع نهاية لتلك المهزلة الطويلة لتشتّت دويلاتها، ولذلك الشتات البائس لإرادات النظم المَلكية والديمقراطية داخلها. لقد ولّى عهد السياسة الصغرى: وهذا القرن القادم آت ومعه سيحل الصراع من أجل السيطرة على الأرض بكليتها؛ -قوة *الإكراه* الدافعة إلى السياسة الكبرى.[٢٧]

209

إلى أيّ مدى يمكن أن يكون العصر الحربي الجديد الذي يبدو أننا قد ولجناه الآن في أوروبا مؤاتياً لتطور نوع مختلف وأقوى من الريبيّة، فهذا ما سأكتفي مؤقتا بالتعبير عنه بواسطة مثَل يمكن لكل المولعين بالتاريخ الألماني أن يفهموه. إن ذلك المولع الكبير بالمُشاة الوِسام وطوال القامة، الذي أنجب بصفته ملكاً لبروسيا عبقرية عسكرية وريبية، وقد بعث إلى الوجود في الحقيقة بهذا النمط الجديد للألمانيّ الذي نراه يطلع ظافراً في عصرنا الحاضر؛ ذلك الأب الرائع وغريب الأطوار لفريدريش الأكبر كان له في *نقطة محددة* بعينها عين الخبير وحدسه السعيد: لقد أدرك ما الذي كان ينقص ألمانيا آنذاك، وحزر النقص الذي كان يراه أكثر خطراً وإلحاحاً بكثير من النقص في الثقافة وآداب السلوك المجتمعي؛ وقد كان نفوره من فريدريش الشابّ نابعاً عن خوف غريزي عميق. هناك *نقص في الرجال*، وكان يتوجّس بمرارة واستياء أن لا يكون إبنه رجلا بما فيه الكفاية. وقد كان مخطئا في ذلك؛[٢٨] لكن من تُراه سينجو من الخطأ لو كان مكانه؟ كان يرى إبنه واقعاً في سحر الإلحاد واللباقة الذهنية والظرْف وخفة المتعوية

لبعض العقول الفرنسية اللامعة(*)؛ كان يرى في خلفيّة تلك الميول مصّاصةَ الدماء الكبرى، رتّيلاء الريبية، وكان يخشى بؤسا لا برء منه يحل بقلبٍ لم يعد له ما يكفي من الصلابة للخير والشرّ، وإرادة منكسرة لم تعد تأمر، ولم تعد *تستطيع* أن تأمر. غير أن ما حدث هو أنْ نما عند الإبن ذلك النوع الجديد القاسي من الريبيّة، ومن يدري *إلى أي مدى* لم يكن ذلك بسبب وبدافعٍ من كراهية الأب بالذات، ومن خلال تلك السوداويّة الجليدية لإرادةٍ فُرض عليها الإقصاء والوحدة؟ -ريبية فحولةٍ جريئة، ذات قربى حميمة بعبقرية الحرب والغزو، قد عرفت ظهورها الأول في ألمانيا مجسّدة في فريدريش الأكبر(**). تلك الريبية التي تحتقر ومع ذلك تجذب وتأسر؛ تقوّض وتستولي؛ لا تؤمن، لكنها لا تضلّ؛ تمنح العقل حرية خطيرة، لكنها تظل ممسكة بزمام القلب بصرامة؛ إنها الشكل *الألماني* للريبية التي تمكنت، كامتداد لفريديرشيانيّة ارتقت إلى ذرى عقلية بعيدة، من أن تضع أوروبا لفترة طويلة من الزمن تحت سيطرة العقل الألماني وارتيابه النقدي التاريخيّ. وبفضل الطبع الفحولي الصلب والمتين للفيلولوجيين وخبراء النقد التاريخي (وجميعهم كانوا في حقيقتهم العميقة فنّانو هدم وتفكيك) استقرّ شيئا فشيئا وترسّخ، بالرغم من كل الرومانسية الشائعة في الموسيقى والفلسفة، مفهوم *جديد* للروح الألمانية احتلت فيه

(*) الإشارة هنا إلى فولتير والفلاسفة الفرنسيين بطبيعة الحال، وقد كان فريدريش الإبن مولعا بهم وبأفكارهم، ثم أصبحت تربطه فيما بعد علاقة صداقة متينة مع فولتير، الذي غدا شبه ملازم له في قصر Sans soucis بضاحية بوتسدام، بالقرب من برلين.

(**) فريدريش الأكبر هو فريدريش الإبن، (١٧١٢-١٧٨٦) ملك بروسيا من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦ ويسمى أيضا فريدريش الثاني ،وهو ابن فريدريش الأول.

الريبية الفحولية مرتبة الطبع المهيمن؛ سواء تجسد ذلك على سبيل المثال في جسارة النظرة وفي شجاعة وقسوة اليد المفكِّكة، أو في الإرادة المتينة الدافعة إلى رحلات الاستكشاف الخطيرة وإلى مغامرات بعثات القطب الشمالي تحت سماء قاسية كلها مخاطر. وقد يكون لذوي الطبع الإنساني اللين من ذوي الأرواح الفاترة والسطحية أسبابهم الوجيهة عندما يرسمون علامة الصليب فزعاً واستنكاراً أمام هذه الروح الفحولية المغامرة: روحاً قدريّة ساخرةً ميفيستوفاليّة يسميها ميشليه، ليس دون ذعر. لكن، إن نحن أردنا أن نتمثّل كم هو مشرّف هذا الخوف من «الفحل» في الروح الألمانية، ذلك الذي أيقظ أوروبا من «سباتها الدوغمائي»، لابد أن نتذكر المفهوم القديم الذي كان لابد من تجاوزه من خلال ذلك الفحل، -وأنه في زمن ماضٍ قريب كان بإمكان امرأة بطبع ذكوريّ سليط(*) أن تتجرأ بغرور جامحٍ لتوصي الأوروبيين بأن يكونوا شفوقين بالألمان كشعب من الوديعين الطيبين، ضعيفي الهمة، وذوي طباع شعراء مغفّلين. وسنفهم أخيراً بما يكفي من العمق دهشة نابليون وهو يرى غوته: دهشة مفاجأةٍ تفشي ما ظل الأوروبيون لقرون عدة يحملون من تصوّر عن «الروح الألمانية»: "Voilà un homme"(**)! -كان ذلك يعني: «هذا *رجل* بحقّ! وأنا الذي كنت أتوقّع أن أرى مجرّد ألمانيّ!»

(*) المعنيّة هنا هي مدام دي ستايل، روائية وفيلسوفة من أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين (Mme de Staël, *"De l'Allemagne"*)

(**) الكلمة التي قالها نابليون وهو يلتقي بغوته في إيرفورت Erfurt سنة ١٨٠٨. وكان غوته قد رفض قبل سنتين دعوة الالتقاء بنابليون وذلك على إثر هزيمة ينا (أو انتصار نابليون في ينا) سنة ١٨٠٦.
أنظر أيضا ما كتبه غوته في «الحوليّات» Annalen oder Tages und

ولنفترض إذًا أن سمة ما في صورة فلاسفة المستقبل تدفع بنا إلى التخمين بأنهم لابد أن يكونوا ريبييّن بالمعنى المشار إليه آنفاً، فلن نكون مع ذلك قد حددنا سوى شيء واحد فيهم، ولم نحدد مجمل هويّتهم. سيحقّ لهم أيضا أن يسموا نقّاداً؛ وسيصبحون بكل تأكيد من رجال التجريب. ومن خلال الإسم الذي تجرأت على تعميدهم به كنت قد أكدت بصريح العبارة على التجريب وحبّ التجريب لديهم؛ فهل حصل ذلك لأنهم، بوصفهم نقاداً قلبا وقالباً، كانوا يحبون ممارسة التجريب بمفهوم جديد، ربما بمفهومه الأوسع والأخطر على الإطلاق؟ وهل سيكون عليهم، بما يسكنهم من شغف بالمعرفة، أن يمضوا بتجاربهم الجريئة والمؤلمة أبعد مما يمكن أن يستسيغه الذوق الفاتر والمميَّع لهذا القرن الديمقراطي؟ -من المؤكد أن آخر ما يمكن أن يستغني عنه هؤلاء المستقبليون هي الصفات الجدية والتي لا تخلو من مخاطر، التي تميّز العقل النقدي عن الريبيّ؛ أعني بذلك وثوقَ التقدير القيَمي والاستعمال الواعي لوحدة منهجية، والشجاعة النبيهة، والقدرة على الوحدة وعلى تحمّل مسؤولية ما يقومون به؛ أجل، إنهم يقرّون لأنفسهم *بالمتعة* التي يجدونها في الرفض والتفكيك وفي ضربٍ من الشناعة الرصينة التي تجيد معالجة السكين والمشرط بوثوق ودقة، حتى عندما يكون القلب دامياً. سيكونون *أكثر* قسوة (وربما ليس مع أنفسهم فقط)، أكثر مما يمكن أن يرغب فيه الإنسانيون، ولن يسعوا في طلب الحقيقة كي تمنحهم ما «يسرّهم»، أوكي «ترفع من شأنهم» و«تغمرهم

Jahresheft: «بعد أن نظر إليّ بتمعّن قال: «أنت رجل» (Vous êtes un homme)، فانحنيت.» أما العبارة التي يوردها نيتشه هنا (Voilà un homme) – «هذا رجل»، فهي التي قالها نابليون على إثر المحادثة مع غوته.

نشوة» ؛ بل سيتضاءل إيمانهم بأن *الحقيقة* من شأنها أن تجلب معها مثل هذه اللذائذ للمشاعر. وسيبتسم أصحاب هذه العقول الصارمة إذا ما قال أحدٌ أمامهم: «هذه الفكرة تسمو بي، فكيف لا تكون حقيقة؟» أو: «ذاك العمل يسحرني، فكيف لا يكون جميلا؟» أو: «هذا الفنّان يثير في إحساساً بالعظمة، فكيف لا يكون عظيماً؟». ربما لن تندى عنهم ابتسامة فحسب، بل سيكون لهم اشمئزاز حقيقي أمام كل ما شابه ذلك من الحماسيات والمثاليات وشتى ضروب التأنّث والتخنّث. وكل من اطّلع على الأغوار القصيّة لقلوبهم، سيصعب عليه أن يعثر فيها على نيّة في التوفيق بين «المشاعر المسيحية» و«ذوق العصور العتيقة»، بل بينها وبين البرلمانية «الحديثة» أيضاً (على غرار ما نجده من توفيقية لدى فلاسفة من هذا القرن الذي ينقصه الوثوق والثبات، وينزع بالتالي كثيراً إلى المصالحة). إن التربية النقدية وكل تعوّد يقود إلى النقاوة والصرامة في مسائل الفكر لن تكون شيئا يطالب به هؤلاء الفلاسفة المستقبليين أنفسهم فحسب؛ بل سيتحلّون بها ويستعرضونها مثل حليتهم الخاصة، -ومع ذلك لن يرغبوا في أن يسمّوا أنفسهم بسبب ذلك نقاداً. وستبدو لهم إهانة غير هيّنة للفلسفة إذا ما أُعلِن، كما يحلو للكثيرين أن يعلنوا اليوم، بأن «الفلسفة نفسها نقد وعلم نقديّ -ولا شيء سواه!» ولربما سيحظى هذا التقدير التقييمي للفلسفة بتأييد كل الوضعيين في فرنسا وألمانيا (ولعله قد داعب قلب وذائقة كنط نفسه: لنتذكر فقط عناوين مؤلفاته الأساسية(*))، إلاّ أنّ فلاسفتنا الجدد سيقولون مع ذلك: النقاد أدواةٌ في خدمة الفيلسوف، ولذلك فهُم بوصفهم أدواة أبعد عن أن

(*) الإشارة هنا إلى ثلاثية كنط الشهيرة: «نقد العقل المحض»، «نقد العقل العملي»، «نقد ملكة الحكم».

يكونوا فلاسفة بدروهم! ولم يكن صينيّ كونيكسبيرغ(*) الكبير هو أيضاً سوى ناقد كبير. -

211

سأظل مصرّا على ضرورة أن نكف أخيراً عن الخلط بين عمَلة الفلسفة ورجال العلم عموما، والفلاسفة؛ -وأن نحترم هنا بالذات احتراماً صارماً مبدأ «لكلٍّ ما يعود إليه من حقّ»، فلا نمنح هؤلاء أكثر مما يستحقون، ولا أولئك أقلّ بكثير مما يحق لهم. لعله من الضروري لتربية الفيلسوف الحقيقي أن يكون قد مرّ بدوره بنفس المراحل التي توقّف عندها خدمه من العاملين في الحقول العلمية، ولم يتجاوزوها -ولابد أن يظلوا متوقّفين عندها؛ ولعلّه من الضروري أن يكون قد عرف بدوره مرحلة كان فيها ناقداً وريبيّا ودوغمائيًّا، وشاعراً علاوة على ذلك ومجمِّعاً ورحّالة وفكّاك ألغاز وداعية أخلاقيًّا ورائيًا و«عقلا حرًّا»، وكل شيء تقريباً، كي يجتاز كلّ مراحل دائرة القيم والمشاعر القيَمية الإنسانية، ويسصبح بمستطاعه أن ينظر بأعين وضمائر متعددة؛ من الأعالي باتجاه كل الأفُق البعيدة، ومن الغوْر باتجاه كل قمّة، ومن الزاوية الضيّقة باتجاه المدى الفسيح. غير أن هذه كلها شروط أوليّة لمهمته؛ أما مهمته نفسها فتتطلب شيئا آخر: إنها تقتضي منه أن يبتكر قيَماً. وكل أولئك العمَلة الفلسفيّين من الطراز

(*) المقصود هنا هو كنط كما يحب ان يسميه نيتشة، ويعني بذلك أنه كونفشيوسي ألماني، باعتبار منهجه الفلسفي الذي يرى فيه علامة انحطاط وانغلاق داخل الرؤية الأخلاقية، وانعزال عن الواقع المحيط به على غرار الصين التي كانت في حال من التقوقع والعزلة خلال القرن التاسع عشر بسبب انغلاقها داخل قوقعة المنظومة الفكرية والأخلاقية الكونفيشوسية المعادية لكل تفتح. (م)

الرفيع لكنط وهيجل لديهم مخزون هائل من القيم والتقييمات، -أي من تقييمات ومبتكرات قيَميّة سابقة قد غدت مسيطرة وظلت لقرون عدة تسمى «حقائق»- ينكبون على ضبطها وحصرها في مقولات، في المجال *المنطقي*، أو *السياسي* (الأخلاقي)، أو *الفنيّ*. إن مهمة هؤلاء الباحثين تتمثل في النظر في كل ما حدث وما قُيّم حتى الآن والعمل على جعله مرئيًا، معقولا، ملموساً ومتيسراً للمعالجة، وعلى اختزال كل طويلٍ، بما في ذلك «الزمن» نفسه، *والسيطرة* على الماضي بكليته: مهمة هائلة ورائعة بإمكان كل كبرياءِ مرهفةٍ وكل إرادةٍ متينة أن تجد ما يرضيها في خدمتها. *غير أن الفلاسفة الحقيقيين رجال آمرون وواضعو قوانين*: هم الذين يقولون «هكذا ينبغي أن يكون!»، يحدّدون للإنسان الـ«إلى أين؟» و«لأي غرض؟» ويستعملون لهذا الغرض العملَ التحضيري الذي أنجزه العمَلة الفلسفيّون، كل المسيطرين على الماضي؛- يمدون يداً مبدعة نحو المستقبل، وكل ما هو كائن وما كان يصبح وسيلة وأداة في يدهم، ومطرقةً. سعيهم إلى «المعرفة» خلْقٌ، وخلقهم سَنُّ قوانين؛ وإرادة المعرفة لديهم *إرادة قوة*. -هل يوجد اليوم مثل هؤلاء الفلاسفة؟ وهل وُجد فلاسفة من هذا النوع في ما مضى؟ ألا *ينبغي* أن يوجد مثل هؤلاء الفلاسفة؟ . . .

212

يبدو لي أكثر فأكثر أن الفيلسوف، بوصفه رجلا ضروريا للغد وما بعد الغد، كان يجد نفسه دوما في تناقض مع زمنه، بل *وكان عليه* أن يكون كذلك: فالمثل الأعلى للحاضر كان عدوّه الدائم. هؤلاء الرجال الخارقون الساهرون على تطوّر الإنسان، الذين نسميهم فلاسفة، ونادرا ما نظروا لأنفسهم كأصدقاء للحكمة، بل كان لهم بالأحرى إحساس

بأنفسهم كحمقى مزعجين وألغاز خطيرة، -هؤلاء قد وجدوا مهمتهم القاسية اللاإرادية والمحتومة في أن يكونوا الضمير القلِق لعصرهم. ولكونهم يُحكمون المشرط في صدر *فضائل* عصرهم بالذات، يفشون السرّ الذي في أعماقهم: علمهم بعظمةٍ جديدة للإنسان، وبدرب غير مطروق بعد يؤدي إلى نموّه. وفي كل مرة يكشفون للعالم ما يُخفيه النمط الأخلاقي الموقَّر لعصرهم من رياء وتساهُل وتسيّب وإهمال، ومن كذب، وكم من الفضائل أفلحت في البقاء والاستمرار؛ وفي كل مرة يقولون: «علينا أن نمضي إلى هناك، أن نمضي خارجاً، إلى حيث تكونون أكثر غربة في هذا العصر». وأمام عالَم «الأفكار الحديثة» الذي ينزع إلى حشر كل فرد في زاوية محددة واختصاص بعينه، سيجد الفيلوسوف نفسه-إذا ما كان وجود فلاسفة ممكنا في عصرنا هذا- مضطرا لأن يطرح عظمة الإنسان ومفهومَ «العظمة» في شموليّته وتنوّعه، وفي كليته وكثرته: بل وسيحدد القيمة والمراتب أيضاً وفقاً لكمٍّ ونوعِ ما يستطيع كل فرد أن يتحمل، ولمدى قدرته على توسيع مساحة مسؤوليته. فذوق العصر وفضيلته تُضعف اليوم الإرادة وتُقلّصها، وليس هناك من شيء موافق أتم الموافقة للعصر مثل ضعف الإرادة؛ وبالتالي، لا بد أن تكون قوة الإرادة بالذات، والقسوة، والقدرة على اتخاذ قرارات طويلة الأمد من مكوّنات مفهوم «العظمة» في المثل الأعلى الذي يضعه الفيلسوف لنفسه؛ تماماً كما كانت التعاليم المعاكسة ومُثل إنسانيةٍ غيريّة زاهدةٍ وسخيفة مناسبةً لعصر آخر مغاير، عصر شبيه بالقرن السادس عشر يعاني من تراكم طاقات الإرادة المكبوتة ومن تدفق عاتٍ لسيول الأنانية. أما في زمن سقراط، وداخل محيط بشريّ بغرائز موهَنة، وبين أثينيّين محافظين كانوا يدعون أنفسهم ينساقون إلى «السعادة» كما كانوا يقولون، وإلى المتعة حسب ما كانوا

يفعلون، بينما ألسنتهم لا تكف عن ترديد تلك العبارات القديمة الرنانة التي لم تعد تسمح بها حياتهم الواقعية منذ زمن طويل، ربما كانت السخرية في مثل هذه الحالة ضرورية لكِبر النفس، تلك الثقة السقراطية الخبيثة لطبيب عجوز ورجل عاميّ كان يحكم السكين في لحمه الخاص، كما لو كان يمارس ذلك على لحم «الأرستقراطيّ» وقلبه، مع نظرةٍ تقول بما يكفي من الوضوح: «لا تتظاهروا أمامي! نحن هنا -سواسية!» لكن العكس هو ما يحدث اليوم في أوروبا، حيث دابة القطيع وحدها هي التي تحظى بالتمجيد، وهي التي توزع الأمجاد، وحيث يمكن لـ«المساواة في الحقوق» أن تنقلب بكل سهولة إلى مساواة في انتهاكات الحقوق؛ أعني بذلك في الحرب المشتركة التي تُشنّ ضد كل نادرٍ وغريب وصاحب امتياز، حرب ضد الإنسان الأرقى والنفس الأسمى، والواجب الأسمى، والمسؤولية الأسمى، وثراء قوة الإبداع وقدرة السيطرة -فالنبالة اليوم، واستقلال المرء بذاته، والقدرة على المغايَرة والانفراد، وضرورة الاعتماد على النفس تنتمي كلها إلى مفهوم «العظمة»؛ وسيفشي الفيلسوف شيئا مما في مثَله الأعلى إذا ما أعلن: «والذي بمستطاعه أن يكون الأكثر توحّداً، والأكثر خفاءً، والأكثر انسحاباً، إنسانُ ما وراء الخير والشرّ، السيّدُ على فضائله، ذو الإرادة الوافرة؛ ذاك هوالأكبر، وذاك هو الذي ينبغي أن يسمّى عظيماً: متعدداً بقدر ما هو كامل، شاسعاً بقدر ما هو ممتلئ.» ومرة أخرى يكون سؤالنا هنا: هل العظمة اليوم شيء ممكن؟

213

من الصعب أن يتعلّم المرء كيف يكون فيلسوفاً، لأن ذلك أمراً لا يمكن تعليمه: على المرء أن «يعرف» ذلك عن تجربة، -أو أن يكون

على قدر من الكبرياء كي لا يعرفه. غير أن الجميع يتكلمون اليوم في مسائل لا يمكن أن تكون لهم تجربة فيها، وينطبق هذا غالبا وبأسوأ ما يمكن على الفلاسفة والأحوال الفلسفيّة. فأقليّة قليلة هي التي تعرف تلك المسائل، وبإمكانها أن تعرفها، وكل الآراء الشعبية الرائجة حولها خاطئة. فذلك التعايش الفلسفي على سبيل المثال، بين جبلّة عقلية جريئة مرحة تتحرك بحسب نسق سريع، وصرامةٍ جدليّة وضرورة منطقية لا تعرف زلّة قدم، أمرٌ لا يعرفه أغلب المفكرين والعلماء عن تجربة، وإذا ما عنّ لأحد أن يتكلم عن ذلك أمامهم، فسيتراءى لهم ذلك أمراً لا يصدق. فهؤلاء يعتبرون كل ضرورة ضيقاً، حالةَ تبعيّة مقلقة وإكراهاً مزعجاً؛ ويرون أن التفكير لابد أن يكون بطيئا، متردداً، شيئا أقرب إلى المشقّة، وفي الغالب شيئا «جديراً بجنس النبلاء»، ولا يرون فيه البتة شيئا خفيفاً، قدسيًّا ذا قرابة حميمة بالرقص والعربدة! فـ«التفكير» يظل مقترناً لديهم بأخذ شيءٍ «مأخذ الجدّ»، «مأخذ الأمر الخطير»: على هذا النحو فقط «خَبروا» ذلك. ربما يكون للفنانين في هذه المسألة حاسة شم أكثر رهافة، هم الذين يعرفون جيّداً أنهم حيث يكفون عن العمل بقصد وإراديّة، ويكون كل ما يفعلونه من قبيل الضرورة(*)، يكون إحساسهم بالحرية وبرهافة الحس وكامل القوة، وبالقدرة على التنضيد والتشكيل والابتكار قد بلغ ذروته؛ وفي كلمة، بأن الضرورة و«حرية الإرادة» قد أصبحتا شيئا موحّداً في داخلهم. وهناك بالنهاية تراتبية للأحوال النفسية تتناسب مع تراتبية المشكلات؛ والمشكلات الكبرى تدفع عنها بشدة كل من يجرؤ على الاقتراب منها دون أن يكون له من سموٍّ وقوةٍ في العقل ما يجعله مؤهلا لحلّها.

(*) الضرورة هنا في معنى الحتميّة كمقابل لحرية الإرادة.

فما الفائدة إذاً في أن تهبّ عقول اعتيادية مرنة، أو عقول ميكانيكيّين تجريبيين عديمي البراعة -مثلما يحدث في عصرنا الحاضر غالباً- للاقتراب بكل ما لديها من غرور عاميّ من تلك المشكلات، وتتكالب على بلاطها؛ «بلاط البلاطات»! غير أنه لا يحق البتّة لقدم عاميّة خشنة أن تدوس مثل هذا السجاد الرفيع؛ وقد تكفلت القوانين السرمدية للأشياء بحسم هذا الأمر منذ القدم، فالأبواب تظل موصدة في وجه هؤلاء المتطفلين، ولو خبطوا عليها برؤوسهم وحطموها عليها![٢٩] فلكل عالَم سامٍ أصحابه الذين جُبلوا له؛ أو بعبارة أوضح، على المرء أن يكون قد *جُبِل* لذلك: فلا حق لامرئ في الفلسفة -بالمعنى الواسع للكلمة- إلا بالولادة؛ إذ هنا أيضا يكون للأصل والسلف و«الدم» دورها وكلمتها الحاسمة. لابد أن تكون هناك أجيال عديدة قد أَعدّت وهيأت لنشأة الفيلسوف؛ وكل واحدة من فضائله لابد أن تُحصّل بمفردها، وأن تتم صيانتها وتوريثها واستبطانها منفردة؛ ولا يكفي لذلك الغرض النسقُ السريع الخفيف الرشيق الجريء لمسيرة أفكاره، بل يلزم التهيؤ للمسؤوليات الكبرى أولا وقبل كل شيء، وسيادةُ النظرة من علٍ، وإحساسُ الانفصال عن كتلة الجمهور وواجباتها وفضائلها، والحماية العطوفة والدفاع عن كل ما يتعرض لسوء الفهم والشتم والثلب، سواء كان الله، أو الشيطان، أو رغبة العدالة الكبرى ومتعة ممارستها، أو فن القيادة، أو رحابة الإرادة، أو النظرة المتأنية التي نادراً ما تُعجَب، ونادراً ما تُكبِر، ونادراً ما تحِبّ...

الفصل السابع

فضائلنا

214

فضائلنا؟ -من المحتمل أن تكون لنا فضائلنا نحن أيضاً، غير أنها لن تكون بطبيعة الحال تلك الفضائل الساذجة والخشنة، التي تجعلنا نُكبر أسلافنا فيما نضع شيئا من المسافة بيننا وبينهم. نحن أوروبيي ما بعد غدٍ وبواكير القرن العشرين، وبكل ما لدينا من فضول معرفي خطير وتنوّع وفنونٍ في التنكّر، وبكل ما في عقلنا وحواسنا من شناعة مفرطة النضج وبالتالي محلاّةٍ، فلن تكون لنا على الأرجح -إذا ما كان لابد أن تكون لنا فضائل- إلا تلك التي تتلاءم وميولنا الأكثر حميمية والأكثر سريّة، وتوافق حاجاتنا الأكثر إلحاحاً؛ لنبحث عنها إذًا داخل متاهات أنفسنا، هناك حيث تضلّ أشياء كثيرة، كما هو معلوم، وتضيع إلى الأبد أشياء كثيرة. وهل هناك من شيء أجمل من أن نبحث عن فضائلنا؟ ألا يعني ذلك تقريباً: إننا نؤمن بفضائلنا؟ لكنّ هذا «الإيمان بفضائلنا»، ألا يعني في الحقيقة ذلك الذي كان يسمى في ما مضى «راحة الضمير»، تلك الضفيرة المفهوميّة الموقّرة وطويلة الذيل التي كانت تتدلى وراء رؤوس أسلافنا، ووراء عقلهم أيضا في أغلب الأحيان؟ يبدو إذاً، وأيّا كان اعتقادنا بأننا في حِلّ من الطراز القديم

ومن تأليه السلف، أننا نظل مع ذلك في نقطة مّا خيرَ خلفٍ لأجدادنا، نحن آخر الأوروبيين الذين يتمتعون براحة الضمير: وما زلنا نحن أيضا نحمل ضفيرتهم. آه، لو أنكم تدرون كم سيكون الأمر -قريباً وقريباً جدّا- على نحو مغاير تماماً!...

215

وكما يحدث بين حين وآخر في عالم الكواكب أن شمسيْن تحدّدان معاً درب كوكب من الكواكب، وكما يحصل في حالات بعينها أن شموساً بألوان مختلفة تضيء نفس الكوكب بنور أحمر تارة، وأخضر تارة أخرى، ثم تسلط عليه أنوارها مجتمعة وتغمره بألوان متعددة؛ كذلك نكون نحن الحديثين، وبفضل الآلية المعقدة «لسمائنا المرصعة بالنجوم»، محدَّدين بأخلاقيّات متنوعة: تشع أفعالنا بألوان مختلفة متواترة، ونادراً ما يكون لها مدلول واحد،-وهناك حالات كثيرة أيضا نقوم فيها بأفعال *متعددة الألوان*.

216

محبة الأعداء؟ أعتقد أننا تعلّمنا ذلك جيّداً: ويحدث هذا الآن بطرق عديدة ومتنوعة، في صغائر الأشياء كما في كبرياتها؛ بل يحدث بين الحين والآخر شيء أرقى وأجلّ: نتعلم كيف نحتقر عندما نحبّ، وبالذات عندما نحب أفضلَ الحبّ؛ لكنّ ذلك كله يحدث لا إراديّا، دون جلبة، دون تبجح، وبحياء وتستر الطيبة التي تلجم الألسن عن الكلمات الرنانة، وتمنع عبارات الفضيلة المفخّمة. الأخلاق كهيأة؛ ذلك هو ما يمجّه ذوقنا اليوم. وهذا أيضاً تقدّمٌ؛ كما كان التقدم بالنسبة لأجدادنا أن أصبح الدين كهيأةٍ شيئا منافياً لذوقهم، بما في ذلك بُغْض

فولتير وسخريته المريرة من الدين (وكل ما كانت له علاقة بالترسانة اللغوية الاستعراضية للمفكرين الأحرار). إنها الموسيقى التي في ضميرنا، والرقص الذي في عقلنا؛ لا تريد ابتهالاتُ الطهرانيين وكل المواعظ الأخلاقية والاستقامةُ الساذجة أن تتلاءم معها.

217

لنحترس من أولئك الذين يعلقون أهمية كبرى على أن يشيد الناس بحسهم المعنوي الرفيع ورهافة حكمهم الأخلاقي! فأولئك لن يغفروا لنا البتة أن نكون في يوم ما شهوداً على خطأ يرتكبونه أمامنا (أو ربما ضدنا أيضا)، فسيصبحون حتماً أكثر ميلا إلى القدح فينا والإساءة إلينا، حتى إذا ما ظلوا «أصدقاء» لنا. -طوبى للذين ينسوْن، لأنهم «ينتصرون» على حماقاتهم أيضاً!

218

إن خبراء النفس البشرية في فرنسا -وفي أي مكان آخر يا ترى يوجد اليوم خبراء نفسانيّون؟- لم يُشبعوا متعتهم المُرّة ومتعددة الأوجه في معاينة وتشريح السخافة البورجوازية(*)، كما لوأنهم... -لنكتف بالقول أنهم يفشون شيئًا ما من خلال ذلك. ففلوبير مثلا، ذلك المواطن البورجوازي الصالح من مدينة روان، لم يعد يسمع، ولا يرى ويستسيغ شيئا آخر غير ذلك في نهاية الأمر؛ وكانت تلك طريقته في تعذيب نفسه وفي الشناعة الراقية. والآن، ولأجل شيء من التغيير - إذ بدأ الأمر يصبح مضجراً-، أقترح موضوعا آخر للتسلية الممتعة:

(*) بالفرنسية في النص الأصلي: "la bêtise bourgeoise"

وهو المكر اللاإرادي الذي تتعامل به عقول طبقة الرديئين الطيبة الصالحة الثخينة مع العقول الراقية ومهمتها؛ ذلك المكر الرهيف لفئة اليسوعيين، الذي يفوق في رهافته -بآلاف الأضعاف- ذكاء هذه الفئة المتوسطة وذوقها في أرقى لحظات تألقه -بل وحتى ذكاء ضحاياه أيضا؛ وهذا ما يمدنا بدليل إضافي على أن «الغريزة» هي الأكثر ذكاء من كل ما اكتُشف حتى الآن من أنواع الذكاء. وفي كلمة: لتدرسوا، أيها السيكولوجيون، فلسفة «القاعدة» في صراعها ضد «الاستثناء»، وسيكون لكم في ذلك مشهدٌ جدير بالآلهة والشرّ الإلهي! أو بتعبير أكثر راهنيّة: مارسوا التشريح على «الإنسان الخيِّر»، على الـ homo "bonae voluntatis" -إنسان النوايا الطيبة... أي *على أنفسكم*!

219

الحكم الأخلاقي والإدانة الأخلاقية أفضل طريقة لانتقام العقول المحدودة من العقول التي هي أقل محدوديّة منها، وهي أيضاً ضرب من التعويض عن عدم سخاء الطبيعة في ما منحتهم إياه، وهي أخيراً فرصة لكي يغدو لهم عقل وتصير لهم رهافة عقليّة؛ فالخبث يشحذ العقل. وإنه لمما يدخل السرور على أعماق قلوبهم أن يروا أن هناك مقياساً يجعلهم في نفس المستوى مع أولئك الذين يتمتعون بحظوة الثراء العقلي وامتيازاته؛ يكافحون من أجل «المساواة أمام الله» ولأجل تلك الغاية يغدون في *حاجة* إلى الإيمان بالله تقريباً. من بين هؤلاء يوجد ألدّ أعداء الإلحاد. وكل من سيقول لهم «إن السموّ العقلي شيء لا يمكن مقارنته البتة بأي نوع من استقامة ووجاهةِ من كان مجرد إنسان أخلاقي لا غير»، سيجعلهم يخرجون عن طورهم؛ وسأتفادى من جهتي أن أفعل ذلك، بل سأداعب بالأحرى غرورهم بمقولتي بأن

السموّ العقلي نفسه ليس شيئا آخر غير النتاج الأخير لمجموعة من الخصال الأخلاقية؛ وأنه خلاصة لكل تلك الأحوال التي تُنسب إلى الإنسان «الأخلاقي الخالص» بعد أن يتم تحصيلها الواحدة تلو الأخرى من خلال دربة وتربية تأديبية طويلتين، ربما على امتداد سلسلة كاملة من الأجيال؛ وأن السمو العقلي هو بالضبط عقلنة العدالة وتلك الصرامة الصالحة التي تدرك أنها مكلّفة بالحفاظ على *نظام التراتب* في العالم، لا بين البشر فحسب، بل بين الأشياء نفسها.

220

إزاء ما نشهده اليوم من إطراء على «اللانفعيّة» متحوّلٍ إلى موضة شعبية عامة، علينا أن نعمل، ربما ليس دون مخاطرة، على معاينة واعية لمسألة *إلى أي شيء* يتجه اهتمام الشعب بالنهاية، وماهي الأشياء التي تشغل اهتمام الإنسان العادي في الأساس وفي العمق، بما في ذلك المثقفين منهم والعلماء، بل وحتى الفلاسفة تقريباً إن لم تخدعنا الأشياء. يتضح من هذه المعاينة أن جلّ ما يشد اهتمام ذوي الذوق الرفيع والمتطلب، ويسحر كل الطبائع الراقية يبدو «غير ذي نفع» بالمرة بالنسبة للإنسان العاديّ؛ وإذا ما لاحظ هذا الأخير تعلّقاً بتلك الأشياء سيسمي ذلك سلوكا «لا نفعيًا»، وسيدهش لإمكانية أن يعمل امرؤ بـ«تجرّد من المصلحة». وقد وُجد فلاسفة استطاعوا أن يضفوا على هذا الاندهاش الشعبي صبغة التعبير الماورائي الروحاني المغري (ربما لكونهم لم يعرفوا الطبيعة السامية عن تجربة؟)، عوض أن يطرحوا أمام الناس الحقيقة البديهية العارية لكون كل عمل «لانفعي» هو في الحقيقة عمل نافع جدًّا ونفعيّ جدّا، بشرط أن. . . - «والحب؟» -ماذا؟ أينبغي على عمل بدافع من الحب أن يكون «لا

أنانيًّا»؟ -أيها المغفّلون! -وماذا عن مديح الذي يضحّي بنفسه؟ -لكنّ من قدم تضحية حقيقية يدرك أنه يريد، وينال شيئًا من وراء ذلك، - ربما شيئا من نفسه لأجل شيء من نفسه-، وأنه أعطى من هنا لينال أكثر من هناك، وربما كي يكون شيئا أكبر، أو ما يمكّنه من أن يحسّ بنفسه شيئًا «أكبر». غير أن هذا مجال من الأسئلة والأجوبة لا يود العقل المتطلّب أن يطيل الوقوف عنده؛ ولكم تكون الحقيقة بحاجة هنا إلى كبح تثاؤبها إذا ما كان عليها أن تجيب عنها. فالحقيقة بالنهاية أنثى؛ وعلى المرء ألا يتعسّف عليها.

221

يحصل لي أحيانا أن أحترم شخصاً غير مصلحيٍّ وأكرّمه، يقول أخلاقانيّ متحذلق ومروّج تفاهات، لا لكونه غير مصلحيّ، بل لأنه يبدو لي ممتلكا للحقّ في أن يساعد شخصاً آخر على حساب مصلحته الخاصة. وباختصار، يتعلق الأمر دائما بمعرفة من هو *هذا* ومن هو *ذاك*. فبالنسبة لمن كان مجبولا ومهيّأ ليكون آمرا مثلا، لن يكون نكران الذات والانسحاب المتواضع فضيلة، بل إهدار فضيلةٍ؛ هكذا تبدو لي المسألة. فكل أخلاق غيريّة تعتقد نفسها مطلقة وتنطبق على كل الناس ليست خطيئة في حق الذوق فحسب، بل تحفيزاً على خطيئة الإهمال، وغوايةً *إضافية* تحت قناع محبّة الإنسان؛ وهي بالذات غواية ومَضرّة موجهة ضد الرجال الراقين الاستثنائيين وذوي الامتياز. علينا أن نرغم مختلف الأخلاقيات على الركوع أولا وقبل كل شيء أمام *نظام التراتب*؛ لابد أن نجعل غرورها يقف عاريا أمام ضميرها، حتى تدرك بالنهاية في قرارة نفسها وتتّفق فيما بينها على أن القول بـ«ما هو إنصاف للواحد يكون إنصافاً للآخر» لا *أخلاقيّ*. -فهل استأهل

صاحبنا الأخلاقانيّ المتحذلق أن نسخر منه عندما زعم بضرورة التزام الأخلاقيات بالخُلقيّة؟ لكن على المرء ألا يفرط في جعل نفسه على حق، إذا ما أراد أن يكسب الضاحكين والساخرين إلى جانبه؛ فحبّة صغيرة من الخطأ من علامات الذوق الرفيع أيضا.

222

حيث يُكرَز اليوم للشفقة -ويجد آذانا صاغية، لذلك لا يعود هناك من حاجة إلى الدعوة إلى أية ديانة أخرى- على الخبير النفساني أن يصغي جيّداً؛ وسيسمع عبر كل الضجيج الذي يحدثه أولئك الدعاة (ككل الدعاة عموماً) صوتَ أنين مبحوح متوجّع، هو الصوت الحقيقي لـ*احتقار الذات*. احتقار الذات الذي يرافق تلك القتامة والقبح اللذين ما فتئا يتفاقمان في أورروبا منذ قرن من الزمن- *إن لم يكن هو سبب ذلك*-، وقد تجلّت أعراض ذلك الاحتقار الذاتي واضحة في رسالة قلقة من القسّ غالياني إلى مدام ديبيناي(*)! إن إنسان «الأفكار الحديثة»، ذلك القرد المغرور، غير راضٍ عن نفسه على نحو مفرط: هذا أمر مؤكد. وهو يتألم جراء ذلك، غير أن غروره لا يريد سوى أن يجعل من ألمه شفقةً على حال الآخرين.

223

إنسان الخليط الأوروبي -عاميّ متوسّط القبح في المجمل- في أشد الحاجة إلى كساء؛ وتبعاً لذلك يحتاج إلى التاريخ كمخزن للأزياء. غير أنه يلاحظ فعلا أثناء ذلك أن ليس هناك من كساء يلائم

(*) أنظر: G. Charpentier, Lettres de l'abbé Galiani à Madame d'Epinay, Paris 1881

جسده، فيظل يغيّر الكساء تلو الكساء. لننظر فقط إلى القرن التاسع عشر وتلك النزوات السريعة وتغيّرات أساليب المهزلة، وإلى لحظات الإحباط بسبب الإحساس بأن «لاشيء يناسبنا». عبثا ستكون كل محاولاته في أن يتزيا في الأخلاق والفن بزي الرومنطيقي أو الكلاسيكي، أو المسيحي، أو الفلورنسي، أو الباروكي، أو الروكوكو، أو «القومي»: لا شيء منها «يكْسو»! غير أن «العقل»، و«العقل التاريخي» على وجه الخصوص، يستفيد من هذا الهلع أيضاً: ستظل هناك بصفة مستمرة قطعة ما من الماضي، أو من الغريب يتم تجريبها، ثم تُخلع، توضع جانبا، تُحفظ، وتُدرس خاصّة وقبل كل شيء: نحن أبناء أول عصرٍ متعلّم في ما يتعلق بـ«الأزياء»، أعني فيما يتعلق بالأخلاقيات، والمعتقدات، والأذواق الفنية، والأديان، عصر مهيّأ كما لم يسبق لعصر قبله لكرنفالٍ عالي الطراز، وللضحك العقلي الاحتفالي الصاخب والعربدة، ولذرى الحمق المتعالي والهزء الأريستوفاني(*) من العالم. ولعلّنا نكتشف هنا بالذات مملكة عبقريتنا *الابتكارية*، المملكة التي سنستطيع أن نحقق فيها نحن أيضاً أصالتنا كأصحاب بارود يا ساخرة من التاريخ الكوني، ومهرّجين من بهاليل الله؛ وإذا ما لم يُكتب لشيء من الحاضر أن يكون له مستقبلٌ، فلعل ضحكنا بالذات هو الذي سيكون له مستقبل.

224

إن *الحس التاريخي* (أو قدرة الاكتناه السريع لتراتبية التقديرات القيَمية التي كانت توجه حياة شعب، أو مجتمع أو فرد ما، هذه

(*) نسبة للمؤلف المسرحي اليوناني الساخر أريستوفان.

«الغريزة المكتنِهة» لعلاقات تلك التقييمات، ولعلاقة سلطة القيم بسلطة القوى الفاعلة): هذا الحس التاريخي الذي نزعم، نحن الأوروبيين، أنها خاصيتنا المميّزة، إنما حصلت لدينا كنتاج للوضع شبه *الهمجيّ* الساحر والجنوني الذي تدنّت إليه أوروبا من خلال فوضى الخلط الديمقراطي للطبقات والأعراق؛ وكان القرن التاسع عشر هو أول من عرف هذا الحس كحاسة سادسة لديه. وقد حصل أن مجمل الماضي بشتى أشكاله وأنماط حياته وثقافاته التي كانت في ما مضى مقيمة على نحو حادّ وعنيف جنباً إلى جنب أو فوق بعضها البعض، قد أصبح يتدفق في داخلنا، نحن «الأرواح الحديثة»، بموجب ذلك الاختلاط، وأصبحت غرائزنا تتقهقر في كل الاتجاهات، وقد صرنا نحن أنفسنا ضرباً من السديم: -وبالنهاية، هو ذا «العقل» يستفيد من ذلك كما ذكرنا آنفا. فبفضل ما أصبحنا عليه من شبه همجيّة في الجسد والرغبات، غدت لدينا معابر خفية تمضي في كل الاتجاهات كما لم يسبق لعصر متحضر أن عرف مثيلا لذلك البتة، وعلى وجه الخصوص معابر نحو متاهات الحضارات غير المكتمَلة، ونحو كل حالة شبه همجية مما وجد على وجه الأرض قاطبة؛ وبما أن الجزء الأكبر من الحضارة الإنسانية كان إلى حد الآن شيئا أقرب إلى شبه الهمجيّة، فإن «الحس التاريخي» يعني تقريباً حسّا وغريزة لكلّ شيء، وذوقاً ولساناً لكلّ شيء: هكذا يتضح بسهولة أنه حسٌّ *غير نبيل*. لقد صرنا على سبيل المثال نستسيغ هوميروس من جديد؛ ولعل ذلك هو التقدم السعيد الذي حصل لدينا، أننا أصبحنا نتذوق هوميروس، في حين لم يستطع إنسان حضارة نبيلة أن يستسيغه بسهولة (كفرنسيي القرن السابع عشر مثلا، من أمثال سانت إفريموند، الذي كان يعيب عليه «تسامحه المفرط»، بل وحتى فولتير الذي كان بمثابة آخر صدى لذلك القرن)،

وبالكاد كانوا يسمحون لأنفسهم بالاقتراب منه. كانت ذائقتهم الصارمة في القبول والرفض، واشمئزازهم السريع، وتردد تحفظهم إزاء كل ما هو غريب، ونفورهم من انعدام الذوق، بما في ذلك ما يتعلق بالفضول، وبصفة عامة عدم الاستعداد الذي يميز كل حضارة راقية ومكتفية بذاتها لفسح المجال لرغبات جديدة في نفسها ولعدم الاكتفاء بما لديها، وللإعجاب بالغريب؛ كل هذا كان يهيؤهم ويضبط موقفهم السلبي مما هو ليس منهم، بما في ذلك أفضل الأشياء في العالم طالما لا تكون ملكاً لهم أو لا تستطيع أن تكون غنيمةً لهم؛ وليس هناك من حسّ يصعب على هؤلاء الناس القبول به مثل الحس التاريخي بالذات وفضوله العاميّ الخسيس. ولا يختلف الأمر فيما يتعلق بشكسبير، تلك الخلاصة المدهشة لذوق إسباني-موريسكي-ساكسوني، التي كانت ستُغرق في الضحك أيّ أثيني من محيط إسخيليوس، أو كانت ستزعجه أيّما إزعاج؛ بينما نتقبل نحن اليوم هذا المزيج الملوّن المتوحش وذلك التداخل بين أرقّ الأشياء وأكثرها خشونة وأكثرها تصنّعاً بحرارة وبألفة حميمة؛ نستمتع به كنوع من الفن الأكثر رهافة الذي أُعدّ لنا خصيصاً، ولا نهتم لهرج الغوغاء وأبخرتها الفاسدة التي يتحرك داخلها فن شكسبير وذوقه، ولا ندعها تعكر صفونا إلا بمقدار ما نحس به في حيّ شْيايا بنابولي؛ حيث نواصل طريقنا مسحورين ومنجذبين بكل حوّاسنا بالرغم من الروائح الكريهة التي تغمر فضاء الأحياء الشعبية. نحن أهل «الحس التاريخي»، لنا، بما نحن كذلك، فضائلنا أيضاً؛ إنه أمر لا جدال فيه: إننا غير متطلبين، لاأنانيون، متواضعون، مقدامون، كلنا تحكّم في النفس، وكلنا تفانٍ، شكورون جدّا، صبورون جدّا، متسامحون جدا؛ ولعلنا بسبب هذا كله لسنا أصحاب «ذوق رفيع» بما يكفي. ولنقرّ بالنهاية بهذا: إن أكثر ما

يصعب علينا أن نفهمه، ونحس به، ونتذوقه، ونحبه، نحن أهل «الحس التاريخي»، وأكثر ما يثير تحفظنا العميق وعداوتنا تقريباً هو بالذات كلُّ مكتمِلٍ وبالغٍ آخر نضجه في كل ثقافة وفن، ما هو راقٍ حقّا في الأعمال والأشخاص، لحظة سكون بحرها واكتفائها الهنيء، ذلك المظهر الذهبي والبارد الذي تمنحه كل الأشياء المكتمَلة. ولعل الفضيلة الكبرى لحسّنا التاريخي تكمن في التعارض الحتمي مع الذوق *الرفيع*، أو على الأقل مع الذوق الأرقى، وأننا لا نستطيع إلا بصعوبة، وبكثير من التردد، وبقوة الإكراه فقط أن نتمثل ونستعيد في أنفسنا تشكيل تلك المصادفات السعيدة الصغيرة والمقتضبة، والتبدلات الطارئة على الحياة الإنسانية، التي تومض ببريقها هنا وهناك وبين الحين والآخر؛ تلك اللحظات والوقائع البديعة التي توقفت فيها قوةٌ خارقة طوعاً أمام اللامتناهي والمتعذّر على القياس؛ هناك حيث أمكن للإنسان أن يستمتع بفيض من اللذة المرهفة في حالة تسمُّرٍ وتحجرٍ فجئية، متوقّفاً عن كل حركة، مثبّتًا قدميه فوق أرض ما زالت ترتجّ. إن *الاعتدال* شيء غريب عنّا؛ -لنقرّ بذلك! ما يثيرنا إنما هو مُثير اللامتناهي والمتعذّرِ على القياس. وعلى غرار الفارس على صهوة جواد راكض ناخرٍ نُطلق العنان أمام اللامتناهي، نحن الحديثين، شبه الهمج، ولا تكون لنا غبطة إلا هناك حيث تُحيق بنا *أشدّ الأخطار*.

225

سواء تعلق الأمر بالمتعويّة، أو بالتشاؤم، أو بالنفعيّة، أو بفلسفة السعادة، فإن كل هذه الأنماط الفكرية التي تقيس قيمة الأشياء بمعيار اللذة والألم، أي بمعيار أوضاع عرضيّة وحالات ثانوية، هي أنماط تفكير سطحية وسخافات لا يسع كل ذي وعي بطاقاته الابتكارية وذي

ضمير فنّان إلا أن ينظر إليها بعين الازدراء مع شيء من السخرية وشيء من الشفقة. -الشفقة *عليكم*! لكن ليس شفقةً كما تظنون؛ لا شفقةً على «البؤس» الاجتماعي، و«على المجتمع» ومرضاه ومنكوبيه، أو على الفاسدين والمهزومين بالولادة، الذين نراهم منطرحين أرضاً من حولنا؛ ولا هي شفقة على فئات العبيد المضطهدة المتذمرة المدمدمة، والمتمردة، التي تهفو إلى السيطرة -وتسمي ذلك «حرية». إنّ شفقتنا *نحن* نوع أرقى من الشفقة وأبعد مدى: ننظر إلى الإنسان وكيف يتم تتفيهه؛ كيف تتفّهونه *أنتم*-، وهناك لحظات ننظر فيها إلى شفقتكم بذعر لا يوصف؛ لحظات نتصدى فيها إلى شفقتكم هذه، ونرى أن جدّيتكم أخطر من أي ضرب من الطيش. تريدون قدر الإمكان-وليس هناك من إمكان أفضل على أية حال- *إلغاء المعاناة*. أما نحن؟ -يبدو أننا نريدها بالأحرى أعظم وأسوأ مما كانت عليه في أي زمن مضى! إن الرفاه كما ترونه أنتم ليس بهدفٍ البتّة؛ بل يبدو لي *نهاية*! وضعٌ سيجعل من الإنسان كائناً مضحكاً وجديراً بالاحتقار، بل ويجعله *يرغب في* هلاكه. تربية المعاناة؛ المعاناة *الكبرى*- ألمْ تعرفوا أن *تلك* التربية وحدها هي التي خلقت كل أسباب ارتقاء الإنسان؟ ذلك التوتر الذي تعرفه النفس في الأسى، والذي يربيها على الشدّة و يغذي قوّتها وصلابتها، وتلك القشعريرة التي تخترقها أمام مشهد الهلاك الكبير، وكذلك قدرتها على التدبير، وبسالتها في تحمل الشقاء ومجالدته وتأوّله واستغلاله، وكل ما مُنحت من عمق وأسرار وأقنعة وعقل ومكر وعظمة؛- أليس كل ذلك من الهبات التي مُنحتْها في خضم المعاناة وتربية المعاناة الكبرى؟ في الإنسان *خليقةٌ* و*خالقٌ* متحدين: في الإنسان مادة خام، وكسارة، وزوائد، وطين، وقذارة، وعبث، وفوضى؛ لكنّ في الإنسان مبدعاً، نحاتاً، وقسوةً مطرقة، وإلهاً مراقباً

ويوما سابعاً. -أتفهمون هذا التناقض؟ وأن شفقتكم تتجه إلى «الخليقة في الإنسان»، إلى ما ينبغي أن يُشكَّل، ويُكسَر، ويُصقَل، ويمزَّق، ويُحرَق، ويُصهَر ويطهَّر، وأن ما ينبغي عليه أن *يتألم*، لابد له من أن يتألم؟ -وشفقتنا *نحن*؟ ألا تدركون إلى من تتجه شفقتنا *على العكس* من ذلك، عندما تتصدى لشفقتكم بوصفها أسوأ وأخطر ما يمكن أن يوجد من ضروب التمييع والإصابة بالوهن؟ -شفقةٌ ضد شفقة إذًا! لكن، لنقلها ثانيةً: هناك مشكلات أرقى من كل مشاكل اللذة والألم والشفقة؛ وكل فلسفة تحصر مجال اهتماماتها في هذه المشاكل ضربٌ من السخف، وسذاجةٌ. -

226

نحن اللاأخلاقيين! - هذا العالم الذي يعنينا، وداخله يكون علينا أن نخشى ونحبّ، عالم الأوامر الدقيقة والطاعة المرهفة التي «تكاد» لا تُلمح ولا تسمع، عالمُ الـ«ما بيْن بيْن» من جميع الأوجه: شائكٌ، خادع، حادّ، مرهف، رقيقٌ، -هذا العالم محصّن فعلا ضد فجاجة المتفرّجين وتطفل الفضوليّين! نجد أنفسنا فيه مكبّلين على نحو صارم داخل نسيج الواجبات، ولا نستطيع الفكاك منها؛ ولذلك نكون «رجال الواجب»، نحن أيضاً! وأحيانا نرقص في «قيودنا» وبين «سيوفنا»، هذا صحيح، لكن غالبا ما تجدنا نصرّ بأسناننا أيضاً تحت وطأة قيودنا ونتبرّم ضيقاً بقسوة قدَرنا الخفيّة. لكننا مهما فعلنا فإنّ المظاهر ورأي والمغفّلين ستقول عنا: «هؤلاء أناس لا يعرفون واجباً» -فالمظاهر والمغفّلون ضدّنا دائماً!

النزاهة[٣٠] -لنفترض أنها الفضيلة التي لا مناص لنا منها، نحن المفكرين الأحرار- فإننا نريد أن نعمل بكل ما أوتينا من خبث ومحبة على تغذيتها أكثر وتنميتها في أنفسنا، وأن لا نكل أبدا من السعي إلى تحقيق «كمالنا» داخل *فضيلتنا* الوحيدة المتبقية لنا: وليكن لبريقها أن يظل مستقرًّا مثل نور مسائي أزرق مذهّب هازئ فوق هذه الحضارة الماضية إلى الشيخوخة وجدّيتها القاتمة الثقيلة! وحتى إذا ما أصاب فضيلتنا التعب في يوم ما، وراحت تمطط أعضاءها متنهدة، وهي تجد أننا قُساة، متمنية حالاً أفضل وأرقّ وأخفّ مثل حملٍ مريح مستحبّ؛ فلْنظل *قُساةً*، نحن آخر الرواقيين! ولنرسلْ لمساعدتها بما هو شيطانيّ فينا فقط؛ باشمئزازنا من الثقلاء وأصحاب البيْن-بيْن، وبمبدئنا القائل بـ"nitimur in vetitum"[*]، بشجاعتنا المغامرة، وبفضولنا الفطِن والمتطلّب، بأرهف ما لدينا من إرادة القوة والسيطرة على العالم وأكثرها تستّراً وعقلانيّة، إرادة تهفو وتطمح إلى غزو كل مجالات المستقبل، - لنهبّ بكل «شياطيننا» لنجدة «إلهنا»! لعل ذلك ما يجعل الناس يخطئون فهمنا ولا يميّزوننا عن غيرنا؛ لكن أيّ أهميّة لذلك! سيقال لنا: «نزاهتكم هي شيطنتكم، ولا شيء غيرها!» فأيّ أهمية لذلك؟ وحتى إذا ما كانوا محقّين في ذلك! ألم تكن الآلهة دوماً شياطين قُدّست وعُمّدت بأسماء جديدة؟ ثم ماذا نعرف بالنهاية عن أنفسنا؟ وبماذا يمكن أن نسمّي العقل الذي يقودنا؟ (إنها مسألة أسماء لا غير). وكم من العقول نخفي في داخلنا؟ أما عن نزاهتنا،

(*) لاتينية، تعني: «نفسنا تتوق إلى كل ممنوع». والمقولة لأوفيد: Ovide, Amores III, 4-17

فسنحرص على ألا تصبح غرورَنا وحليتَنا ورداءَ أبّهتنا، وحدودَنا، وغباءَنا! إذ كل فضيلة تنزع إلى الغباء، وكل غباء ينزع إلى الفضيلة؛ «غبيٌّ حدّ القداسة»، يقول الناس في روسيا. لنعمل على ألاّ تؤول بنا نزاهتنا بالنهاية إلى التحوّل إلى قديسين وأناسٍ مضجرين! أليست الحياة قصيرة جدّا، كيما نضجر أثناءها؟ على المرء أن يكون مؤمناً بالحياة الأبدية كي. . .

228

لتغفروا لي إن كنت أول من اكتشف أن مجمل الفلسفة الأخلاقية كانت على الدوام شيئا مضجراً وأشبه بمنوّم؛ وأن «الفضيلة» لا يمكن أن يلحقها ضرر مثل ذلك الذي يسببه لها ثِقل هؤلاء المتكلمين باسمها؛ وبهذا أكون قد أوفيت حق الاعتراف بفائدة هؤلاء. وإنه لمن المهم جدًّا أن قلة قليلة جدا من الناس هي التي تولي اهتماما بالتفكير في مسألة الأخلاق؛ ومن المهم *جدًّا* ألا يكون بوسع الأخلاق إذًا أن تصبح في يوم من الأيام شيئا مهما! وواقع الحال اليوم هو ما كان عليه دوماً: لا أرى من أحد في أوروبا اليوم يمكن أن تكون قد راودته فكرةُ (أو صرّح بفكرة) أن التفكير في الأخلاق بإمكانه أن يصبح خطيراً، مغرياً ومضللا، وأنه يمكن أن يكون منطوياً على *قدَر* مشؤوم! لننظر فقط إلى أولئك النفعيّين الأنكليز العنيدين الذين لامفر منهم، وكيف يمضون بخطى ثقيلة ومهيبة على خطى بنثام(*) (هناك مثَل هوميري يعبر عن الأمر تعبيرا أوضح)، بنثام الذي كان بدوره سائراً على خطى

(*) جيريمي بنْثام (Jeremy Bentham 1748-1832) فيلسوف وعالم قانون أنكليزي ومصلح قانوني واجتماعي. يعتبر أب نظرية النفعيّة إلى جانب جون ستوارت ميل.

هيلفيتيوس (كلاّ، لم يكن خطيراً بالمرة ذلك الرجل المسمى هيلفيتيوس!). ما من فكرة جديدة، وما من صياغة جديدة ولا أي تناول مطوّر مع أكثر دقة ورهافة للفكرة القديمة، ولا حتى شيئا من التأريخ الحقيقي لما تم التفكير فيه سابقاً: كتابة أدبية *كريهة المذاق* في المجمل، إن لم يخطر للمرء أن يضيف إليها شيئا من حموضة الخبث. لأن هؤلاء الأخلاقانيين (والذين ينبغي علينا أن نقرأهم بكثير من سوء النية، في حالة ما إذا كان من الضروريّ أن نقرأهم) يحملون في داخلهم جميعا ما تسرّب إليهم من ذلك العيب الأنكليزي القديم الذي يسمى cant (الخطاب الأخلاقي الأجوف) وهو في الحقيقة *رياء أخلاقي*، غير أنه أصبح الآن متسترا تحت ظاهرٍ علميّ جديد؛ ولا تخلو هذه الكتابة أيضا من ضروب التحصن الخفي من تأنيب الضمير الذي يعاني منه، كما هو معلوم، جنس من الطهرانيين القدامى الذين تناولوا الأخلاق بالدراسة العلمية. (أليس الأخلاقي نقيضاً للطهرانيّ؟ يعني بوصفه مفكرا يتناول الأخلاق كشيء محلّ سؤال وتساؤل، أي، باختصار كمشكلة؟ ألا تكون الدعوة الأخلاقية شيئا لاأخلاقيّا؟) - وبالنهاية فقد غدوا جميعهم يريدون أن تكون الأخلاقانية *الأنكليزية* على حق؛ طالما ظلت تمكّن كأفضل ما يكون من خدمة الإنسانية، أو«الصالح العام»، أو «سعادة الأغلبية»، لا، بل سعادة *أنكلترا*. ويصرّون بكل ما أوتوا من قدرة على إقناع أنفسهم بأن التطلّع إلى السعادة *الأنكليزية*، أعني بذلك إلى الرفاه و«الفاشْينْ»-الطراز (وفي آخر المطاف إلى مقعد في البرلمان) هي في الوقت نفسه الطريق الصحيحة إلى الفضيلة، بل أكثر من ذلك، أن كل أنواع الفضيلة التي عرفها الإنسان حتى الآن كانت قائمة على هذا الطموح. وما من أحد من تلك الدواب القطيعية الثقيلة ذات الضمير المضطرب، الذين

اجتهدوا أيّما اجتهاد في محاولة تقديم قضية الأنانية على أنها قضية الصالح العام، لا أحد منهم يريد أن يعرف، أو أن تراوده فكرة أن «الصالح العام» ليس مثلا أعلى، وليس بغاية ولا هو مفهوم قابل للإدراك، بل مجرد شراب يساعد على التقيؤ؛ وأنّ ما يكون ملائماً لشخص بعينه لا يستطيع أن يكون ملائماً لغيره، وأن الدعوة إلى أخلاق للجميع إحجافٌ في حق الإنسان الأرقى، وباختصار، أن هناك *مراتب متفاوتة* بين الناس، وبالتالي بين أخلاق وأخلاق أيضاً. هؤلاء النفعيّون الأنكليز صنف بسيط من الناس ورديء في جوهره، وهم كما قلنا، ولكونهم مضجرين، من ورائهم منفعة لا يمكن أن نفيها حق قيمتها. بل علينا أن نشجعهم أيضاً، على غرار ما قمت به جزئيا في هذه الأبيات:

لتسلموا أيها العتّالون الطيّبون،
استمرّوا، استمرّوا! «فلئنْ أطلتمْ، كان ذلك أفضل»،
أكثرَ فأكثر تصلّباً في الرأس وفي الركبتيْن،
لا حماسَ، لا دعابةَ،
مؤبَّدون في الرداءةِ،
لا نبوغَ ولا نباهةَ!

229[31]

مازالت العصور المتأخرة التي يحق لها أن تعتز بإنسانيتها تحمل الكثير من الخوف، الكثير من *الخوف الخرافي* من «الحيوان المتوحش الضاري» الذي شكّلت السيطرة عليه مفخرةً لتلك العصور الأكثر إنسانية، الأمر الذي جعل حقائق بديهية تظل، وبما يشبه إجماعاً ضمنيا، مكتومة لقرون عدة، لأنها تبدو كما لو أنها تعيد الحياة إلى

ذلك الوحش الذي تم القضاء عليه أخيراً. ربما ستكون مجازفةً من قِبلي إن تركت حقيقة كهذه تفلت مني؛ ليكن لآخرين أن يلقوا عليها القبض إذًا، ولينا ولوها مقداراً كبيراً من «حليب التفكير التقيّ» حتى تستلقي ساكنة ومنسية في ركنها القديم. علينا أن نعيد النظر في آرائنا حول الشناعة، وأن نفتح أعيننا؛ وعلينا أن نتعلم أخيراً نفاد الصبر، كي لا ندع هذه الأفكار الخاطئة الهائلة والمغرورة تواصل تنقّلها متبجّحة بفضيلتها، كتلك التي غذاها ونمّاها الفلاسفة القدامى والمحدثون في ما يتعلق بالتراجيديا. إن جلّ ما نسميه بـ«الحضارة الراقية»-أو كلَها تقريباً- تقوم على روْحنة وتعميق *الشناعة* - هذه هي مقولتي. كلا، لم يُقتل ذلك «الوحش»، إنه يحيا، ويتفتّق، وكل ما في الأمر أنه تألّه. ما يثير الشهوة الموجعة في التراجيديا هي الشناعة؛ وما يُحدث تأثيراً مريحاً في ما يسمى بالتعاطف التراجيدي، بل وفي كل ما هو جليل وصولاً حتى تلك القشعريرة الميتافيزيقية الأكثر سموّا ورقّة، يستمد عذوبته من خليط من مكونات الشناعة وحدها. فما يهزّ الرومانيّ في الحلبة، والمسيحي في نشوة الصليب، والإسباني أمام المحارق وفي مبارزات مصارعة الثيران، وياباني العصر الحديث في نزوعه إلى المأساويّ، وعامل الضواحي الصناعية بباريس الذي يداعبه الحنين إلى الثورات الدموية، والمرأة المولعة بفاغنر، التي تقبل بـ«تحمّل» أوبرا تريستان وإيزولده في ما يشبه غيبوبة كليّة للإرادة ، -ما يلتذ به هؤلاء جميعاً ويشتاقون بتعطش غامض لتشرُّبه، إنما هي الجرعة السحرية لكيركا الشهيرة: «الشناعة». ولكي نفهم هذا الأمر علينا أن ننبذ البسيكولوجيا القديمة السخيفة التي لم تستطع أن تعلّمنا عن الشناعة سوى أنها تنشأ عن مشاهدة ألم الآخرين. كلا، هناك لذة كبرى، لذة طافحة في التألّم أيضا وفي إيلام النفس؛ وحيثما يدع الإنسان نفسه

ينساق إلى نكران الذات بالمعنى *الديني*، أو إلى بتر أعضائه وتشويه جسده كما لدى الفينيقيين والنسّاك، أو إلى شتى أنواع التجرد من الحواس ونبذ الجسد عموماً، وإلى طقوس الندم، وتشنّجات الكفّارة الطهرانيّة، وتشريح الضمير وتجريحه، وإلى الـ sacrificio dell'intelletto -التضحية بالعقل- على منوال باسكال؛ حيثما يُقنع الإنسان نفسه بمثل هذه الأشياء يكون منجذباً سريّا إلى ذلك الأمر ومدفوعاً إليه بواسطة شناعته، أي بواسطة تلك الرعشة الخطيرة للشناعة *الموجّهة ضد الذات*. ولنضعْ في اعتبارنا أخيراً أن طالب المعرفة نفسه، وهو يرغم عقله على المعرفة متعسفاً بذلك على ميوله، وغالبا على رغبات قلبه أيضاً-أي أن يقول لا، حيث يريد في الحقيقة أن يقول نعم، وأن يحبّ ويعبُد-، إنما يتصرف هنا كفنان ورجل يتقن منح الشناعة وجهاً مشرقاً. فكل محاولة للمضي إلى عمق الأشياء وجوهرها هي ضرب من الاغتصاب، وإرادة إيلامٍ لإرادة العقل الأساسية التي تنحو دوماً إلى الظاهر والسطح؛ -في كل إرادةِ معرفة هناك قطرة من الشناعة.

230

ربما لا يمكن فهم ماقلته آنفاً عن «الإرادة الأساسية للعقل» دون مزيد توضيح. لتسمحوا لي إذًا بأن أقدم هذا التوضيح. ذلك الشيء الآمرُ الذي يسميه الشعب «عقلاً» يحبّ أن يكون سيّداً على ما حوله وأن يشعر بنفسه سيّداً: يريد المضي من التعدد إلى الوحدة بإرادة توليفيّة ملزِمة نازعة إلى السيادة ومسيطرة حقًّا. وحاجياته وقدراته في هذا المضمار هي نفس ما أقرّه علماء الطبيعة من حاجياتٍ وقدرات لدى كل ما يحيا وينمو ويتكاثر. وتتجلى طاقة العقل على تقبّل كل

غريب واحتوائه في نزوعه القوي إلى جعل الجديد مماثلا للقديم، وإلى تبسيط المركّب وإهمال كل مناقض بالكل أو إقصائه؛ تماماً كما يؤكد عمداً على ملامح وقسمات بعينها من كل عنصر من «العالم الخارجي» ويبرزها بشدة ويزوّرها بحسب ما يلائمه. يتجه غرضه في ذلك كله إلى احتواء «تجارب» جديدة، وإلى إدراج أشياء جديدة داخل خانات قديمة، -إلى النموّ إذاً، أو بصفة أدق إلى *الإحساس* بالنموّ، إلى الإحساس بالقوّة المتزايدة. هذه الإرادة نفسها تجد ما يخدمها في نزوع آخر يبدو في الظاهر مناقضا للعقل: قرارٌ فجائي بالانكفاء على الجهل وبانغلاق متعمّد، وغلقٌ لكل النوافذ ورفض جوّانيّ لهذا الشيء أو ذاك، تصدّ لكل محاولات الاقتراب، ضرب من حالة دفاعية ضد العديد مما يمكنه أن يُعرف، رضى وارتياح إلى العتمة وإلى الأفق المغلقة، استجابة بالإثبات للجهل وترحيب به. أما إلى أي حد تكون هذه العمليات كلها ضرورية بالنسبة له، فذلك ما يظل مرتبطاً بقدراته على الاحتواء، و«طاقته على الهضم»- بعبارة مجازيّة. -وبالفعل فإن العقل أشبه ما يكون بمعدة. هناك أيضاً رغبة العقل في الانخداع، ربما مع حدس ماكر بأن الأمر قد لا يكون على هذا النحو حقّا، وأننا نحن الذين نجعله يكون على هذا النحو؛ متعة يجدها المرء في اللايقين والالتباس، والتذاذٌ بهيج بالانزواء الإرادي في الضيق وبغموض الركن المعتم، بما هو قريب، بالسطحي، وبكلّ مكبَّر، وكلّ مصغَّر، وكلّ محوَّل عن موقعه ومجمَّل؛ متعة في الطابع الإراديّ لكل هذه التجليات لإرادة القوة. وأخيراً، يتدخل هنا أيضا النزوع المشبوه للعقل إلى مغالطة عقول أخرى والظهور أمامها في صورة مضلِّلة، ذلك الضغط والدفع الدائمان في كل طاقة خلاقة، مشكِّلة ومبدِّلة؛ يلتذ العقل هنا بمُكرهِ ويتعدد أقنعته؛ ويستمتع فيها بإحساس بالأمان أيضاً، ففنونه

التنكريّة هذه بالذات هي التي تضمن له التحصّن والخفاء على أفضل وجه! -ضد هذه الإرادة المتجهة نحو التبسيط والقناع والمعطف، وباختصار نحو السطح-إذ كل سطح معطفٌ- يشتغل ذلك النزوع الجليل لطالب المعرفة الذي يريد تناول الأشياء تناولا عميقاً متعدد الجوانب كضرب من شناعة الضمير والذوق العقليّين سيعترف كل مفكر شجاع بوجودها في نفسه، شريطة أن يكون قد درّب عينه لمدة طويلة، كما هو منتظر منه، على المتانة والدقة في النظر إلى نفسه، وأن يكون قد تعوّد على التربية الصارمة، وعلى الكلمة الصارمة. سيقول عندها «هناك شيء شنيع في نزوع عقلي»! - ليعمل الفضلاء والناس اللطيفون على محاولة إقناعه بأن الأمر ليس كذلك! إذ، سيكون من الألطف على مسامعنا أن يروّج الناس عنّا، نحن المفكرين الأحرار، الأحرار جدًّا، عوضا عن الشناعة كلاما يغتابوننا فيه ويتهامسون ويشيعون فيه حولنا «إسرافا مفرطاً في النزاهة» مثلا؛ فسيكون لذلك وقع ألطف، ولعله يغدو حقّا ذات يوم -مجدنا الباقي. وفي الانتظار -إذ ما مايزال لدينا متسع من الوقت حتى ذلك الحين- سنحترس من أن ندع أنفسنا ننساق إلى إغراء هذه الحلية البراقة من العبارات الأخلاقية؛ فعملنا ظل حتى الآن يمنعنا من مثل هذا الذوق بالذات وحلاوةٍ بذخه. إنها عبارات جميلة برّاقة ورنّانة: النزاهة، حب الحقيقة، حب الحكمة، التضحية من أجل المعرفة، بطولة الرجل الصادق، -عبارات فيها ما يجعل كبرياءنا تنتفخ. غير أننا، نحن النساك المتوحّدين وجنس المراميط قد حصلت لنا منذ زمن طويل قناعة في عمق ضمائرنا النُسكيّة بأن هذه الفخفخة اللفظية جزء من حلْية الكذب القديمة، ومسوح زينةٍ بالية للغرور الإنساني اللاواعي، وأنه لابد أن نرسل نظرنا خلف ومن خلال هذه الألوان المغرية

وطبقات الأصباغ المتراكبة ونتعرّف على النص الأصلي الفظيع للـ *homo natura* (إنسان الطبيعة). أن نعيد ترجمة الإنسان داخل المتن الطبيعي؛ أن نتملك بالتأويلات والمعاني الثانوية العديدة الدعيّة والمجنّحة، التي ظلت تصاغ وتلوَّن حتى الآن حول النص الأصلي لإنسان الطبيعة؛ وأن نعمل على أن يقف الإنسان اليوم أمام الإنسان على غرار وقوفه اليوم أمام بقيّة الطبيعة، بقسوته المكتسبة من خلال التربية العلمية، بعيني أوديب الجريئتين وبأذنيْ عوليس؛ أصمَّ أمام النداءات المغرية لصيادي العصافير من الميتافيزيقيين الذين طالما همسوا له بمعزوفتهم: «إنك شيء أكبر! إنك أسمى! إنك من أصل آخر مغاير!» -قد تكون هذه مهمة غريبة وجنونية، إلا أنها *مهمة*؛ من تراه سينكر هذا؟ لِم اخترنا هذه المهمة الجنونية؟ أو بعبارة أخرى: «لِم المعرفة أصلا؟»- هكذا يمكن لأي شخص أن يسألنا. أما نحن، وتحت ضغط السؤال وإلحاحه، نحن الذين طرحنا على أنفسنا مئة مرة هذا السؤال، لم نجد ولن نجد جواباً أفضل...

231

إن التعلّم يغيّرنا، وهو يفعل ما يفعله كل غذاء لا «يؤمّن البقاء» فحسب -كما يعرف الفزيولوجي. لكن هناك في داخلنا، «في عمق أعماقنا» شيء لا يمكن تعلّمه، صخرةُ قدرٍ عقليّ لقرارات محدّدَة مسبقاً وأجوبة عن أسئلة محددة مسبقاً. وأمام كل مشكلة أساسية يتدخل ذلك الشيء الذي يقول «ذاك أنا»؛ فحول المرأة والرجل مثلا ليس هناك ما يمكن للمفكر أن يعيد النظر في تعلّمه، بل هناك شيء يجب أن يمضي في تعلمه حتى النهاية؛ -أن يُتمّ اكتشاف ما هو «ثابت» لديه. ونحن نجد في الوقت المناسب حلولا لمشاكل تجعلنا

أقوى إيماناً؛ ربما نسمي تلك الحلول منذ ذلك الحين «قناعاتنا». لكننا لن نرى فيها في ما بعد سوى آثار أقدامنا على الطريق إلى معرفة ذاتنا، وعلامات تقودنا إلى المشكلة التي هي *نحن*، -أو على الأصح إلى الحماقة الكبرى التي هي نحن، إلى قدرنا العقلي، وإلى ذلك الذي لا الذي لا *يحصَّل بتعليم*، هناك في «عمق أعماقنا». وبسبب هذا اللطف الكبير الذي تعاملتُ به الآن مع نفسي، ربما يُسمح لي أن أصرّح ببعض الحقائق حول «المرأة في ذاتها»؛ مع افتراض أن الجميع على علم مسبقًا بأنها ليست شيئا آخر سوى -حقائقي الخاصة.

232

تريد المرأة أن تصبح مستقلّة: ومن أجل ذلك تشرع في تنوير عقول الرجال حول «المرأة في ذاتها»؛ وهذا أسوأ أشكال تطوّر القبح العام الذي يغزو أوروبا. إذ كم من أشياء ستكشفها المحاولات الرعناء للعلم الأنثويّ والتعرية الذاتية! فللمرأة دواعٍ عديدة للخجل؛ في خفايا المرأة الكثير من الحذلقة والسطحية وطِباع المدرّس، والوقاحة المبتذلة، والاستهتار الحقير، والغرور (لننظر فقط في علاقتها بالأطفال) التي ظل يكبح جماحها *الخوف* من الرجل ويقيّدها على أفضل وجه. والويل إذا ما وجد ذلك «المضجر الأبدي»[*] (وهو وفير لديها) إمكانيّة لكي يجرؤ على الظهور، وإذا ما شرعت في التخلي جوهريا وبصفة جذرية عن مهارتها وإتقانها لفنون الدلال واللعب وصرف المشاغل وتخفيف الهموم وأخذ الأمور مأخذا مرِحاً، وعن مهارتها في كل ما يتعلق بالرغبات المحبَّبة! وإننا لنسمع منذ الآن

(*) تحريف لعبارة «الأنثى الخالدة» المعروفة

أصواتاً نسويّة بدأت تعبر عن نفسها بصوت مرتفع يبعث على الذعر، وحقّ أريستوفان المقدّس!، أصوات تهدد بوضوح طبّيّ بما تريده المرأة في المقام الأول والأخير من الرجل. أليس من سوء الذوق بما لا يقارَن أن تجهد المرأة نفسها على هذا النحو كي تتشح بوشاح العلميّة؟ فمسألة التنوير والمعرفة ظلت حتى الآن، لحسن الحظ، شأناً رجاليّا، وموهبة للرجال، وهكذا ظل المرء «بين ذويه» دوماً. ويحق لنا بالأخير إزاء ما تكتبه النساء عن «المرأة» أن نعبر عن ارتياب مشروع في ما إذا كانت تريد حقّا أن تكون موضوعاً للمعرفة -وتستطيع أن تريد ذلك... وإن لم تكن تبحث لنفسها من وراء ذلك بالأحرى عن *حلية* جديدة -وأعتقد فعلا أن التزيّن من خصائص «الأنثى الخالدة»-؟ تريد إذًا أن تثير الخوف من نفسها، وربما تريد من وراء ذلك السيطرة. لكنها لا تريد الحقيقة؛ إذ أيّ شأن للمرأة في الحقيقة! فلا شيء أغرب عن المرأة منذ البدء، ولا شيء ينفّرها ويثير عدوانيتها مثل الحقيقة؛ إن فنها الأكبر يتمثل في الكذب، وأرقى ما يشغل اهتمامها هو المظهر والجمال. لنقرّ بهذا، نحن الرجال: إننا نحب *هذا* الفنّ بالذات وهذه الغريزة الأنثوية بالذات؛ نحن الذين نتحمل مهمة شاقة، ومن أجل التخفيف والترويح عن أنفسنا نحبذ معاشرة كائنات لملامسة أيديهن ونظراتهن وحماقاتهن اللطيفة ما يجعل جديّتنا وثقلنا وعمقنا تبدو لنا أشياء شبيهة بالجنون تقريباً. وفي الختام أطرح هذا السؤال: هل حصل أن أقرّت امرأة في يوم ما بالعمق لعقل امرأة وبالعدل لقلب امرأة؟ أوليس صحيحاً أن «المرأة» في العموم ظلت حتى الآن محتقرة من قِبل المرأة نفسها في أغلب الأحيان، لا من قِبلنا نحن؟ -أمّا نحن الرجال فكل ما نتمناه هو أن لا تستمر المرأة في كشف ما يفضحها من خلال ما تقوم به من استكشاف لنفسها: إنه نفس التعطّف الرجالي والرفق

بالمرأة الذي جعل الكنيسة تسنّ: *mulier taceat in ecclesia* -لتمسك المرأة عن الكلام داخل الكنيسة! وكان من صالح المرأة أيضاً أنْ أمر نابليون مدام دي ستايل، وكانت ذربة اللسان: *mulier taceat in politis* لتمسك المرأة عن الكلام في السياسة! -وأعتقد أنّ من كان صديقاً حقيقيّا للمرأة سينادي بهنّ اليوم: لتمسك المرأة عن الكلام عن المرأة!

233

سيكون ذلك دليلا عن فساد في الغريزة-ناهيك عن كونه فساداً في الذوق- أن تتخذ امرأة مرجعيّةً لها في مدام رولاند، أو مدام دي ستايل أو مسيو(*) جورج صاند، كما لو أن في ذلك ما يدل عن شيء *لصالح* «المرأة في ذاتها». في نظر الرجال تمثل الحالات الثلاث المذكورة النماذجَ الثلاثة لـ«المرأة *الشاذة* في ذاتها» -ليس أكثر- وهن بالذات *الحجة المعاكسة* اللاإرادية ضد تحرر المرأة والاستبداد الأنثوي.

234

الغباء في المطبخ؛ المرأة كطبّاخة؛ ويا للإهمال الشنيع الذي يُعدّ به طعام العائلة ورب البيت! إن المرأة لا تعرف ماذا تعني التغذية وتريد مع ذلك أن تكون طباخة! ولو كانت المرأة قادرة على التفكير لكان بوسعها، كطباخة على مدى آلاف السنين، أن تكتشف حتماً المسائل الفزيولوجية الأساسية، وأن تكتسب فن المداواة! فبسبب الطباخات

(*) جورج صاند هو الإسم المستعار الذي عُرفت به أمانتين أورور (Amantine Aurore Lucile Dupin) الروائية والناقدة الفرنسية (١٨٠٤-١٨٧٦). من هنا استقى نيتشه صيغة تهكمه باستعمال عبارة «مسيو» عند ذكر اسمها.

السيئات، والافتقار الكلي إلى الحكمة في المطبخ تعطّل تطور الإنسان لأطول ما يمكن من الزمن، ولحق به أسوأ ما يمكن من الضّرر: وليست الأمور أفضل حالا اليوم مما كانت عليه من قبل. -كلمة لبنات الطبقة الراقية.

235

هناك صيغ تعبيرية وومضات عقلية، وهناك مقولات، وقبضة من كلمات تتكثف داخلها حضارة بكليتها ومجتمع بأسره؛ من بينها تلك الكلمة التي ألقت بها مدام دي لومبير إلى ابنها: «عزيزي، لا تسمح لنفسك إلا بالحماقات التي تمنحك متعة كبرى»: وهي بالمناسبة، الكلمة الأكثر أمومة وذكاء مما قيل لابن مطلقاً.

236

لا أشك في أن كل امرأة نبيلة ستعارض رأي كل من دانتي وغوته حول المرأة؛ الأول بقوله: «كانت تنظر إلى الأعلى، وكنت أنظر إليها»(*)، والثاني بـ: «الأنثى الخالدة تسحبنا *إلى الأعالي*»(**)، ستعارضه لأن لها الرأي نفسه حول الذكر الخالد...

(*) دانتي أليغييري: الكوميديا الإلهية- الكتاب الأول: الفردوس؛ النشيد الأول -البيت ٢٢، مع شيء من التبديل. يقول دانتي: «وكانت بياتريس تنظر إلى الأعلى، وكنت أنظر إليها» *Beatrice in suso, e io in lei guardava* -

(**) J.W. von Goethe: Der Tragödie, zeite Teil-Kapitel 64:
"Das ewige-Weibliche £ Zieht uns hinan".

237
سبعة أقوال مأثورة عن النساء

إن خرّ لكِ الرجل راكعاً، ذهب عنك أثقلُ الضجر.

*

العمر-للأسف!- والعلم أيضاً يمنحان قوةً لأضعف الفضائل.

*

العباءة السوداء والصمت أفضل كساء لكل امرأة.

*

لمن يعود الفضل في سعادتي؟ -لله! ولخيّاطتي.

*

شابةً: مخزن أزهار سريّة. عجوزاً: مخبأ تنّين فظيع.

*

إسم نبيل وقوام رشيق... ورجلٌ إضافة إلى ذلك: آه، ليته لي!

*

حديث قصير ومعنى واسعٌ: جليدٌ زلِقٌ للجحشة الغبية!

237 ب

ظلت المرأة تُعامَل من قبل الرجل حتى الآن كعصفور وقع عليه خطأً من سماء ما: شيء رقيق، هشّ، متوحّش، عجيب، لذيذ، مفعم أحاسيس؛ -لكنه شيء يجب أن يُحبَس في قفص كي لا يطير ويفرّ.

أن يخطئ المرء في المسألة الأساسية التي تتعلق بـ«الرجل والمرأة»، وأن ينكر التناقض الجوهري بينهما وحتمية التوتر العدائي الدائم الذي يسود علاقتهما ببعضهما، وأن يحلم ربما بمساواة في الحقوق ومساواة في التربية ومساواة في الطموحات والواجبات؛ فتلك علامة مميّزة لعقل مسطح، وكل مفكر يتضح أنه سطحيّ في هذا الموضع الخطير بالذات -سطحي الغريزة!-، ينبغي أن يعتبر مشبوهاً، بل أكثر من ذلك أنه بذلك يكون قد فضح أمره بنفسه وكشف عن حقيقته؛ ولعله سيبدي «قصوراً» عقليّا في كل المسائل الأساسية للحياة عموماً، بما في ذلك الحياة المستقبلية، ولن يستطيع النفاذ إلى عمق الأشياء. بينما كل من كان له عمق في العقل، كما في رغباته، وله أيضا ذلك العمق في العطف الذي يكون قادراً على الصرامة والقسوة أيضاً، حتى أنه ليشبَّهَ للناس فلا يميّزونه عنهما، ذاك لا يستطيع أن يفكر في المرأة إلا *كشرقيّ*: سيكون عليه أن ينظر إلى المرأة كممتلَك، كمتاع يمكن أن يُحبَس، كشيء مجبول للخدمة ولا يحقق اكتماله إلا فيها؛ -سيكون عليه أن يستند إلى العقل الآسيوي الرهيب، وإلى تفوق الغريزة الآسيوية كما فعل الإغريق من قبل، أولئك الذين كانوا أفضل ورثةٍ وتلامذةٍ للشرق، وما انفكوا منذ عصر هوميروس حتى زمن بيركليس، مع تقدم حضارتهم واتساع مجال قوتهم، يطورون باستمرار *صرامةً أشد* تجاه المرأة، أي يتحولون أكثر فأكثر إلى شرقيّين. كم كان ذلك ضروريّا، ومنطقيّا، وكم كان مستحبًّا من الناحية الإنسانية! - فلنتفكر في ذلك بيننا وبين أنفسنا!

لم يسبق للجنس الضعيف على مر العصور أن لاقى معاملة بهذا الاحترام من قِبل الرجال مثل ما يعامل به في عصرنا الحاضر، ويعود هذا إلى ديمقراطية ميولنا وذوقنا العام، تماماً كما هو الشأن بالنسبة لقلة احترامنا للشيخوخة. فما العجب إذا ما انقلب الأمر بسرعة إلى سوء استعمال لهذا الاحترام. فالمرأة تريد الآن أكثر من ذلك، وقد تعلمت أن تكون متطلبة، بل إن هذا الاحترام كاد بالنهاية أن ينقلب في عينها إلى إساءة، فقد غدت تفضل المنافسة، بل الصراع من أجل الحقوق، وباختصار: إن المرأة بصدد فقدان الحياء. ولنضفْ مباشرة أنها بصدد فقدان ذوقها أيضاً. لم تعد تعرف الخوف من الرجل؛ لكن المرأة التي «تنسى الخوف» تدفع ثمن ذلك من غرائزها الأكثر أنوثة. وإذا ما غدت المرأة أكثر فأكثر جرأة عندما يفقد الرجل ما يثير الخوف فيه، أو لنقل عندما يصبح *الرجوليّ* في الرجل أمراً غير مرغوب ولا يحبَّذ تربيته فيه، فإن ذلك شيء منطقي جدّا، ومفهوم جدّا؛ أما ما يظل عسيراً على الفهم في ذلك فهو أن المرأة تنحط بسبب هذا الأمر بالذات. يحدث هذا اليوم؛ فلا ندعنّ أنفسنا نخطئ في هذا الأمر! إذ حيث تكون الروح الصناعية قد تغلبت على الروح العسكرية والأرستقراطية، تنزع المرأة نحو الاستقلالية القانونية والاقتصادية للمستخدَم: «المرأة كمستخدَم» تقف على بوابة المجتمع الحديث الذي هو الآن في طور التشكّل. وفيما هي تنتزع على هذا النحو حقوقاً جديدة وتنزع إلى أن تصبح «سيّداً»، وترسم شعار «تقدم» المرأة على رايتها ولافتاتها الصغيرة، نجدها تنجز بدقة غريبة عكس ذلك تماماً: أي إن *المرأة في تقهقر مطرد!* فمنذ الثورة الفرنسية قد أصبح تأثير المرأة في أوروبا *أقل* بكثير مما اكتسبت من حقوق وتطلعات؛ وقد اتضح أن «تحرر المرأة»

طالما ظلت النساء أنفسهن هن اللاتي ينادين ويطالبن به (وليس رجال من مسطحي العقول)، قد اتضح على هذا النحو أنه عرَض غريب عن ضعف متزايد وفتور في الغرائز الأكثر أنوثة. هناك *حماقة* في هذه الحركة، ما يقارب حماقةً ذكوريّةً سيكون على كل امرأة سليمة التكوين -أي امرأة ذكية بالضرورة- أن تخجل منها عميق الخجل. أن تفقد المرأة الحدس الذي يدل على الأرضية الأكثر ضماناً للانتصار؛ التخلي عن الدربة على فنونها الحربية الخاصة، والانسياق إلى لعبة الرجال، ربما «وصولا إلى الكتب»، عوضا عما كان لها في ما مضى من تحفّظ وتواضع رهيف ماكر؛ التصدي بضراوة بصفاقة متعفّفة لاعتقاد الرجل بوجود مثل أعلى مختلف جوهريا يختفي في أعماق المرأة، وشيء من أنوثة ضرورية خالدة؛ العمل بكل إصرار وثرثرة ملحّة على إقناع الرجل بالتخلي عن فكرته بأن المرأة أشبه بحيوان أهلي لطيف غريب التوحش ومحبَّب ينبغي رعايته والسهر عليه وحمايته والرفق به؛ وسعيها المحموم وباستياء لتجميع كل ما يذكّر بالعبودية والتبعية الجسدية التي كانت وما زالت تميز وضع المرأة داخل النظام المجتمعي (كما لو أن العبودية حجّة ضد الحضارة الراقية، وليست بالأحرى حجة لصالحها وشرطاً لكل حضارة راقية، وكل ارتقاء بالحضارة): ماذا تعني كل هذه المواقف التي ذكرناها آنفا، إن لم تعْن تصدّعاً في الغرائز الأنثوية، وانسلاخاً عن الأنوثة؟ حقّا، هناك عدد غير قليل من حمقى المناصرين للمرأة ومفسدي الأنثى من بين حمير الذكور المتعلّمين، الذين ينصحون المرأة بالانسلاخ عن أنوثتها على هذا النحو وباقتفاء أثر الرجل في كل الحماقات التي أصابت «الرجل» و«الرجولة» في أوروبا بالمرض والانهاك؛ ويريدون الانحطاط بها إلى مستوى «الثقافة العامة»، بل وأسوأ من ذلك إلى قراءة الصحف والاهتمام بالسياسة.

بل يوجد هنا وهناك حتى من يريد أن يجعل من النساء عقولا حرة وأديبات؛ كما لو أن امرأة بلا تقوى ليست شيئا كريها للغاية ومضحكاً في نظر رجل عميق وملحد! كما أنهم، وفي كل مكان تقريباً يرهقون أعصابهن بأشد أنواع الموسيقى مرضاً وخطراً (موسيقانا الألمانية الحديثة)، ويجعلونهنّ يوما بعد يوم أكثر فأكثر هسْترة وأقل قدرة على مهمتهنّ الأولى والأخيرة المتمثلة في إنجاب أطفال معافين وأقوياء. يريدون «تثقيفهنّ» وبذلك يجعلون بواسطة الثقافة من الجنس الضعيف جنسا *قويّا*، كما يزعمون؛ كما لو أن التاريخ لا يعلمنا بأقصى ما يمكن من الإلحاح أنّ «تثقيف» الإنسان وإضعافه-أي إضعاف وتفتيت وإصابة *قوة الإرادة* بالوهن- يمضيان قَدماً بقدم، وأن اقوى النساء وأكثرهن تأثيراً (مثل أمّ نابليون كمثال أخير) مدينات في قوتهنّ وسلطتهنّ على الرجال لقوة الإرادة، -وليس لمعلّمي المدارس! إن ما يوحي بالاحترام في المرأة، وبالرهبة غالباً، هو *طبعها* الأكثر «طبيعيّة» من طبع الرجل، ومرونة الوحش فيها وحيلته، ومخالب النمر تحت القفّاز، وسذاجة أنانيتها، ووحشيتها الداخلية المتعذّرة على التربية والترويض، والاتساع الهائل اللامحدود المتبدّل لرغباتها وفضائلها التي تتعذّر على الإدراك... لكنّ ما يجعل تلك القطة الخطيرة والجميلة جديرة بالشفقة، بالرغم مما توحي به من مخاوف، هو أنها تبدو أكثر عرضة للألم، أكثر هشاشة، أكثر حاجة إلى الحب، وأنها أكثر من حُكم عليه بالخيبات من بين كل الحيوانات. الخشية والشفقة: بهذيْن الإحساسين ظل الرجل على الدوام يقف أمام المرأة بقدم في التراجيديا التي تمزّق القلب، فيما هي تسحر وتخلب. -ماذا! أينبغي لكل هذا أن ينتهي؟ أيكون العمل على تجريد المرأة من سحرها ماضٍ على قدم وساق الآن؟ أنكون بصدد تحويلها شيئا فشيئا إلى كائن مضجر؟ أواه

أوروبا! أوروبا! الجميع يعرف ذلك الحيوان ذي القرنين الذي كانت له على الدوام أكبر جاذبية عليكِ، والذي كانت تتهددك منه الأخطار على الدوام! ربما سيكتب لأسطورتك القديمة أن تتحول مرة أخرى إلى «تاريخ»؛ ومرة أخرى قد يكون لحماقة هائلة أن تفرض سيطرتها عليك وتمضي بك إلى حتفك! كلا، ما من إله يختفي تحت هذه الحماقة! بل مجرّد «فكرة»، «فكرة حديثة»، لاغير! . . .

الفصل الثامن

شعوب وأوطان

240

استمعت مرة أخرى، وكما للمرة الأولى دوماً، إلى افتتاحية «أسياد الغناء» (die Meistersinger)(*): إنه فنّ فاخر، مشحون وحديث، له من الاعتداد بالنفس ما يجعله يشترط ذاكرة قرنيْن من الموسيقى الحية كي يكون بوسع المرء أن يفهمه: وإنه لمما يشرّف الألمان أن هذا الاعتداد بالنفس لم يكن مخطئا في حساباته! أيّ نسغ وقوة! وأيّ فصول ومناطق مناخيّة تجد نفسها متمازجة هنا! موسيقى تبدو لنا قديمة حيناً وغريبة حيناً آخر، حامضة ونيّئة، فتيّة غرّة، وهي في الآن نفسه تجريبيّة بقدر ما هي تقليدية على نحو طنّان، ماكرة كيّسة في حالات غير نادرة، خشنة في أغلب الأحيان وفجّة؛ متوقّدة مقدامة، وفي الآن نفسه برخاوة قشرة الثمار التي نضجت بعد الأوان. تتدفق فسيحةً وممتلئةً، وفجأة تغدو للحظة مترددة تردداً لا يُفهم له

(*) Die Meistersinger أوبرا لريشارد فاغنر (السابعة من مجموع ١٠ أوبرات)، وتعد العمل الكوميدي الثاني له بعد Das Liebesverbot (ممنوع الحب). استمد فاغنر عنوان هذا العمل الموسيقى من إسم رابطة مغنين ألمان من القرن السادس عشر، ويجسد من خلاله الصراع بين العقول المحافظة والأخرى التي تنشد االتجديد والتقدم.

سبب، مثل فراغ يحدث داخل سلسلة الأسباب والنتائج؛ ضغطٌ ما يجعلنا نحلم، شيء شبيه بكابوس، لكن هاهو السيل القديم للانشراح سرعان مايعود إلى التدفق والتمدد والاتساع، سيل انشراحٍ متنوّع الأوجه وسعادةٍ قديمة وجديدة ينضاف إليها *وافرٌ* من سعادة الفنّان واغتباطه بذاته، سعادة لم يعد يرغب في إخفائها، غبطة دهشة يبدو أنه يقاسمنا إياها لتملّكه بالوسائل التي غدا يستعملها هنا، وسائل فنية جديدة مكتسبة توًّا وغير مجرّبة بعد. وفي المجمل، ما من جمال هنا، وما من جنوبٍ، لا شيء من الإشعاع الرهيف للسماء الجنوبية المشرقة، ما من رشاقةٍ، ما من رقص، وما من إرادة للمنطق تقريباً؛ بل شيء من الثقل، مع إلحاح واضح على جعله حاضراً، كما لو أن الفنان يريد أن يقول لنا: «إنني أتعمّد ذلك»؛ ضرب من الجوْخ الثقيل، شيء ذو طابع متوحّش قصديّ ومُفاخِر، بريق نفائس عالِمة ومهيبة ودانتيلا رفيعة؛ شيء ألماني بأفضل وأسوإ ما للعبارة من معنى، شيءٌ من الطراز الألماني مركّبٌ، غير ذي شكل، وغير مستنفَد؛ نوع من القوة الساحقة وزخم ثراء روحيّ ألمانيّ لا يخيفه التخفّي تحت رهافة الانحطاط، بل ربما لا يشعر بنفسه على أفضل حال إلا في ذلك؛ تعبير حقيقي وصادق عن الروح الألمانية الفتية والمتقادمة في الآن نفسه، مفرطة النضج حد الترهّل ومفعمة بثراء المستقبل في الآن نفسه. هذه الموسيقى تعبّر كأفضل ما يكون عن فكرتي عن الألمان: إنهم من أهل أوّل أمس ومن بعد غدٍ -لا *حاضرَ لهم بعدُ*.

241

نحن «الأوروبيين الحقيقيّين»، لنا نحن أيضا ساعات نسمح فيها لأنفسنا بأحاسيس وطنية متوفّزة، وبتقهقرٍ وانتكاسة تعيدنا إلى زوايا

ضيّقة قديمة-وقد قدّمت قبل حين مثالا عن ذلك-، بساعات من الهيجان القومي وتوترات الأحاسيس الوطنية ومن فيضان المشاعر البالية. أما لدى العقول الأكثر ثقلا فإن ما ننتهي منه نحن في بضع ساعات سيطلب منهم مدة زمنية طويلة؛ نصف سنة لدى هؤلاء، ونصف العمر لدى الآخرين، وذلك بحسب الطاقة والسرعة التي يتطلبها الهضم و عملية «الأيْض» لديهم. أجل، بل بإمكاني أن أتصور أعراقاً ثخينة مترددة، حتى داخل قارتنا الأوروبية المتعجّلة، ستحتاج إلى نصف قرن كي تتجاوز تلك النوبات السلفية للتعصب الوطني والتعلّق برقعة الأرض، وتثوب إلى رشدها، أعني إلى «الاختيار الأوروبي الصحيح». وبينما أدع نفسي أنساق إلى التفكير في هذا الاحتمال، يتناهى إلى سمعي حديث بين رجلين «وطنيّيْن». ويبدو أنهما كانا ثقيليْ سمع فكانا يتكلمان بصوت مرتفع: «أما *هذا* فلا يفقه في الفلسفة أكثر من مُزارع أو تلميذ مدرسة عسكرية، قال أحدهما؛ إنه ما يزال بريئا. لكن أي أهمية لهذا اليوم! إنه عصر الجماهير، والجماهير تنبطح أمام كل ما هو جماهيري. ولا يختلف الأمر في السياسة أيضاً، فكل رجل دولة يشيّد لهم برج بابل جديد، أو أيّة فظاعة تتجسد في امبراطورية وسلطان قويّ، يسمّى لديهم «عظيماً»؛ فما أهمية أن نظل نحن الأكثر حذراً وتحفظا متمسكين مؤقتا بإيماننا القديم بأن الفكرة العظيمة وحدها هي التي تحدد عظمة هذا الأمر أو ذاك الفعل. لنفترض أن رجل دولة يزج بشعبه في مشروع سياسة عظمى، دون أن يكون ذلك الشعب مهيّأ من حيث طبيعته لذلك الأمر، بحيث يكون عليه أن يضحي بفضائله القديمة الثابتة من أجل رداءات جديدة غير موثوقة؛ ولنفترض أن رجل دولة يحكم على شعبه بـ«تعاطي السياسة» عموما، في حين كان هذا الأخير حتى ذلك الحين

منشغلا بمسائل أخرى أهم وأنفع في نظره، ونفسُه لم تستطع بعد أن تتخلص من اشمئزازٍ عميقٍ الحذر من الاضطراب والفراغ وهرج المشاحنات الصاخبة التي تميز الشعوب المسيَّسة؛ -ولنفترض أن رجل الدولة هذا يحرّض شعبه ويستنهض أطماعه ورغباته الغافية، ويظل يصور له تحفظه القديم ورغبته في أن يظل محايداً كمعابة، وميلَه لما هو غريب وتطلعه الخفيّ إلى اللامتناهي كذنبٍ، ويبخّس ميوله العميقة، ويقلب وعيه، ويحدّ من أفق عقله ويجعل ذوقه «قوميًّا»، - ماذا! رجل دولة يفعل كل هذا، ويكون على شعبه أن يدفع ثمن أخطائه الآن وفي المستقبل البعيد -إذا ما افترضنا أنه سيكون له مستقبل أصلا- أيمكن لرجل دولة مثل هذا أن يكون *عظيماً*؟» -«من دون شك!»، يجيبه الوطنيّ الثاني بحماس، «وإلا لما *استطاع* أن يفعل كل هذا! قد يكون جنوناً أن يريد كل ذلك؟ لكن، لعل كل أمر عظيم لم يكن في بدايته غير جنون!» -«أيّ تعسف على الكلام هذا!» صاح فيه مخاطبه محتجّا: «قويّ بكل تأكيد! قويّ ومجنون! أما عظيماً *فلا*!» -يبدو أن العجوزيْن قد تحمسا كثيراً وهما يتقاذفان بالحجج والحجج المعاكسة صارخيْن؛ أما أنا، ومن موقع سعادتي وحيادي في هذه الخصومة، فكنت أقول لنفسي إنّ القوي سيجد عما قريب سيّداً عليه في من هو أقوى منه، وإن التسطّح العقلي لشعب ما يجد تعويضاً له في ما يكسبه شعب آخر من عمق.-

242

سواء سُمّي ما يميّز الأوروبي اليوم «حضارة» أو «أنْسنةً» أو «تقدماً»، فلنكتف بأن نسميه ببساطة ومن دون إطراء أو قدح، وبعبارة سياسية: حركة *ديمقراطية* أوروبية. فخلف الواجهات السياسية

والأخلاقية المعبَّر عنها بهذه الصيغة، هناك مسار لسيرورة فزيولوجية كبرى ما فتئت تنجز ذاتها يوماً بعد يوم: سيرورة تشابُه وتقارُب بين الأوروبيين؛ وانعتاقُهم المطّرد من الشروط التي تحدد نشأة أعراق توحدها العوامل المناخية والطبقيّة؛ وتحرّرُهم من كل محيط محدّد ظل لقرون عدة يحاول أن يطبع نفس المتطلبات على أجسادهم وأرواحهم: ما يعني نشأةً تدريجية لنوع إنساني فوق القوميات، متحرّك وعابر للبلدان، نوع يتمتع، بالمعنى الفزيولوجي، بمستوى أقصى من الطاقات والقدرة على التلاؤم كعلامة مميزة له. إن سيرورة الأوروبي الذي نشهد تشكله اليوم، والتي يمكن أن تعرقلها بعض حالات الانتكاس الكبرى في الأثناء، لكنها قد تستطيع بفضلها أن تكتسب مزيداً من التوقّد والعمق أيضا (وزوبعة فورة «الأحاسيس القومية» التي مازالت تزمجر اليوم واحدة من هذه الانتكاسات، مثلها مثل الفوضوية الصاعدة)؛ -هذه السيروة تمضي على ما يبدو باتجاه تحقيق نتائج قد تكون آخر ما يخطر على بال المنادين بها وممتدحيها السذّج من دعاة «الأفكار الحديثة». فهذه الشروط الجديدة التي ستتشكل في حضنها مساواة بين البشر، وينشأ فيها بالتالي إنسان وسطيّ رديء (حيوان قطيعي صالح للعمل، مسخّر على نحو متنوّع، وقابل للاستعمال لكل غرض)؛ هذه الشروط نفسها هي المؤهّلة أقصى ما يكون التأهّل لبروز الرجال الاستثنائيين من ذوي الخصال الأكثر خطراً والأكثر جاذبيّة. فبينما تؤدي تلك المقدرة على التكيّف، التي تظل على الدوام تمر بتجربة شروط متغيّرة باستمرار، ويكون عليها أن تبدأ مع كل جيل، بل وكل عقد تقريباً عملها من جديد، -تؤدي هذه المقدرة على التكيف إذاً إلى تعطيل وإلغاء كل إمكانية لبلوغ عظمة النوع الإنساني؛ وبينما سيصبح الطابع العام لهذا الأوروبي المستقبلي على الأرجح هو طابع

العمال الثرثارين ضعيفي الإرادة، الذين يحتاجون إلى سيّد وقائد حاجتَهم إلى خبز يومهم؛ أي بينما يمضي التحول الديمقراطي الأوروبي باتجاه تربية نمط مهيّأ *للعبودية* بالمعنى الدقيق للعبارة؛ سيصبح الإنسان القويّ، في حالات منفردة واستثنائية، أكثر قوة وأكثر ثراء مما كان عليه من قبل، وذلك بفضل خلوّ تربيته من الأحكام المسبقة، وبفضل التنوع الهائل المتاح أمامه في التعلم والتكيّف وتغيير الأقنعة. أعني بذلك: إن التحول الديمقراطي الأوروبي هو في الآن نفسه تهيئة لاإرادية لإعداد *طغاةٍ*، -وذلك بكل ما للعبارة من معانٍ، بما في ذلك المعنى العقلي الأرقى.

243

أسمع بكل سرور أن كوكبنا الشمسي يتقدم بسرعة فائقة مقترباً من كوكبة هرقل؛ وأتمنى أن يحاكي الإنسان فوق هذه الأرض حركة الشمس، وأن نكون، نحن الأوروبيين الحقيقيين في طليعة هذه الحركة!

244

مضى زمن اعتاد الناس فيه الإطراء على الألمان ونعتهم بالشعب «العميق». أما الآن، وقد أصبحت للنمط الألماني الجديد الأكثر نجاحاً طموحات مغايرة تماماً، وغدا كل من له عمق عديمَ الجرأة في نظره، فقد أصبح من المناسب ومن باب الوطنية تقريباً أن نشك في ما إذا لم يتم خداعنا سابقاً بذلك الإطراء؛ أو باختصار إن لم يكن ذلك العمق الألماني شيئا مغايراً وسيئا غدونا على وشك التخلص منه بنجاح، -والحمد لله. لنجرّب إذاً إعادة النظر في العمق الألماني؛

ونحن لا نحتاج في ذلك إلى شيء أكثر من قليل من تشريح النفس الألمانية. -إن النفس الألمانية في المقام الأول مركّبة ذات أصول مختلفة، أقرب إلى ركام عناصر عديدة مجمَّعة منها إلى المبنى الحقيقيّ؛ وذلك أمر يعود إلى أصلها. والألماني الذي سيجرؤ على القول «نفسان، وا أسفاه! تتجاوران في صدري!»[٣٢] سيكون قد أخطأ أشد الخطأ وهو يطرح جانباً عددا أكبر من النفوس. والألمان كخليط هائل وملتقى لأعراق مختلفة عدة، بل وربما مع هيمنة للعنصر ماقبل الآريّ، وبوصفهم «شعب الوسط» بكل معاني العبارة، كيان غير قابل للحصر، مستعصٍ على التحديد، أكثر تناقضاً وإبهاماً، متعذّر على التوقّع، قادر على كل أنواع المفجآت، بل أكثر شناعة من أي شعب آخر؛ -الألمان يفلتون من كل تعريف، مما يحيّر الفرنسيين ويبعث لوحده على اليأس لديهم. ومما يميّز الألمان أن السؤال «ما الألمانيّ؟» يظل يطرح نفسه لديهم دائما ولن يعرف نهاية. وقد كان كوتْسيبوي(*) عارفاً حق المعرفة ببني وطنه الذين هتفوا له: «ها قد عُرفنا على حقيقتنا»،- لكن صاند(**) أيضاً كان يعتقد هو الآخر أنه يعرفهم. وكان جون بول[٣٣](***) واعياً بما فعله عندما احتج بعنف على

(*) أوغست فريدريش فون كوتسيبوي (Kotzebue) مسرحي ألماني، محامي ورجل سياسة من النصف الثاني للقرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عمل كدبلوماسي ألماني في روسيا، ثم عميلا للمخابرات الروسية على إثر رجوعه إلى الأمانيا سنة ١٨١٧. تم اغتياله سنة ١٨١٩ في مدينة مانهايم على يد صاند. (م)

(**) كارل لودفيك صاند طالب علوم لاهوتية وعضو في جمعية طلابية للدفاع عن الحريات المدنية.

(***) يوهان باول فريدريش ريشتة (١٧٦٣-١٨٢٥)، المعروف باسمه المستعار: جون بول، كاتب ألماني

التزلف الكاذب لفيخته ومبالغاته المشطة -والوطنية مع ذلك،[٣٤] غير أنه من المحتمل أن غوته كان على رأي آخر حول الألمان حتى وهو يوافق جون بول فيما يتعلق بالموقف من فيخته. -وما هو رأي غوته حول الألمان في الحقيقة؟ لكنّ غوته لم يكن يعبر عن رأيه بوضوح حول أشياء كثيرة من حوله، وكان طوال حياته ملتزماً بالحفاظ على صمت رهيفِ التحفّظ: ولربما كانت له أسبابه الوجيهة في ذلك. لكن المؤكد هو أنه لم يكن يطرب لـ«القتال من أجل الحرية»، ولا للثورة الفرنسية أيضاً؛ والحدث الوحيد الذي جعله يعيد *النظر* في فاوست، وفي مشكلة «الإنسان» بكليتها هو ظهور نابوليون. وهناك كلمات من تلك التي يعبر فيها بقسوة وامتعاض عن رفضه للأشياء التي يعدّها الألمان مفخرتهم، كلمات تبدو كما لو أن رجلا أجنبيا هو الذي ينطق بها: وهل كان مخطئا مثلا عندما عرّف «النفسية الألمانية» (deutsche Gemüt) الشهيرة بوصفها «التسامح مع ضعف الغير والذات»؟ -إن ما يميّز الألمان هو أن المرء نادراً ما يكون مخطئا تماما في حقهم أيًّا كان حكمه عليهم. للنفس الألمانية ممرات وممرات فرعية، وفي داخلها مغاور، ومخابئ وزوايا مهملة؛ ولفوضاها الكثير من سحر الأشياء السرية الغامضة؛ والألماني عارف بالدروب الملتوية المؤدية إلى العماء (chaos). وكما أن كل شيء يحبّ المثال الذي يرمز إليه، فإن الألماني يحب الغيوم وكل ما هو معتّم، متحوّل، غسقيّ، رطب وغائم. وكل غامض وسديميّ ومتلكّئ النموّ يبدو له «عميقا». والألماني نفسه لا شيء، إنه صائر، شيء «في طور النموّ». لذلك فإن «التطور» هو المكتشَف الألماني الحقيقي وإضافتُه داخل المجال الفسيح للمقولات الفلسفية: مفهومٌ مسيطِر يسعى في تحالف مع البيرة الألمانية والموسيقى الألمانية إلى ألْمَنة أوروبا كلها. كل

الأجانب يقفون مشدوهين ومنجذبين أمام الألغاز التي تطرحها عليهم الطبيعة المتناقضة التي تسكن أعماق النفس الألمانية (تلك التي جعلها هيغل تنضوي داخل نظام فلسفي، ومنحها فاغنر أخيراً لحنها الموسيقي). «طيّب القلب وماكر» هذا التجاور الذي يعد منافياً للمعقول بالنسبة لكل الشعوب الأخرى يجد ما يثبته غالبا في ألمانيا؛ يكفي المرءَ أن يقيم مدة من الزمن بين الشوابيّين(*)! إن ثقل رجل العلم الألماني ورعونته الاجتماعية تتلاءم على نحو مفجع مع بهلوانية ذهنية لديه وجسارة طائشة ترتعد لها فرائص كل الآلهة. ومن يريد أن يرى «النفس الألمانية» مجسدة بادية للعيان عليه أن يمعن النظر في الذوق الألماني، وفي الفنون والتقاليد الألمانية: وأيّ إهمال قرويّ مناف «للذوق» سيتراءى له هناك! وأي تجاور للنبيل والعاميّ! وأيّة فوضى تسود هذا المسكن النفسي! إن الألماني يجرجر روحه مثل عبء؛ كما يجرجر كل ما يعيشه مثل حمل كريه. عسير الهضم لتجارب حياته، لا ينتهي من أمرها البتة؛ والعمق الألماني بالنهاية لا يعدو كونه عسر «هضم» طويل ليس أكثر. ومثل ما يكون عليه المرضى المزمنون والمصابون بعسر الهضم من ميل إلى الراحة، نجد الألمانيّ ميالا إلى «الصراحة» و«الاستقامة»؛ ولكم هو مريح أن يكون المرء صريحاً ومستقيماً! -ولعل هذه الخصلة هي أخطر وأنجع أنواع التنكر الذي يتقنه الألماني اليوم؛ هذه الألفة والانفتاح واللعب بأوراق مكشوفة، التي تميز *الاستقامة* الألمانية: تلك هي لعبته الشيطانية الحقيقية، وبواسطتها «يمضي بعيدا» في تحقيق أغراضه! فالألماني يدع

(*) هم سكان منطقة من الجنوب الغربي لألمانيا كانت مقاطعة مستقلة تحمل إسم شواب (Schwaben) في ما مضى. يعرف الشواب بجديتهم المفرطة واجتهادهم في العمل وتقشفهم، الذي أكسبهم سمعة البخلاء في ألمانيا.

نفسه ينساق وهو ينظر بعينين ألمانيتيْن زرقاوين وفيّتيْن وفارغتين- وسرعان ما يقع الأجنبي في الخلط بينه وبين لباس نومه! -أعني بذلك: أيًا كان «العمق» الألماني وكيفما كان -ولربما سنسمح لأنفسنا بأن نسخر منه فيما بيننا؟- سيكون من الأجدر بنا أن نظل نكبر هذا الأمر، وألا نقايض بأبخس الأثمان سمعتنا كشعب عميق بـ«الجسارة» البروسية أو بروح الهزل البرلينية ورمالها(*). وإنه لمن الفطنة أن يكوّن شعب عن نفسه ويدع الآخرين يكوّنون عنه سمعة شعب عميق،

(*) Berliner Witz، عبارة Witz من الكلمات التي يصعب ترجمتها بدقة ، فهي تعني السخرية والدعابة والظرف، والعبارة الصريحة التي لا تخشى الحدة والفجاجة. ربما سيكون من الأفضل استعمال «الروح البرلينية» هنا، فقد عرف سكان برلين خلال القرن التاسع عشر بما يسمى بـ«روح الدعابة البرلينية»، وهي خاصية لم يفت غوته أن يلاحظها منذ القرن الثامن عشر، وقد سجل ذلك في الـ«محادثات» متحدثا عن طبع البرلينيين الذي يتميز «بثقة في النفس وروح دعابة وسخرية لا يترددون في استعمالها دون تحفظ» (أنظر مارتن باومايستر بعنوان:
Martin Baumeister: "Berliner Witz" oder die Eigenlogik der Großstadt.
لكن ماذا يعني نيتشه بهذه العبارة الغريبة «روح الهزل البرلينية ورمالها»؟ في سياق كلامه عن «العمق» الألماني، أو العمق الذي ينفيه عن الألمان -وقد تعمد أن يضع الكلمة بين معقفين عل أية حال-؟ يذهب باومايستر في مقاله المذكور إلى تأويل أول مفاده أن «العمق الألماني» -الذي يقابل بينه وبين الجسارة البروسية والهزل البرليني- قد تم ردمه بتلك الروح البرلينية التي يمثلها بالرمل. ثم يضيف باومايستر في الهامش أن عبارة «رمال» قد تكون إحالة ضمنية على الإسم الساخر الذي كان يطلق على مقاطعة مارك براندنبورغ وهو: «صندوق رمل الإمبراطورية الرومانية المقدّسة» (Sandbüchse des heiligen römischen Reichs)، وكانت برلين في ما مضى جزء من مقاطعة براندنبورغ ولم تنفصل عنها بصفة متدرجة إلا ابتداء من سنة ١٨٧٥ (م).

أرعن، طيب السريرة، مستقيم، وساذج؛ بل ربما يكون ذلك عمقاً أيضا! وأخيراً، على المرء أن يشرّف إسمَه! فليس عبثاً أن يكون شعبٌ ما حاملا لاسم "tiusche"، أو ما يعني شعب «الخداع»...(**)

245

لقد ولى «الزمن الجميل القديم»، وقد غنّى آخر ألحانه مع موتزارت؛ وإننا لسعيدون غاية السعادة، *نحن* الذين مازال أسلوبه الزخرفي يعني لنا شيئا، و«معشرُه اللطيف» وشغفه الرقيق والمتعة الطفولية التي كانت له في الزينة والزخارف الصينية، ولطافة قلبه، وتوقه إلى الهش الدقيق، العاشق، الراقص، والحساسية المرهفة، وولعه الجنوبيّ، ما تزال كلها تجد *بقايا* صدى لها في أنفسنا! غير أن ذلك كله سيعرف للأسف نهايته في يوم ما! -لكن من تُراه يشك في أن فهمنا وتذوّقنا لبتهوفن سيعرف نهايته قبل ذلك! بتهوفن الذي لم يكن سوى المقطوعة الختامية لمرحلة انتقال أسلوبي وقطيعة أسلوبية، لا المقطوعة الختامية لذوق أوروبي راقٍ قد استقرّ قروناً من الزمن، كما هو الشأن مع موتزارت. بتهوفن هو الحدث الوسطيّ بين روح

(*) "Tiusche" Volk, das Täusche-Volk يلمح نيتشه هنا إلى الأصل الإيتيمولوجي لعبارة deutsch التي تعني ألماني، وهي في أصلها: diutisc من diot التي تعني: شعب. والكلمة كانت تطلق في اللغة الألمانية القديمة على اللغات الجرمانية وتعني: لغة الشعب، مقابلا للاتينية كلغة للنخبة المثقفة والسياسية. ثم أصبحت هذه العبارة تطلق فيما بعد على الشعوب نفسها، التي تتكلم اللغات الجرمانية. وهنا لا يفوت نيتشه الفرصة لممارسة لعبته المفضلة على الألفاظ، فيجري انطلاقا من الجناس اللفظي تحويلا سيمنطيقيا جاعلا من (tiusche) اشتقاقا من (täuschen) التي تعني: يخدع (م).

قديمة ترهّلت لفرط نضجها وما فتئت تشهد تفكّكاً مستمرا، وروح فتيّة قادمة في *طور الصيرورة*؛ على موسيقاه يخيّم ذلك النور الغسقيّ الملتبس الذي يتجاور فيه خُسرانٌ أبديّ وأمل جامح أبدي؛ ذلك النور نفسه الذي خيّم في يوم ما على أوروبا عندما راحت تحلم مع روسو بالرقص حول شجرة الحرية للثورة، ثم انتهت بالركوع تقريباً أمام نابليون. بأيّ سرعة راح يبهت *هذا* الإحساس الآن بالذات، وأي صعوبة لدينا اليوم في *تمثّل* هذا الإحساس! وكم أضحى غريباً على مسامعنا اليوم ما ترنّ به لغة أولئك الرجال من أشباه روسو وشيللر، وشيللي، وبايرون، اللغة التي عبّر بها مصيرُ أوروبا عن نفسه من خلالهم جميعا بواسطة الكلمة، ثم وجدت لحنها في بتهوفن! -أما ما جاء من موسيقى ألمانية بعدها فكان مما ينتمي إلى الرومنطيقية، أي إلى حركة أقصر، بالمنظور التاريخي، وأسرع عبوراً، وأكثر سطحية مما كان عليه ذلك الفصل الانتقالي ما بين روسو ونابليون، وظهور الحركة الديمقراطية. أما عن فيبر؟[*] أي شيء تعنيه لنا اليوم أوبرا *فرايشوتز* و*أوبيرون*[**]؟ أو هنس *هايلنغ* و*الفامبير* لمارشنر؟ أو حتى *تانهويزر* فاغنر؟ موسيقى قد ترهّل صداها في مسامعنا، وإن لم يطوها النسيان بعد. كل تلك الموسيقى الرومنطيقية لم تكن علاوة على ذلك بما يكفي من النبالة، بما يكفي من الموسيقى كي تستطيع أن تنال حقها في أي مكان آخر غير خشبة المسرح، وأمام جمهور العامة؛ كانت منذ

(*) المعنيّ هنا هو كارل ماريا فريدريش فون فيبر، مؤلف الموسيقي ألماني من أواخر القرن الثمان عشر وبدايات القرن التاسع عشر. من مؤلفاته: فرايشوتز، أوبيرون، سلطة الحب والخمرة....

(**) مسرحية غنائية وأوبرا لكارل ماريا فون فيبر؛ الأولى من سنة ١٨٢١ والثانية ١٨٢٦.

البداية موسيقى من الدرجة الثانية، لم يولها الموسيقيون الحقيقيون اعتباراً جديراً بالذكر. بينما كان الأمر مختلفاً مع فيليكس ماندلسون، ذلك المايسترو الألقيوني الذي حظي سريعاً بالتقدير والاحترام بفضل روحه الأكثر خفة ومرحاً ونقاوة، لكن سرعان ما غمره النسيان أيضا - *كفاصلة عابرة* سعيدة في الموسيقى الألمانية. أما روبرت شومان، الذي أخذ الأمر بجدية صارمة منذ البداية وحُمل بدوره محمل الجد أيضاً، فقد كان آخر من أسس مدرسة موسيقية؛ ألا يُعد من حسن حظنا اليوم- شيئا شبيها بتنفس الصعداء، وتحررا- أننا تجاوزنا أخيرا رومانسية شومان؟ كان شومان المنطوي على روحه «السويسرية الساكسونية» بجبلّته الملفقة من شيء من فيرتهر وشيء من جون بول، غير بتهوفنيّ بكل تأكيد! ولا بايرونيًّا أيضاً! (مقطوعته الموسيقية *مانفريد* كانت محاولة فاشلة وسوء فهم يبلغ حدود الظلم)؛ شومان، بذوقه الذي كان في الواقع ذوقا متدنّياً، (أي ميلا خطيرا، بل ميلاً ذا خطر مضاعف إلى الغنائية الساكنة والعاطفيّة السكّيرة لدى الألمان) شومان ذاك الذي يمضي زائغاً على الدوام، جفولا في انسحابه وارتداده، رقيقاً ناعماً نبيلا، متقلّبا على الدوام في سعادةٍ وألم سريّيْن، نوعاً من فتاة متعففة بالولادة noli me tangere: شومان هذا كان حدثا *ألمانيا* وحسب، ولم يكن يمثل شيئا أوروبيا، مثلما كان بتهوفن، وموتزارت على نطاق أوسع. مع شومان عرفت الموسيقى الألمانية أشد الأخطار المحدقة بها: خطر أن تكف عن أن تكون صوتاً *للروح الأوروبية*، وأن تنحط إلى مجرد شيء منكفئ على وطنيّته.

أي عذاب في قراءة الكتب الألمانية بالنسبة لمن كانت له الأذن *الثالثة*! وبأي اشمئزاز سيجد نفسه يقف أمام المستنقع الراكد لأصواتٍ بلا رنين وإيقاع دون رقص، ذاك الذي يسميه الألمان «كتاباً». أما عن الألماني الذي *يقرأ* كتبا! بأي كسل واشمئزاز يقرأ! وأيّ قارئ سيّء هو! إذ كم من الألمان يعرفون أو يطالبون أنفسهم بأن يعرفوا بأن هناك *فنّا* في كل جملة جيّدة، فنّا على المرء أن يستشفه إذا ما أراد فهم الجملة؟ إذ يكفي سوء فهم في ما يتعلق بالإيقاع مثلا، وإذا نحن نسيء فهم الجملة نفسها. أن لا يكون للمرء شكّ حول الأهمية الإيقاعية المحدِّدة للمقاطع، وأن يكون مدركاً أنّ كسر التناظر الصارم شيء مقصود له سحره، وأنه لا بد من منح أذن مرهفة صبورة لكل إشارة تقطيع (staccato)، وكل انفلات إيقاعي (rubato)، وأن يستشف المعنى من خلال تتالي الحروف الصائتة والساكنة وكيف تتلوّن وتغيّر ألوانها وتكتسب رقة وثراء في ذلك التتالي؛ -مَن مِن بين القراء الألمان يملك ما يكفي من الإرادة والاستعداد لمثل هذه المهمة وهذه المتطلبات، كي يمنح أذنا صاغية لكل هذه الفنون والمقاصد التي تنطوي عليها اللغة؟ فالمرء «لا يملك أذناً لمثل هذه الأشياء» بالنهاية؛ وهكذا تمرّ أكبر المتضادات الأسلوبية دون أن تُسمع، وتبدَّد أدق وأرهف التقنيات الفنيّة عندما تُلقى على آذان صُمٍّ. هذه هي الأفكار التي جالت في ذهني وأنا ألاحظ بأي غباء وجهل يقع الخلط بين علميْن في فن النثر لا شيء يجمع بينهما؛ واحدٌ يدفع بالكلمات متلكئة باردة كما لو كانت تتقاطر من سقف مغارة رطبة، معوِّلا على أصواتها الخافتة وصداها الباهت؛ والثاني يعالج لغته مثل سيف طيّع، مخترَقاً من كف اليد حتى

أخمص القدمين بإحساس السعادة الخطيرة لحدّه القاطع المرتعش الذي يريد أن يلدغ ويخترق ويقطع.-

247

مما يدل على أن الأسلوب الألماني قليل الصلة بالإيقاع وبالأذن هو أن موسيقيّينا بالذات لا يجيدون الكتابة. فالألماني لا يقرأ بصوت مسموع، لا يقرأ للأذن؛ يقرأ بالعينين فقط، ويكون قد تخلى عن أذنيه عندها ووضعها في درج مكتبه. كان إنسان العصور القديمة يقرأ على نفسه، وعندما يقرأ -وكان نادراً ما يفعل- كان يلقي على نفسه، وبصوت مرتفع. وعندما يقرأ أحدهم بصمت كان الناس من حوله يتعجبون ويتساءلون فيما بينهم عن السبب في ذلك. بصوت مرتفع يعني: بكل ما للصوت من صعود وانتفاخ وانثناء وارتداد، وبكل تغيّرات الإيقاع وتبدلات الهيأة التي كان يطرب لها جمهور العصور القديمة. وفي ما مضى كانت قوانين الأسلوب الكتابي هي نفسها التي تدير الأسلوب الخطابي؛ وكانت تلك القوانين مرتبطة في جزء منها بالمستوى المدهش للتكوين، وبالحاجات الدقيقة للأذن والحنجرة المرهفتيْن، وفي جزء ثان منها بمتانة الرئتين وقوتهما وطول نفسهما. والوصلة في مفهوم القدامى تعني في المقام الأول كليّة فيزيولوجية، من حيث أنها مكوّنة من نفَس واحد. ومثل تلك الوصلات، كما كانت لدى ديموستين وشيشرون، تتألف من حركتي صعود ونزول تتكرر مرتين في نفَس واحد: كانت تلك متعةً بالنسبة للقدامى الذين كانوا، بفضل دربتهم وتربيتهم، قادرين على استساغة وتقدير ما هو نادر وصعب في أداء مثل تلك الوصلات؛ أما نحن المعاصرون، فلا حق لنا في الحقيقة في وصلات كبيرة، نحن ذوو النفَس القصير بالمعنى

المتعدد للعبارة! لقد كان أولئك القدامى هواة خطابة كلُّهم، وبالتالي عارفين، وبالتالي نقّاداً؛ وبذلك كانوا يدفعون بخطبائهم إلى بلوغ الحد الأقصى من قدراتهم، مثلهم في ذلك مثل الإيطاليين والإيطاليّات خلال القرن الماضي، الذين أضحوا جميعهم على دراية بالغناء، ومعهم بلغت البراعة في الغناء (ومعها فنّ اللحن أيضا) ذروتها. -أما في ألمانيا، وباستثناء ما ظهر حديثاً من نوع خطابة منبريّة بدأت ترف خجولة وثقيلة بأجنحتها الفتيّة) فلم يكن هناك في الحقيقة سوى نوع واحد من الخطاب العمومي الذي يقارب الفن الخطابي، ويُلقى على منابر الكنيسة. فالداعية وحده في ألمانيا هو الذي يعرف أهمية المقطع والكلمة، وكيف يمكن لجملة أن تضرب، وتقفز، وتهجم، وتنطلق وترتد؛ وهو وحده الذي كان له ضميرٌ في سمعه، وغالباً ما كان ضميراً مؤنّباً، فهناك ما يكفي من الأسباب التي تجعل الألماني لا يفلح في بلوغ البراعة في الخطابة، وإذا ما بلغها فبعد فوات الأوان في أغلب الأحيان، إن لم نقل دوماً. وبالتالي فإن روائع النثر الألماني هي روائع كبار دُعاتهم: والإنجيل ظل أفضل كتاب ألمانيّ حتى الآن. ومقارنة بإنجيل لوثر (الكتاب المقدس) فإن كل ما كُتب تقريباً ليس سوى «إنشاء»: شيء لم ينشأ وينمو في ألمانيا، وبالتالي لم يتخذ له منبتاً داخل قلوب الألمان، كما تمّ للإنجيل.

248

هناك نوعان من العبقرية: واحدة تُنجِب وتريد الإنجاب، والثانية تخصَّب وتلد. والأمر نفسه يحدث لدى الأمم العبقرية، فهناك من تنهض بالمسألة الأنثوية للحبَل وبالمهمة الخفية للتشكيل والإنضاج والإنجاز؛ والإغريق مثلا كانوا من هذا الصنف، وكذلك الفرنسيون؛

بينما أمم أخرى هي التي تتولى مهمة التخصيب وتكون بذلك سبباً لنشأة نظام حياة جديد، مثل اليهود والرومان، -وماذا عن الألمان؟ أسأل بكل تواضع-. أمم تتعذّب وتضطرم بضروب من حمّى غريبة، ومدفوعة بعنف لا يقاوم باتجاه الخروج من ذاتها، ممتلئة حبّا ورغبة في معانقة الأعراق الأجنبية (تلك «القابلة للتخصيب»)، مشحونة في ذلك برغبة في السيطرة، ككل من يدرك أنه مفعم خصوبةً، وبالتالي «منّةً إلهيّةً». هذان النوعان من العبقرية يبحثان أحدهما عن الآخر على غرار الرجل والمرأة؛ غير أنهما يسيئان فهم بعضهما أيضاً -كالرجل والمرأة.

249

لكل شعب رياؤه؛ ويُدعى ذلك فضائله. -أفضل ما فينا نظل لا نعرفه؛ ولا نستطيع أن نعرفه.

250

بماذا تدين أوروبا لليهود؟ -بالكثير، من حَسن وسيّء، وعلى الأخص بأمر هو في الآن نفسه من أفضل الأشياء وأسوئها: عظمة الأسلوب الأخلاقي، فظاعةُ ومهابة المتطلبات اللامحدودة، والمدلولات اللامتناهية، وكل رومانسية وجلال المشتبهات الأخلاقية -وبالتالي ذلك الجانب المنتقى الأكثر جاذبية وإغراء في لعبة الألوان البديعة ومغريات الحياة، التي تشتعل -وربما تحترق- في السماء الغسقيّة لحضارتنا الأوروبية. ولذلك، فإننا، نحن الفنّانين من بين جمهور المشاهدين والفلاسفة، ندين بالشكر لليهود.[٣٥]

علينا ألا نعجب إذا ما رأينا سحباً وواضطرابات تعبر سماء عقل شعب مصابٍ، أو يريد أن يُصاب بالحمى القومية؛ وباختصار، أن يعرف نوبات خفيفة من التبلّد. تتجسد هذه الحالة لدى الألمان في عصرنا الحاضر في حماقة معاداة الفرنسيين حيناً، أومعاداة اليهود، أو معاداة البولنديين، وفي الحماقة الرومانسية المسيحية حيناً، وفي النزعة الفاغنرية، أو التويتونية ، أو البروسيّة حيناً آخر (ويكفي أن نرى أولئك المؤرخين البائسين من أمثال زيبل (Sybel) وترايتشكه (Treitzschke) وعقولهم التي ضُربت عليها أسيجة منيعة)، وإلى غير ذلك من تلك الكتل الضبابية التي تغشى العقل والضمير الألماني. ولتغفروا لي إن لم أستطع أنا أيضا، وبعد إقامة قصيرة لا تخلو من مخاطر في تلك المنطقة الموبوءة، أن أنجو كليّا من هذا المرض الشنيع، وشرعت مثل الجميع في التفكير في أشياء لا تعنيني: عرَضٌ أوّل للإصابة بتلك العدوى السياسية. حول مسألة اليهود مثلا إليكم ما يلي: لم ألتق بعد بأي ألماني له موقف إيجابي من اليهود؛ وأيًّا كانت لامشروطية الموقف المناهض لمعاداة السامية في ذاتها من قِبل كل الرجال الحذرين والسياسيين، فإن ذلك الحذر والسياسة ليسا موجّهين مع ذلك ضد إحساس المعاداة في حدّ ذاته، بل ضد مظاهر شططه الخطير فقط، وبصفة أخص ضد الصيغة التعبيرية الفجّة والمخجلة لذلك الإحساس المشطّ، -فلا ندعنّ أنفسنا نغالط بهذا الصدد! يقولون إن ألمانيا قد أخذت *كفايتها* من اليهود، وأن المعِدة الألمانية، والدم الألماني في حاجة (وسيظل لمدة طويلة في حاجة) إلى معاناة طويلة من أجل هضم ذلك «الكم» الحاصل أولا -مثلما نجح في ذلك

الإيطاليون والفرنسيون(*) والأنكليز بفضل طاقة هضم أقوى لديهم: ذلك هو الخطاب الواضح لغريزة مشتركة عمومية على المرء أن يصغي إليها وأن يعمل وفقاً لها: «لا سماحَ بالدخول لمزيد من اليهود بداية من الآن! ولتقفل البوابات من جهة الشرق، (من جهة المدخل النمساوي أيضا)!» ذاك ما تقضي به غريزة أمة ضعيفة في نوعها وغير محددة الهوية مما يجعلها قابلة للامحاء بسهولة وللاضمحلال عن طريق عرق أقوى. واليهود هم العرق الأقوى دون منازع، والأصلب والأنقى مما يوجد من أعراق في أوروبا حاليّا؛ ولهم القدرة على فرض أنفسهم حتى في ظل أسوأ الظروف (بل بأفضل مما يتم لهم في ظل ظروف ملائمة)، وذلك بفضل نوع ما من الفضائل الخاصة بهم، والتي يحاول الآخرون أن يسِموها بميسم الرذائل؛ وفي المقام الأول بفضل إيمان ثابت ومتين لا داعي لديه إلى الخجل أمام «الأفكار الحديثة»؛ *وإذا ما* تغيروا، فهم يتغيّرون دوماً على طريقة الإمبراطورية الروسية في الغزو، -كإمبراطورية لديها متسع من الوقت أمامها، مثلما هي ليست من بنات الأمس القريب؛ أي وفقاً للمبدأ الأساسي القائل «بأكثر ما يمكن من البطء». وكل مفكر يشغل عقلَه وضميره المستقبلُ الأوروبي سيكون عليه في كل المخططات التي يصوغها في ذهنه للمستقبل أن يقرأ حسابا لليهود والروس بوصفهما العنصريْن المستقبليْن الأكثر وثوقاً واحتمالا في لعبة الصراع الأكبر للقوى. وهذا الذي يسمى اليوم «أمة» في أوروبا، وهو في الحقيقة واقع مختلَق أكثر منه معطى طبيعيّا

(*) يبدو نيتشه هنا كما لو أنه كان قليل الاطلاع عن الأوضاع في فرنسا في ذلك الوقت وعن الأفكار المعادية للسامية فيها. وعلى أية حال فقد كان يؤلف كتابه هذا سنة ١٨٨٥، أي حوالي عشر سنوات قبل اندلاع أزمة درايفوس الشهيرة (١٨٩٤).

(وأشبه حد التماهي في بعض الأحيان بشيء مصطنع ومتخيَّل)، هو في كل الأحوال شيء قيد الصيرورة، ناشئ، قابل للتحول، وليس عرقاً بعد، ناهيك عن أن يكون ذلك الكيان الذي بصلابة وديمومة البرونز، كما هو الحال بالنسبة لليهود؛ على هذه «الأمم» أن تحترس كل الاحتراس من كل منافسة طائشة ومعاداة متهوّرة! وإنه لمن المؤكد أن اليهود إذا ما أرادوا، أو إذا ما أُرغموا على ذلك -كما يريد ذلك المعادون للسامية على ما يبدو- سيكون *باستطاعتهم* منذ الآن أن تكون لهم الغلَبة، بل والسيطرة على أوروبا؛ ومن المؤكد أيضا أنهم لا يعملون ولا يخططون لذلك. بل ما يتمنونه وكل ما يُردونه حاليّا، وبشيء من الإلحاح المفرط أيضاً، أن يتم امتصاصهم من قِبل أوروبا وإدماجهم في كيانها، ويتوقون بكل لهفة إلى أن يكون لهم موقع ثابت مستقر مسموح به ومحترم وأن يضعوا حدا لترحالهم ولحياة «اليهودي المشرّد الأبدي» ؛ ومن المفترض أن يقابل هذا النزوع والإلحاح (الذي يمكن أن يكون معبّراً عن اعتدال طرأ على الغرائز اليهودية) بالاهتمام وبالتقبّل: ولعله سيكون من النافع والمناسب لهذا الغرض أن يتم طرد المهرّجين الزاعقين بمعاداة السامية خارج البلاد. أن يتم ذلك التقبّل بشيء من الحذر والانتقاء على غرار ما تفعل الأرستقراطية الأنكليزية. ومن المؤكد أن النماذج الأكثر قوّة في المجتمع الألماني، والأكثر ثباتاً والأكثر متانة في الطبع، من أمثال الضباط الأرستقراطيين من مقاطعة مارك (مارك برندنبورغ -المترجم-)، هم المؤهلون للتقارب معهم؛ وسيكون من المهم جدّا ومما يعود بفوائد متنوعة أن ننظر في إمكانية مزاوجة بين فنّ الأمر والطاعة المتوارث من جهة -والخصلتان المذكورتان تمثلان اليوم تقليداً ألمانيّا راسخاً-، وعبقريةِ الكسب المالي والصبر من الجهة الثانية (وبصفة أخص شيء من النباهة العقلية

ومن الروحانية، وهو ما يفتَقِر إليه بشدة لدى الفئة المذكورة الأولى)، وأن تضاف هذه الخصال إلى تلك وتمكّن من التلاقح. -لكن عليّ أن أقطع الآن حبل هذه الحماسة التويتونيّة المرحة والخطبة الاحتفالية التي انسقتُ إليها، إذ ها أنا قد بدأت ألامس موضوع *اهتمامي الجدّي*، موضوع «المسألة الأوروبية» كما أفهمها، أعني موضوع تربية طبقة قياديّة جديدة تحكم أوروبا.

252

كلا، ليسوا أمّة فلسفة هؤلاء الأنكليز: بايكون هو عبارة عن *اعتداء* على العقل الفلسفي عموماً، وهوبز وهيوم ولوك ظلوا لما يزيد عن قرن من الزمن يمثلون إهانة وتبخيساً لمفهوم الـ«فيلسوف». في *التصدي* لهيوم سطع نجم كنط؛ وضد لوك سمح شيلينغ لنفسه بأن يقول «أحتقر لوك»؛ وفي الصراع ضد الرؤية الميكانيكية الأنكليزية المتفِّهة للعالم اتحدت آراء هيغل وشوبنهاور (مع غوته أيضا)، هذان الأخوان العبقريان العدوان في المجال الفلسفي، اللذان جعلهما الانجذاب إلى قطبين متضاديْن للعقل الألماني يكونان متناحريْن وظالميْن أحدهما تجاه الآخر، كما لا يمكن إلا لأخوين أن يكونا ظالميْن. -إن ما يفتقر إليه الأنكليز، وما كانوا مفتقرين إليه دوما يعرفه جيداً ذلك الخطيب الممثل مشوَّش العقل وعديم الذوق كارليل، وظل يسعى جهده تحت تقنّعاته الحماسية لإخفاء ذلك الذي يعرفه عن نفسه، أي *ما يفتقر إليه*: *قوة* حقيقية في العقل، وعمق حقيقي في النظر العقلي. وباختصار، كان يفتقر إلى الفلسفة. والخاصية المميزة لهذا العرق اللافلسفي هو تعلّقه الصارم بالمسيحية: فهو في حاجة إلى تربيتها المدجِّنة كي «يتخلّق» ويتأنسن. فالأنكليزي لكونه أكثر قتامة من

الألماني، وأكثر حسيّة، وأقوى إرادة وأكثر ضراوة؛ وبسبب ذلك بالذات، وبوصفه الأكثر عامّية، يكون أكثر تقوى من الألماني؛ فهو أكثر حاجة منه إلى المسيحية. وكل أنف مرهف سيدرك بسهولة أن هذه المسيحية الأنكليزية نفسها تعبق برائحة أنكليزية أصيلة، رائحة السأم-spleen والإفراط في تناول الكحول، وهي بالتالي، ولأسباب وجيهة أحسن دواء لذلك المزاج: أيْ سمّ ناعم ضد سمّ حادّ.[٣٦] فلدى الشعوب الفجّة يكون التسمم اللطيف تقدماً، وخطوة باتجاه التعقلن. إن الثقل الأنكليزي والجدية القروية الخشنة تغدو من خلال لغة الحركات المسيحية والصلاة والأناشيد في هيأة مقنّعةٍ أكثر احتمالا، أو على الأصح: تصبح قابلة لتأويلٍ وترجمة تخفف من خشونتها؛ وبالنسبة لذلك القطيع من السكيرين والمعربدين الذي تعلم الدمدمة والنخير الأخلاقي تحت طائلة التربية القاسية للميثودية(*) سابقاً وفي صفوف «جيش الخلاص» حاليّا، ستكون تشنجات الكفّارة بكل تأكيد الدرجة الأرقى من الإنسانية التي يمكنه أن يرتقي إليها؛ وهذا أقصى ما يمكن أن نقرّ به لهم من باب الإنصاف. غير أن ما يمكن أن نعيبه أكثر على الأنكليزي، بما في ذلك الأكثر إنسانيّة منهم، هو افتقاره إلى الموسيقى (بالمعنيَيْن الحرفي والمجازي): فما من أثر للإيقاع والرقص في كل حركات جسده وروحه، بل ولا حتى أيّ توق إلى الإيقاع والرقص: إلى «موسيقى». لنستمع إلى الأنكليز وهم يتكلمون، لننظر إلى أجمل الأنكليزيات وهنّ يمشين - فما من حمامات وبجع أجمل منهن في أي بلاد من العالم؛ وأخيرا، لنستمع إليهنّ وهنّ يغنّين! لكن، يبدو أنني بدأت أطلب المستحيل الآن. . . .[٣٧]

(*) Methodism مذهب ديني بروتستانتي أنكليزي منشق عن الأنكليكانية

هناك حقائق تكون العقول الرديئة هي التي تدركها على أفضل وجه، لأنها هي التي تناسبها أكثر من غيرها؛ هناك حقائق لا تستطيع أن تفتن وتغري غير العقول الرديئة. لقد غدونا مدفوعين إلى الإصداع بهذه الحقيقة التي يمكن أن تكون مزعجة منذ أن غدا عقل رجال من ذوي المكانة المرموقة والمستوى الرديء -أذكر منهم داروين وجون ستوارت ميل وهربرت سبنسر- يفرض هيمنته على المناطق المتوسطة للذوق الأوروبي. وبالفعل، من سيشك في الفائدة التي تحصل من الهيمنة المؤقتة *لمثل هذه* العقول؟ وسيكون من الخطأ أن نعتقد أن العقول الراقية التي تنجز تحليقها خارج السرب ذات براعة خاصة ومقدرة على التقاط العديد من الوقائع الصغيرة التافهة وتجميعها وحصرها في قالب استنتاجات؛ بل هم، وبوصفهم استثناءات، غير مؤهلين بطبعهم «للقواعد». وبالنهاية فلهؤلاء مشاغل أخرى غير مجرد تحصيل المعرفة؛ أي أنهم مطالبون بالأحرى بأن *يكونوا* شيئا جديداً، وأن *يعنوا* شيئا جديداً، وأن *يؤسسوا* قيماً جديدة. ولربما تكون الهوة التي تفصل المعرفة عن القدرة أكثر اتساعاً وهولاً مما نعتقد: ومن المحتمل أن يكون على ذي القدرة والأسلوب العظيم، أي المبدع، أن يكون جاهلا؛ بينما، يمكن من الناحية الأخرى، أن يكون لشيء من الضيق والجفاف والتدقيق الدؤوب، وفي كلمة، أن يكون شيء أنكليزي من المؤهلات السعيدة لاكتشافات علمية من نوع تلك التي قام بها داروين. ولا ينبغي أن ننسى بالأخير أن الأنكليز، قد استطاعوا برداءتهم العميقة أن يحدثوا انحطاطاً شاملا للعقل الأوروبي: فما سمّي بـ«الأفكار الحديثة» أو «أفكار القرن الثامن عشر» أو حتى بـ«الأفكار الفرنسية»، أي ذلك الذي تصدى له العقل الألماني باشمئزاز عميق، -

كل ذلك كان من أصل أنكليزي، وهو أمر لا يطاله الشك. ولم يكن الفرنسيون سوى قِردة وممثلين لتلك الأفكار، بل وأفضل جنودها، تماما كما كانوا، وللأسف، أول وأكبر *ضحاياها*، ذلك أن الروح الفرنسية غدت بالنهاية، من خلال تلك النزعة الأنكليزانيّة لـ«الأفكار الحديثة»، على قدر من السطحية والهزال مما يجعل المرء لا يكاد يصدّق ما ظلت تحتفظ به الذاكرة مما كان عليه ذلك العقل خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من طاقة متوقدة شغوف وعميقة، ومن سموّ إبداعيّ. لكنّ هناك مقولة هي من باب الانصاف التاريخي علينا أن نضعها نصب أعيننا ونتشبث بالدفاع عنها بالرغم من الراهن وظاهر الأحوال حاليّا، وهي: كل النبل الأوروبي؛ نبل الإحساس والذوق والخُلق، أي النبل بكل المعاني السامية للكلمة هو *من عمل وابتكار فرنسا*؛ وكل البذاءة السوقية الأوروبية، ورعاعيّة الأفكار من *عملِ وابتكارِ أنكلترا*.

254

واليوم أيضا، ما تزال فرنسا موطن الحضارة الأوروبية الراقية، والمدرسة العليا للذوق: لكن على المرء أن يبحث طويلا عن «فرنسا الذوق» هذه، كي يعثر عليها. فكل من ينتمي إلى هذا الذوق يظل لائذا بالخفاء؛ ربما أصبح أولئك الذين يتجسد فيهم ويحيا من خلالهم قلّةٌ قليلة من الناس، وربما يكون داخل هذه القلّة أشخاص قد أصابهم الوهن ولم يعودوا قادرين على الوقوف على قدمين متينتين؛ بعضهم قدريّون، مكتئبون ومرضى، وآخرون على قدر مفرط من الرهافة ومن التكلّف، *كل طموحهم* هو أن يظلوا خفيّين عن الأنظار. يجمع بين هؤلاء جميعاً أنهم يسدّون آذانهم عن أصوات البلادة الزاحفة ولغط

البورجوازي الديمقراطي الثرثار. وفي الواقع، فإن من يحتل صدارة المشهد اليوم هي فرنسا أخرى يطغى عليها الغباء والفجاجة الرعاعية، وقد كانت جنازة فيكتور هوغو مؤخرا مناسبة لحفل معربد حقيقي لانعدام الذوق والإعجاب بالنفس. هناك شيء آخر يجمع بين تلك القلة: إرادة راسخة في التصدي إلى الجرْمنة العقلية لفرنسا، وعجز كليّ عن النجاح في ذلك! ولعل شوبنهاور قد غدا أليفاً ومألوفاً في فرنسا العقل المرهف، وهي فرنسا التشاؤم أيضاً، كما لم يتمّ له ذلك قطّ في ألمانيا، كي لا نتكلم عن هاينرش هاينه، الذي غزا قلوب وعقول شعراء باريس الأكثر رهافة وتطلباً وأصبح منذ زمن طويل سارياً سريان الدم في أجسادهم، أو هيغل الذي غدا له اليوم من خلال تاينْ- *أكبر* المؤرخين الفرنسيين من الأحياء- تأثيراً، بل ذا نفوذٍ يكاد يكون طغيانيّا. أما عن ريشارد فاغنر، فيمكننا القول، أو التنبؤ، بأن الموسيقى الفرنسية كلما مضت أكثر في التشكل وفقاً لمتطلبات الروح الحديثة، إلا وغدت أكثر «فاغنريّة» - وقد أنجزت اليوم ما يكفي من الخطوات في هذا الاتجاه بما يسمح لنا بهذا التنبؤ! ومع ذلك هناك ثلاثة أشياء يمكن للفرنسيين أن يفخروا بها كموروث وملك خاص بهم وعلامة لم تندثر لتفوقٍ حضاري على بقية أوروبا، وذلك بالرغم مما لحق الذوق الفرنسي، عن قصد أو لاإراديا، من جرْمنة وسوقيّة: أوّل هذه الأمور هي القدرة على الشغف بالفنون وعلى الولع بالشكل، الذي ابتُكر له مفهوم «الفن للفن» من بين ما ابتُكر له من آلاف التسميات: ولم تغب مثل هذه الفنون عن الساحة الفرنسية منذ ثلاثة قرون، وبفضل ما يوحي به «العدد القليلُ» من مهابة ظلت على الدوام تفسح المجال لظهور أدب أشبه بموسيقى الحجرة، يصعب العثور عليه

في أي مكان آخر من أوروبا. والأمر الثاني الذي للفرنسيين فيه تفوّقٌ على بقية أوروبا هي ثقافتهم الأخلاقية العريقة والمتنوعة التي تجعلنا نجد لدى الناس عموماً، بما في ذلك صغار مؤلفي روايات الصحف وأيّ من روّاد البولفار الباريسيين، حساسية وفضولا بسيكولوجييْن لا يمكن للألماني أن يتصورهما-ناهيك عن أن يمتلكهما! فالألماني يفتقر في ذلك إلى بضع قرون من نمط الحياة الأخلاقية التي لم تتدخر فرنسا جهدا في تحملها، كما ذكرنا سابقا؛ ومن ينعت الألمان بسبب ذلك بـ«السذّج» سيكون قد جعل لهم من النقص خصلة حميدة. (وكمقابل ونقيض لانعدام التجربة لدى الألمان ولبراءتهم في ما يتصل بالشهوة البسيكولوجية (volupta psychologica) -خاصيتان لهما علاقة بالضجر الذي يسود العلاقات الاجتماعية الألمانية-، وكمثال ونموذج ناجح عن فضول معرفي فرنسي حقيقي وموهبة ابتكارية قد أعرب عنها الفرنسيون في هذا المجال المرهف الحسّاس، يمكننا أن نذكر هنري بايل، ذلك الرائد والطلائعي العجيب ومستطلع الأفق المجهولة، الذي يشق طريقه بخطوة نابليونية واثقة عبر كامل أوروبا وعبر قرون عديدة للروح الأوروبية، كمستكشف وممحّص ومكتشف لأسرار تلك الروح. وكان لابد من توالي جيليْن كي يمكن *اللحاق به*، وكي يمكن اكتشاف بعض من الألغاز التي كانت تقلق وتسحر ذلك الأبيقوري والمُسائل العجيب، وآخر سيكولوجي كبير لفرنسا). هناك أخيراً عنصر ثالث لدعوى التفوق الفرنسي: يتكون الطبع الفرنسي من خلاصة توليفية موفّقة إلى حد ما من جنوب وشمال، تجعلهم يفقهون أشياء كثيرة والقيام باشياء أخرى مما لا يقدر الأنكليزي على فهمه البتة. إن طبعهم الذي يراوح بصفة دورية بين التوجه جنوباً والارتداد شمالا،

والذي يعربد فيه بين الحين والآخر الدم البرونفنساليّ والليغوري(*)، هو الذي يقيهم من شناعة القتامة الشمالية ومن التصورات الشبحيّة المعتّمة وفقر الدم -المرض الذي يعاني منه ذوقنا الألماني، والذي قررنا اليوم معالجته بكل حزم بالحديد والنار، أعني بذلك: وصفة «السياسة العظمى» (وفقا لطريقة علاج خطيرة تعلمتُ منها أن أنتظر وأنتظر، دون أن تعلّمني أن أأمل). واليوم أيضا، ما يزال هناك في فرنسا حسٌ وترحاب بأولئك النادرين والذين يصعب إرضاؤهم، أولئك الذين لديهم من رحابة الأفق وسعة العقل ما يجعلهم لا يجدون راحتهم في أي تعلّق أو ولع بوطن، والذين يحبون الشمالَ في الجنوب وفي الجنوب الشمالَ؛ أولئك المجبولون للبلدان الوسطيّة، «الأوروبيون الحقيقيون». لهؤلاء ألّف بيزيه موسيقاه، ذلك العبقري الأخير الذي تشوّف جمالاً جديدا وغواية جديدة، واكتشف جنوباً موسيقيًّا.(**)

255

أعتقد أنه لابد من توخي الكثير من الحذر تجاه الموسيقى الألمانية. لنفترض أن شخصاً يحب الجنوب كما أحبه أنا، كمدرسة

(*) بروفونسالي نسبة إلى البروفونس: مقاطعة من جنوب فرنسا. وليغوري نسبة إلى ليغور منطقة جبلية من شمال غرب إيطاليا متاخمة للجنوب الشرقي لفرنسا.

(**) يجعل نيتشه من بيزيه نموذجا جنوبيا مرحا كنقيض لفاغنر الشمالي القاتم، كما نقرأ منذ السطر الأول لكتابه «قضية فاغنر»: *«ليس مجرد دعابة خبيثة أن أمتدح بيزيه على حساب فاغنر في هذا النص. فأنا أدسّ بين مواضيع المزاح شيئا غير قابل للمزاح.»*

كبرى لشفاء الجسد والعقل معاً، وكفائض من الضياء الشمسي المتدفق الذي يغمر وينير وجوداً واثقاً من سيطرته وممتلئا إيماناً بنفسه؛ شخص من هذا النوع سيكون عليه أن يتوخى شيئا من الحذر تجاه الموسيقى الألمانية، لأنها وهي تعكر ذوقه مجدداً ستعكر من جديد حالته الصحية أيضاً. على جنوبيٍّ من حيث *الإيمان*، لا من حيث الأصل والمنبت، إذا ما راوده الحلم بمستقبل الموسيقى أن يحلم أيضاً بخلاصه من موسيقى الأصقاع الشمالية، وأن يملأ أذنيه بتوطئة لموسيقى أعمق وأقوى وربما أكثر خبثا وغموضا، موسيقى ميتاألمانية لايختنق صوتها أمام مشهد البحر الأزرق الشهواني وضياء السماء المتوسطية، ولا تبهت وتذبل كما تفعل كل موسيقى ألمانية؛ موسيقى ميتاأوروبية تظل متماسكة أمام مشاهد الغسق الصحراوية السمراء، لروحها قرابة مع النخيل وألفةٌ حميمة مع الوحوش المفترسة الكبرى والمتوحّدة... بإمكاني أن أتصور موسيقى يقوم سحرها النادر على كونها لم يعد لها من شأن في الخير والشر، عدا ما يشبه حنين بحّار يعبر فوقها مثل غيْمات ذهبية ولحظات ضعف رقيقة؛ فنٌّ يرى ألواناً لعالم أخلاقي آيل للأفول قد أضحى غريباً غير مفهوم تقريبا، ألوانا يراها لائذة بالفرار إليه من أقاص بعيدة، ويكون على قدر من العمق وكرم الضيافة كي يستقبل أولئك الفارين واللاجئين المتأخرين...

256

بسبب التباعد المرضي الذي بثّه ومازال يبثه جنون النعرات القومية بين شعوب أوروبا، وبسبب هؤلاء السياسيين قصيري النظر وطويلي اليد، الذين يتبوّأون مراكز القيادة اليوم بواسطة ذلك ولا يدركون البتة أن هذه السياسة الانعزالية التي يمارسونها لا تستطيع أن

تكون حتما سوى فاصلة بين عصريْن سياسييْن؛ بسبب هذا كله وأشياء أخرى لا يمكن التعبير عنها اليوم، يغفل الناس اليوم، أو يتأولون تأولا محرّفا كاذباً علاماتٍ تنبئ بكل وضوح عن أن *أوروبا تريد أن تكون كيانا موحّدا*. ولدى كل الرجال العميقين وذوي العقول الأرحب من هذا القرن كان الاتجاه العام للعمل السري لأرواحهم هو تهيئة الطريق لهذه *الخلاصة* الجديدة، ومحاولة أن يكونوا هم أنفسهم صيغة تجريبية لأوروبيّ المستقبل؛ ولم يستهوهم «الانتماء القومي» إلا في لحظات تعبيراتهم السطحية، أو في ساعات ضعفٍ، أو عند حلول الشيخوخة؛ كانوا يطلبون استراحة من أنفسهم لا غير، عندما أصبحو «وطنيين». أفكر برجال من أمثال نابليون وغوته وبتهوفن وستاندال وهينرش هاينه وشوبنهاور. وأرجو ألاّ تستاؤوا مني إذا ما أضفت إليهم ريشارد فاغنر، الذي لا ينبغي أن نقع في المغالطة بصدده بسبب من سوء فهمه الخاص لنفسه-فعباقرة من طرازه نادرا ما يُكتب لهم أن يفهموا أنفسهم. كما لا ينبغي أن ندع أنفسنا نغالط كذلك بتلك الضجة التي يحاول الكثيرون اليوم في فرنسا أن يتبرأوا من خلالها من فاغنر ويقصوه، في حين يظل الواقع يثبت بعناد أن حركة *الرومانسيّة الفرنسية المتأخرة* لفترة الأربعينات ذات صلة وطيدة وحميمة للغاية بريشارد فاغنر. كانت بينهم قرابة، قرابة جوهرية مكونة من أسمى وأعمق الطموحات نفسها: وكانت أوروبا، وروح أوروبا الموحدة هي التي تعبر عن نفسها من خلال فنهم المتنوّع والعنيف، متدفّقاً تائقاً دافعاً إلى الأعلى -إلى أين؟ نحو نور جديد؟ نحو شمس جديدة؟ لكن من تراه سيعبّر بدقّة عن ذلك الذي عجز عن التعبير عنه بوضوح كل المعلّمين الكبار من مبدعي وسائل التعبير الجديدة؟ من المؤكد أنهم كانوا معذّبين جميعهم بنفس التيّار

العاصف(*)، الأمر الذي جعلهم يبحثون بنفس الطريقة (وبنفس الوسائل)، أولئك البحاثة، -آخر البحّاثة الكبار! جميعهم واقعون تحت سلطان الأدب، منغمسين فيه حتى الأذنين والعينين، وهم أول فنانين من ذوي التكوين الأدبي الكوني، وأغلبهم كتّاب هم أنفسهم وشعراء يمزجون بين مختلف الفنون ووسطاء بينها (لقد كان فاغنر رساما بين الموسيقيين، وموسيقيا بين الشعراء، وفنانا بين الممثلين)؛ وجميعهم من المتعصبين لـ *التعبير* «بأي ثمن» -وأنوّه على وجه الخصوص بدي لاكروا (Delacroix) الأكثر قرابة بفاغنر-؛ جميعهم مكتشفون كبار في مجال الجليل، وفي مجال القبيح والشنيع، وأكبر مكتشفين في وسائل التأثير وطرق الإخراج وفي فنّ العرض، وجميعهم ذوو مواهب تفوق عبقريتهم، بارعون حتى النخاع، بقدرة هائلة على التقاط كل ما يغري ويجذب ويرغم ويهزّ، أعداء ألداء للمنطق والخط المستقيم، توّاقون إلى الغريب والعجيب والمهول والمعوجّ وكل ما يناقض نفسه؛ وهم كبشر من ذوي الإرادة الصلبة العنيدة لتنتالوس(**)، رجال من العوام المرتقين غير قادرين على النسق البطيء النبيل في حياتهم كما في عملهم، -لنتذكر بلزاك على

(*) Sturm und Drang التي يستعملها نيتشه هنا ، أو ما يعني «الشغف والإعصار» هي الإسم الذي أُطلق على حركة أدبية وفنية ألمانية ذات اتجاه رومانسي من النصف الثاني للقرن الثامن عشر. وكانت حركة تركز على الجانب الذاتي والانفعالي في مواجهة للتوجه العقلاني المفرط لحركة التنوير في صيغتها الفرنسية خاصة من أشهر من انتمى إليها في فترة من الزمن غوته وشيللر (م).

(**) تنتالوس نصف إله، ابن زويس كبير الآلهة. كان مكرما لدى الآلهة ويدعى إلى الطعام على مائدتهم حتى حل به غضبها فعاقبته وحُكم عليه بأن يظل معلقا إلى الأبد فوق بركة ماء في أقصى مكان من العالم السفلي، وابتلي بالدوع والعطش، بينما الماء من تحته والثمار تتدلى فوق رأسه ولا يدركها. (م)

سبيل المثال-، عمّال لا يعرفون الراحة، مدمّرون لأنفسهم تقريبا من خلال العمل؛ مناهضون متمردون على الأخلاق، طموحون ومتعطشون دون توازن ولا متعة؛ وجميعهم ينتهي بهم الأمر إلى الانكسار أمام الصليب وإلى الركوع (وهم محقّون في ذلك؛ إذ مَن منهم كان بما يكفي من العمق والأصالة لتبنّي فلسفة *نقيض المسيح*؟).

وهم في المجمل رجال من نوع الإنسان الأرقى، نوع جسور وجريء، عنيف بمهابة، ذو طموح مجنّح، مأخوذ بالأعالي وأخّاذ؛ رجال لم يكن لعصرهم -وكان *عصر الجمهور* بامتياز- معرفة بعد بمفهوم «الإنسان الأرقى»... على أصدقاء ريشارد فاغنر الألمان أن يتساءلوا إن كان هناك من شيء ألماني حقّا في فنّ فاغنر، وإن لم تكن ميزته الحقيقية تكمن في أن إلهاماته نابعة من أصول *غير ألمانية*؛ وأنه لا ينبغي أن نتغافل عن أن باريس قد مثلت شرطا ضروريا في تكوين نموذجه، باريس التي كانت تجذبه إليها غرائزُه العميقة في لحظة حاسمة من مساره الفني، وأن مجمل مقدراته في فن الظهور والحضور وجعْل نفسه الرسول المبشر بنفسه ما كان لها كلها أن تكتمل إلا من خلال النموذج الذي استمده من الاشتراكيين الفرنسيين. ولعلنا، ضمن هذه المقارنة الدقيقة، نستطيع أن نقرّ للجبلّة الألمانية لريشارد فاغنر بمزيّة وشرف كونه قد مضى في كل شيء بقدر من القوة والجسارة والقسوة والعلوّ لم يكن لأي فرنسي من القرن التاسع عشر أن يبلغه؛ وذلك بفضل كوننا ما نزال، نحن الألمان، أقرب إلى الهمجية من الفرنسيين. بل ربما سيظل ما أبدعه ريشارد فاغنر عسيرا على الإدراك، غير متيسر للفهم، وغير قابل للمحاكاة بالنسبة لمجمل العرق اللاتيني المتأخر، وذلك لزمن طويل في المستقبل أيضا؛ فصورة زيغفريد، ذلك الإنسان *الحر* كامل الحرية، الذي كان في الحقيقة أكثر حرية،

أكثر قسوة، أكثر بهجة، أكثر عافية وأكثر *مناقضة للكاثوليكية* مما يمكن لذوق حضارة عجوز مترهّلة أن يقبل به ويستسيغه. بل لعل زيغفريد، ذلك اللارومانسي، كان خطيئة في حق الرومانسية أيضا؛ غير أن فاغنر قد عرف كيف يكفّر كما ينبغي عن تلك الخطيئة في سنوات شيخوخته الكدِرة -مستبقاً ذوقا جديدا قد تحوّل فيما بعد إلى سياسة- عندما شرع بكل ما لديه من حماسة دينية في التبشير *بالطريق إلى روما*، إن لم يكن قد شرع في المضيّ بنفسه على تلك الطريق. وكي لا يساء فهمي في ما قلت من هذه الكلمات الأخيرة سأستعين ببعض أبيات شعرية متينة الصياغة، ستستطيع عقول رهيفة نادرة أن تستشف من خلالها ما أردت قوله؛ وما أعيبه على «فاغنر المتأخر» وعلى موسيقى بارسيفال. . .

-أألمانيٌّ هذا؟-
أمِنْ قلبٍ ألمانيٍّ كانت تصعد هذه الصرخات الحادة الموجعة؟
أأجساد ألمانيّةٌ هذه التي تحزّز لحمها بيديها؟
وألمانيةٌ أيضا كفّا القسّ الممدودتان للابتهال،
ورائحة البخور المثيرة للحواسّ؟
أألمانيٌّ أيضاً هذا الارتطامُ، والسقوطُ، والترنّحُ،
وهذا الطنينُ المتأرجح في اللايقين؟
وغمزاتُ الراهبات، وأجراسُ الصلاةِ على العذراء،
وكل هذه الانخطافاتِ الزائفة أناشيدَ محلّقةً في الأعالي،
أألمانيٌّ كل هذا؟
تصوروا! مازلتم أمام العتبة تقفون؛-
إذ، *روما* هذهِ، وصوتُ روما هذا الذي تسمعونْ،
- *إيمان روما، بلا كلمات!*

الفصل التاسع

ما النبيل؟

257

كل ارتقاء عرفه النوع الإنساني كان من صنع المجتمعات الأرستقراطية، -وهكذا سيظل الأمر دوماً؛ مجتمع يؤمن بالسلّم الطويل للتراتب وبتفاوت القيمة بين الأفراد، ويحتاج إلى العبودية بمعنى ما. فمن دون *حسّ المسافة* الذي ينشأ عن الفوارق الطبقية الراسخة في الأعماق، وعن النظرة الشاملة والفوقية التي تلقيها الطبقة الحاكمة على رعايها وأدواتها، ومن دون الدربة المستمرة على الطاعة والأمر، وعلى القمع والإقصاء، -من دون هذا الحس إذاً ما كان لذلك الحس الآخر العميق الغامض أن ينشأ ويتطور، تلك الرغبة المتجددة في مزيد من اتساع المسافة داخل النفس ذاتها، وتشكُّل أحوال أكثر فأكثر سموّا وندرة وبعداً واتساعاً وشمولاً، أو بعبارة مختصرة: ارتقاء النوع «الإنساني»، واستمرار «تغلّب الإنسان على نفسه» كي نستعمل مصطلحاً أخلاقيّا في معنى فوق-أخلاقي. وبطبيعة الحال لا ينبغي أن ننساق إلى أية أوهام ذات منحى إنسانيّ عند النظر في تاريخ نشأة مجتمع أرستقراطي (أي الشرط الأساسي لارتقاء النوع «الإنساني»): إن الحقيقة قاسية. ولنقلها دون مداراة: كيف بدأت نشأة

كل الحضارات الراقية التي عرفتها الأرض حتى الآن؟ جنسُ بشرٍ من طبيعة ما تزال بدائية، رجال متوحّشون بكل المعاني الفظيعة للكلمة، أشبه بضواري مازالت محتفظة بقوة إرادة وتعطّش للسيطرة لم تلن، تنقضّ على أجناس أضعف أكثر تخلّقاً ومسالَمةً، ربما تكون من متعاطيي التجارة أو تربية المواشي، أو حضارات قديمة في طور الترهّل أضحت آخر قواها الحيوية بصدد الاحتراق في ألعاب نارية للعقل وفي الفساد والانحطاط. في البدء كانت العشيرة الراقية هي العشيرة المتوحشة، ولم يكن تفوّقها يكمن في قوتها الجسدية بالمقام الأول، بل في قوّتها النفسيّة؛ أولئك هم الكائنات البشرية *الأكمل* (وهو ما يعني بالنهاية أنهم، وعلى كل المستويات، «الحيوانات الأكمل»-).[٣٨]

258

إن الفساد الذي يعبر عن خطر فوضى تتهدد الحواس وخلخلةٍ في مبنى الأحاسيس، الذي يسمى حياة، لهذا الفساد أوجه متنوّعة بتنوع الكيانات الحية التي يظهر فيها.[٣٩] فعندما تتخلى طبقة أرستقراطية، مثل الأرستقراطية الفرنسية في بداية الثورة عن امتيازاتها بشيء من الاشمئزاز السامي وتضحي بنفسها لأجل جموح طائش لأحاسيسها الأخلاقية، فإن ذلك يكون فساداً؛ ولم يكن ذلك في الحقيقة سوى حلقة الختام التي انتهى إليها مسار الفساد الذي كان متواصلا على مدى قرون من الزمن، وخلاله تنازلت تلك الأرستقراطية شيئا فشيئا عن حقوقها في السيادة وانحطت بنفسها إلى *وظيفةٍ* في خدمة الملَكيّة (لتنتهي بالأخير إلى مجرّد حلية لها وشارة لفخامتها). بينما المكوّن الأساسي لأرستقراطية حقيقية وسليمة هو كونها لا تشعر بنفسها

كوظيفة، سواء للملَكية أو للصالح العام، بل ترى في نفسها *المعنى* الأخير والمبرّر الأوّل لهما معاً، وأنه يحق لها بناء على ذلك أن تقبل بضمير لا يساوره القلق بتضحية عدد هائل من الناس الذين ينبغي أن يُحَطّوا *من أجلها* إلى منزلة المنقوصين، ويُرغَموا على دور العبيد والأدوات الطيّعة. يجب أن يكون إيمانها الأساسي أن المجتمع لا ينبغي أن يكون غاية في ذاته، بل مجرّد أساسٍ وهيكل يمكّن نوعا منتقىً من الارتقاء إلى مهمته العليا، وإلى طراز أعلى من *الوجود*: نوع يمكن مقارنته بتلك النباتات المتسلقة المتعطشة إلى الشمس في جاوة - وتسمى sipo matador، التي تطوق بأذرعها الطويلة شجرة البلوط وتظل تواصل تطويقها وتسلقها إلى أن تعلو عليها بالنهاية ويغدو بإمكانها، وهي تستقر فوقها مستندة عليها، أن تدع تاجها يتفتّق في النور ويعرض سعادتها على الأنظار من تلك الأعالي.-

259

يمكن للتخلي عن الإساءات المتبادلة والعنف والاستغلال، والمساواة بين إرادتنا الخاصة وإرادة الآخرين، أن يصبح بمعنى ما عادة حميدة بين الأفراد إذا ما توفرت له الشروط المناسبة (أي أن يكون بينهم تماثل فعلي في مقدار الطاقة وفي مقاييس القيم، وانتماء مشترك داخل جسد واحد). لكن حالما نوسّع من دائرة هذا المبدأ، بل ونجعل منه *مبدأ أساسيّا للمجتمع*، تتضح لنا بسرعة حقيقته العميقة كإرادة *نفي* للحياة، وكمبدإ تفكك وانحلال. علينا هنا أن نفكر بجديّة وأن نمضي إلى عمق الأشياء ونتفادى الوقوع في شتى أنواع الضعف العاطفي: إن الحياة نفسها في جوهرها انتزاع واعتداء وسيطرة على كل غريب وضعيف، واضطهاد، وقسوة، وإكراه على التشكل بأشكالها

الخاصة، واستيلاء، وفي أقل الأحوال وألطفها استغلالٌ، -لكن لِم يكون علينا أن نظل نستعمل مثل هذه العبارات التي كانت منذ القدم محمّلة بنوايا التشويه والافتراء؟ فحتى ذلك الجسد، الذي قلنا آنفا إنّ الأفراد يقيمون داخله ضمن علاقات المساواة -وهو ما يحدث داخل أرستقراطية سليمة- يلزمه هو أيضا، إذا ما كان ذا حيوية وليس جسداً آيلا إلى الموت، أن يتعامل مع الأجساد الأخرى بما لا يتعامل به الأفراد فيما بينهم داخله: سيكون إرادة القوة متجسِّدةً، وسيكون عليه أن ينمو، وأن يتوسّع ويضمّ ويستولي، وأن يكسب تفوّقاً، لا بدافع من أخلاقيّةٍ أو لاأخلاقيّةٍ ما، بل لأنه يحيا، ولأن الحياة بالذات إرادة قوة. إلا أن الوعي الأوروبي يظل في هذه النقطة بالذات أكثر امتناعاً عن التعلم مما في سواها من المسائل الأخرى: وفي كل مكان غدا هنالك من يُحلم اليوم، بل وتحت رداء علميّ أيضا، بأوضاع اجتماعية قادمة سينتفي فيها «*الطابع الاستغلالي*»: - يمنحني هذا انطباعاً كما لو أنهم يعدون بأبتكار حياة تعلَّق فيها طواعية كل الوظائف العضوية. فالاستغلال ليس أمراً خاصا بمجتمع فاسد أو مجتمع غير كامل وبدائي، بل هو من المكوّنات الجوهرية للكائن الحيّ بوصفه وظيفة أساسية، وهو نتيجة لإرادة القوة، التي هي إرادة الحياة. -ولنفترض أن هذا الأمر شيء جديد كنظرية، فإنه كواقع هو *الواقعة الأصلية* لمجمل التاريخ: لنكن صادقين مع أنفسنا، ولنعترف بهذا الأمر على الأقل!

260

خلال تجوالي بين مختلف المنظومات الأخلاقية، فجِّها والمهذّب منها، التي سادت أو ما زالت سائدة على وجه الأرض، عثرت على

بعض الملامح التي تعود مترافقة بصفة منتظمة ومرتبطة ببعضها البعض؛ إلى أن برز لي بالنهاية صنفان أساسيّان واختلاف جوهريّ. هناك *أخلاق أسياد وأخلاق عبيد*؛ وأضيف أن محاولات تحدث أيضا داخل الحضارات الراقية وذات التكوينة المختلطة للتوفيق بين هذين النمطين، وفي أغلب الأحيان يحدث خلط بينهما وسوء تفاهم متبادل، بل وتجاور عنيف أحيانا، حتى لدى الفرد نفسه، وفي النفس الواحدة. ويظهر اختلاف القيَم إما كشيء ينشأ لدى النوع المسيطِر، الذي أصبح واعياً بكثير من الغبطة بالفوارق التي تميزه عن النوع الخاضع؛ أو لدى المغلوب على أمره من عبيد وشتى الفئات التابعة. في الحالة الأولى، عندما يكون المسيطرون هم الذين يحددون مفهوم الـ«خير» تكون الأحوال السامية والظافرة للنفس هي التي تضفي صفة التميّز وتحدد المنزلة. وهنا يفصل الإنسان النبيل عن نفسه ويقصي الكائنات التي تتجلى فيها نقائض تلك الأحوال السامية والظافرة؛ فهو يحتقر هذا الصنف. ولابد أن نشير إلى أن ثنائية «حسَن» و«سيّء» تعني لدى هذا النمط (الأول) من الأخلاق «نبيلا» و«وضيعاً»؛ أما ثنائية «خير» و«شر» فهي من أصل آخر. محتقَراً يكون كل جبان، ورعديد، وخسيس، والذي يفكر في المصلحة الضيقة، وكذلك كثيرَ الارتياب بنظرته الحبيسة، والمتّضعَ، ونوعَ الكلاب الذي يقبل بسوء المعاملة، والمتسوّل المتملّق، وخاصة وقبل كل شيء، الكذّاب: وكل الأرستقراطيين على قناعة راسخة بأن الشعب كذّاب. «نحن الصادقين»، هكذا كان نبلاء العصر الإغريقي القديم يسمون أنفسهم. وإنه لمن البديهي أن التصنيفات القائمة على تقييم أخلاقيّ تطلق على *البشر* بدءًا، ثم تُسحب من بعدها فقط على *الأفعال*؛ لذلك يعتبر من الخطأ الفادح أن ينطلق مؤرخ الأخلاق من أسئلة من نوع «ما الذي

يجعل فعل الشفقة محموداً؟» فالجنس النبيل من البشر يشعر بنفسه محدِّداً للقيمة ولا حاجة له لأن ينال رضى أو استحساناً، فهو الذي يحكم: «ماهو مضرّ بي فهو مضر في ذاته»، وهو واع بأنه هُو، وهُو وحده الذي يمنح الأشياء اعتبارها: إنه *مبدع قيم*؛ وكل ما يعرفه في نفسه يكرّمه: أخلاقٌ من هذا النوع هي تمجيد للذات. يحتل صدارة هذه الأخلاق إحساسُ الثراء والقوة التي تريد أن تتدفق، وغبطة التوتر الأعلى، والوعي بثراءٍ يريد أن يهِب ويوزع: والإنسان النبيل يساعد البائس هو أيضاً، لكنه لا يفعل، أو لا يكاد يفعل ذلك بدافع الشفقة، بل بدافع من الضغط الذي يولّده فائض الثراء. والإنسان النبيل يكرم في نفسه القويَّ، وكذلك الذي يمتلك السيطرة على نفسه، الذي يعرف متى يتكلم ومتى يصمت، والذي يمارس بمتعةٍ صرامةً وقسوة على نفسه، ويكنّ احتراماً لكل صارم وقاسٍ. «*قلباً قاسيا وضع فوتانْ في صدري*» يرد في ملحمة اسكندنافية قديمة(*): كلام نابع عن قلب فيكينغ مفعم اعتزازا بالنفس. إن نوعا مثل هذا من البشر يكون فخورا حقا بكونه *لم* يُجبَل على الشفقة: لذلك يضيف بطل الملحمة محذّراً: «من لم يكن له قلب قاسٍ منذ الصغر، لن يكتسب ذلك بعدها أبداً». نبلاء وشجعان يرون الأمور على هذا النحو هم أبعد ما يكون عن تلك الأخلاق التي لا تستمد طابعها الأخلاقي إلا من خلال الشفقة أو

(*) Wotan إحدى شخصيات فاغنر في رباعية ملحمة «نيبلونغن» (Ring des Nibelungen). ويستحضرها من الميثولوجيا الجرمانية القديمة، التي استمدته بدورها من صورة الإله أودين (Odin) من ميثولوجيا شعوب الشمال الأوروبي. وكان يمثل لديهم أب الآلهة، وإله الحرب والموتى والسحر، وله صفات من خصائص الجنّ والشياطين أيضا. والقولة التي ترد هنا لزيغفريد بطل الملحمةكما يتضح من الجملة اللاحقة (م)

العمل من أجل الآخرين، أو في اللانفعية؛ فالإيمان بالذات والاعتداد بالنفس، وعداوة مبدئية لـ«نكران الذات» والسخرية من ذلك هي بكل يقين من مكوّنات الأخلاق النبيلة، إلى جانب شيء من الاستهزاء الخفيف والحذر تجاه العطف و«طيبة القلب». إن الأقوياء هم أولئك الذين يعرفون كيف يُكبرون ويجلّون، فذلك هو فنّهم، ومجال إبداعهم. احترام عميق للشيخوخة والأصل -وعلى هذا الاحترام المزدوج يقوم مجمل القانون-. والإيمان بالسلف والحكم المسبق لصالحه على حساب الأجيال القادمة هي صفات مميزة لأخلاق الأقوياء؛ وإذا ما رأينا بالمقابل أنصار «الأفكار الحديثة» يبجلون بما يشبه النزوع الغريزي الإيمان بـ«التقدم» و«المستقبل» متخلّين أكثر فأكثر عن احترام الشيخوخة، فإن ذلك يكشف على نحو كافٍ عن الأصل الوضيع لتلك «الأفكار»(*). غير أن أكثر ما يكون غريباً ومزعجاً لذوق المعاصرين في أخلاق الأسياد هو صرامة مبدئها الذي يقضي بألاّ واجب للمرء إلا تجاه أنداده، وبأنه يحق له أن يتعامل مع كائنات المرتبة الدنيا ومع كل غريب كما يحلو له، أو «بحسب ما يمليه عليه قلبه»، وفي كل الأحوال من موقع «ماوراء الخير والشرّ»؛ -ولِم لا بشيء من الرحمة وما شابهها من الأحاسيس، التي يمكنها أن تجد مكانا لها هنا. فالقدرة على الامتنان الدائم والانتقام الطويل واعتبارهما واجباً-وكلاهما لا يصحّان إلا بين الأنداد-، واللطف في المجازاة، والرهافة في مفهوم الصداقة، وضرب من واجب مّا في أن يكون للمرء أعداء (كنوع من تحويل لمجرى أحاسيس الحسد والعدوانية والغرور،

(*) لا يمكن أن لا تحضرنا عند هذا الموضع تلك التسمية التي أطلقها الرئيس الأميركي جورج بوش الإبن على القارة الأوروبية وهو يدعوها مستهزئا ومعيِّراً بـ«أوروبا العجوز»!

-أي كي يستطيع المرء أن يكون صديقاً جيّدا بالنهاية)؛ كل هذه علامات مميزة للأخلاق النبيلة، التي هي، كما ذكرنا، شيء آخر غير أخلاق «الأفكار الحديثة»، وذلك ما يجعل الإحساس بها اليوم، والتنقيب عنها وكشفها أمراً صعبا. يكون الأمر مختلفاً تماما مع النوع الثاني: *أخلاق العبيد*. لنفترض أن المستعبدين والمضطَهدين والمحرومين، والمتعبين والذين لاوعي لهم بذاتهم سيصبحون دعاة أخلاقيين، فماذا ستكون السمة المشتركة لتقييمهم الأخلاقي؟ من الراجح أن ضربا من الارتياب المتشائم تجاه الشرط الإنساني بكليته هو الذي سيعبر عن نفسه من خلال أخلاقيتهم، وربما حكماً سلبيًّا على الإنسان نفسه وشرط وجوده معاً. إن نظرة العبد سلبية دوماً تجاه فضائل السيّد، فالعبد شديد الارتياب تجاه كل «حسن» يُجّله الأسياد، ويحاول أن يقنع نفسه بأن السعادة نفسها مزيّفة لديهم. وبالمقابل يبرز الخصال التي من شأنها أن تخفّف من معاناة الوجود لدى المعذّبين؛ فيُكبر إذاً ويطري على الشفقة ويد المساعدة، والقلب الحنون، والصبر، والاجتهاد في العمل، والتواضع والمودّة؛ إذ تلك هي الخصال الأكثر نفعاً، والوسيلة الوحيدة تقريباً لتحمّل وطأة الوجود. إن أخلاق العبيد أخلاقٌ نفعيّة في جوهرها. هنا توجد البؤرة التي تنشأ داخلها ثنائية «الخير» و«الشر»: داخل خانة الشرّ يُحشر كل ما هو قوّة وخطر ونوع من الشناعة والرهافة والمتانة التي لا يمكن أن تجلب لصاحبها الاحتقار. فمن وجهة نظر أخلاق العبيد يكون «الشر» إذاً مثيرا للخوف؛ أما أخلاق الأسياد فترى أن الإنسان «الخيِّر» بالذات هو ذاك الذي يثير، ويريد أن يثير الخوف، بينما «السيّء» هو ذاك الذي ترى فيه إنساناً جديرا بالاحتقار. ويبلغ التناقض ذروته عندما تعْلَق بالإنسان «الخيّر» نفسه أخيراً، وفقا للمنطق الداخلي لطبيعة أخلاق

العبيد، مسحةٌ من الاستنقاص -وإن كانت طفيفة، وربما لا تخلو من شيء من اللطف أيضا-، لأنّ «الخيّر» في منطق العبيد لا يمكن أن يكون في كل الأحوال سوى شخص *غير مرهوب الجانب*: فهو إنسان طيب، سهل الخداع، وربما غبيّ شيئا ما: أي وديع، بعبارة مختصرة. وحيثما أصبحت أخلاق العبيد طاغية تبدي اللغة ميلا إلى جعل عبارتي «طيّب» و«غبيّ» متقاربتين. -فارق أساسي أخير: وكما يكون التطلع إلى *الحرية*، أي الحدس الغريزي للسعادة وكل دقائق الإحساس بالحرية التي تكوّن تلك السعادة، جزءًا ضروريا من أخلاق العبيد، يكون التفنّن في تعظيم الاحترام والتفاني العلامة الثابتة عن نمط تفكير وتقييم أرستقراطيّ. من هنا يمكننا أن نفهم بكل بساطة لماذا يكون الحبّ كشغف -وهذه خاصيتنا الأوروبية- من أصل نبيل بالضرورة: والمعروف أن هذا النوع من الحب من ابتكار الشعراء الفرسان البروفونساليين، أولئك الرجال المهيبين والمبدعين الذين ابتكروا الـ "gai saber"-العلم المرح(*) الذي تدين له أوروبا بالكثير، بل بوجودها نفسِه تقريباً.

(*) يشير نيتشه هنا إلى مؤسسة أكايمية أوروبية أوكسيتانيّة ، وتعد أعرق أكاديمية أوروبية على الإطلاق، وهي Consistori del Gai Saber التي أسسها سنة ١٣٢٣ كل من برنات دي باناساك، وغويلهام دي لوبرا، وبيرينغير دي سانت بلانكات... وآخرون. واشتغلت هذه المؤسسة الأكاديمية على تأليف كتب في النحو والأدب الشعري من ذلك أشعار التروبادور. وأفردت جوائز سنوية لعدد من الشعراء المتميزين. ونلاحظ أن نيتشه استعمل هنا العبارة الأوكسيتانية الأصلية (Gay saber)، خلافا لما فعله في عنوان مؤلفه «العلم المرح» حيث استعمل العبارة اللاتينية la Gaya Scienza

من الأشياء التي قد يجد الإنسان النبيل أكبر صعوبة في فهمها هناك مسألة الغرور: يجد النبيل نفسه ميالا إلى نفي وجود الغرور حيث يكون واضحاً ومدركاً تمام الإدراك بالنسبة لنمط آخر من الناس. إن المشكلة تتمثل لديه في عدم قدرته على تصور كائنات تحاول أن تستثير رأياً إيجابيّا في شأنها لا تمتلكه هي ذاتها عن نفسها- وبالتالي لا «تستأهله» أيضاً-، ومع ذلك **ستؤمن** به فيما بعد. مثل هذا الأمر يتراءى له عديم الذوق ومنافيا للكرامة من ناحية، وعلى غاية من الشذوذ والحمق، بما يجعله يميل إلى اعتبار الغرور حالة استثنائية، وإلى التشكيك في وجوده في أغلب الحالات التي يأتي ذكره فيها. سيقول على سبيل المثال: «يمكنني أن أخطئ في تقدير قيمتي وأظل أرغب مع ذلك في أن يعترف لي الآخرون بالقيمة التي أمنحها لنفسي- لكنّ هذا ليس بغرور (بل كبرياء، وفي أغلب الأحوال ضرباً مما يسمى «استكانة» أو «تواضعا» أيضا)». أو سيقول : «يمكنني أن أبتهج بالرأي الحسن للآخرين فيّ لأسباب عديدة؛ قد يعود ذلك إلى أنني أحبهم وأحترمهم وأفرح بكل ما يُفرحهم، أو قد يكون ذلك بسبب أن رأيهم الحسن يؤكد لي إيماني برأيي في نفسي ويثبّته، أو لعل رأي الآخرين فيّ ، حتى عندما لا أشاطرهم إياه، ينفعني مع ذلك أو يعدني بمنافع- لكنّ هذا كله ليس بالغرور.» على الإنسان النبيل أن يغالب نفسه أولا مستعيناً في ذلك بالتاريخ خاصة، كي يدرك أن الإنسان العامي من كل الطبقات التابعة لم يكن منذ غابر العصور *سوى ذلك الذي عُرف به* : - نظرا لكونه لم يتعوّد البتة على وضع قيمٍ بنفسه، فقد كان لا ينسب لنفسه من قيمة غير تلك التي حددها له سيّده (إذ ذاك هو *حق السيد* بامتياز أن يكون واضع قيمٍ). قد يعتبر البعض ذلك نتيجة موروث ذا

قوة تأسُّليّة متينة، أن يظل الإنسان العادي، وفي عصرنا الحاضر أيضا ينتظر دوما أن يكوّن الآخرون رأيا عنه كي يقبل بعدها بذلك الرأي ويخضع له غريزيّا؛ ولا يتوقف الأمر عند خضوعه للرأي الحسن فقط، بل يتعداه إلى الآراء السلبية أيضا، والتي لا تكون لصالحه. لنفكر على سبيل المثال في معظم حالات النساء الورعات اللاتي يثمنّ أو يبخّسن أنفسهنّ بحسب ما يعلّمهن كاهن الاعتراف ، وكذلك الشأن بالنسبة للمؤمن المسيحي وما يتعلمه من كنيسته). واليوم، ونظراً للصعود التدريجي للنظام الديمقراطي الذي يسود كل شيء (وما يتبعه من اختلاط بين الأسياد والعبيد)، نرى فعلا أن ذلك النزوع القديم النبيل والنادر إلى أن يكون الفرد هو من يحدد قيمته بنفسه، وأن يحمل عن نفسه رأياً حسنا، ما فتئ يتدعّم وينتشر أكثر فأكثر؛ غير أن هذا النزوع سيجد أمامه في كل لحظة نزوعاً آخر أقدم وأكثر انتشاراً وأعمق ترسّخا في الأنفس، -وفي ما يتعلق بظاهرة «الغرور» ستكون لذلك النزوع القديم الغلَبة على الجديد. فالمغرور *يُسَرّ لكل* رأي حسن يسمعه عن نفسه (بصرف النظر كليّا عن منفعيته، وعمّا فيه من الحقيقة أو الخطأ)، تماماً كما يتألم لكل رأي سيء عنه، لأنه خاضع لكليهما ويشعر بنفسه واقعاً تحت سلطتهما بسبب غريزة الخضوع القديمة التي تستيقظ في داخله فجأة: إنه «العبد» المخالِط لكيان المغرور: راسبٌ من مكر العبودية، -وكم من طباع العبودية ما تزال مترسّبة إلى اليوم داخل نفس المرأة مثلا! -، وذاك الذي يحاول أن يستدرجنا إلى تكوين رأي حسن عنه، إنما هو العبد نفسه الذي سينحني أمام ذلك الرأي، كما لو أنه لم يكن هو الذي استدعاه واستثاره فينا. -ولنقلها مرة أخرى: إن الغرور تأسُّلية.

هناك نوعٌ بعينه ينشأ؛ نمطٌ يثبت ويقوى عوده ضمن صراع طويل ضد الشروط غير الملائمة نفسها. غير أننا نعرف أيضا، استناداً إلى تجربة مربّي المواشي، أن أنواعاً يوفَّر لها فائضٌ من الغذاء ومزيد من الحماية والعناية عموماً سرعان ما يظهر لديها ميل عنيف إلى تنويعات داخل النمط نفسه، وتغدو غنية بالعجائب والفظاعات (بما في ذلك الرذائل الشنيعة). لننظر الآن في مجتمع أرستقراطي داخل حاضرة يونانية قديمة مثلا، أو في فينيسيا (البندقية) بوصفها، عن وعي وإرادة أو لاإراديا، مؤسسة *للتربية* والتهذيب: نجد هناك أناساً يتعايشون جنباً إلى جنب ولا معيل لهم في كل أمر غير أنفسهم، يريدون فرض نمطهم لأنهم غالبا ما يكونوا مضطرين إلى فرض أنفسهم لئلا يغدوا معرّضين إلى خطر الإبادة الذي يحدق بهم على نحو مرعب. فهنا يُفتقَر إلى تلك العناية التي ذكرناها آنفا، وإلى تلك الوفرة والحماية التي تسند النوّع وتدعّمه، ويكون النوع بالتالي في حاجة إلى نفسه كنوعٍ، كشيء يستطيع بفضل قسوته وتجانسه وبساطة شكله أن يفرض نفسه ويضمن لنفسه الديمومة في الصراع المستمر مع جيرانه، أو ضد المتمردين أو أولئك الذين يهددون بالتمرد من مضطهَديه. يتعلم النوعُ من التجارب المتنوعة أية خصال بالتحديد هي التي توصّل بفضلها إلى حفظ بقائه رغماً عن كل البشر الآخرين والآلهة، وإلى أن يظل ينتصر دوماً: تلك الخصال يسميها فضائل، وتلك الفضائل وحدها هي التي يربيها وينمّيها. يفعل ذلك بقسوة، بل إنه يريد القسوة، فكل أخلاق أرستقراطية لا تعرف تسامحاً في تربية الناشئة وفي التعامل مع النساء، وفي تقاليد الحياة الزوجية، وفي العلاقات بين الكبار والصغار، وفي القوانين الجنائية (التي تركز اهتمامها على المنحرفين وحدهم): تضع اللاتسامح في خانة

الفضائل، تحت مسمّى «العدالة». وبهذه الطريقة ينشأ في خضم توالي الأجيال وما يتبعها من تبدلات، ويثبُت نوع ذو سمات قليلة لكنها قويّة، نوع بشريّ صارم، محارب، صموت في ذكائه، مغلق ومنطوٍ على نفسه (وهو بما هو كذلك ذو حسّ مرهف بسحر الحياة المجتمعية وتنوّعها). وكما ذكرنا آنفاً، يكون الصراع المستمر ضد الشروط *غير الملائمة* نفسها سبباً في جعل نوع بعينه يغدو صلبا وثابتاً. لكنّ وضعا سعيداً سينشأ بالنهاية، وتتراخى عندها شدّة التوتّر المهول؛ ربما لن يغدو هناك من أعداء بين الجيران، وتصبح وسائل العيش، بل وسائل الرخاء في مستوى أعلى من الوفرة، وإذا قيودُ وإكراهات التربية القديمة تنكسر وتنحلّ دفعة واحدة، إذ تكف عن كونها ضرورية بانتفاء الإحساس بضرورتها كشرط وجودي؛ -وإذا ما أرادت أن تظل قائمة فسيكون ذلك كشكلٍ من أشكال *الترف* فحسب، وكنزوة *ذوق* تستميله نوستالجيا العتيق. يغدو التنوع فجأة، سواء في شكل تبدّل (باتجاه الأرقى والأكثر رهافة، والنادر)، أو في شكل انحلال وفظاعة، حاضراً فوق مسرح الحياة في تمام ثرائه وأبهته، ويغدو بمستطاع الفرد أن يجرؤ على التفرّد والتميّز. عند هذه المنعطفات التي يعرفها التاريخ يظهر نوع من التجاور والتداخل والتشابك لغابة من عناصر تنمو جميعها معاً وتتصاعد وتتسلّق باتجاه الأعالي؛ ضربٌ من نسقٍ *استوائيّ* في التنافس على النموّ، وسيرٌ حثيث هائل إلى الهلاك والإهلاك، بسبب الأنانيات المتفجّرة في آن واحد والمتواجهة في صراع مستميت من أجل «ضوء الشمس»، صراعٌ لم تعد تعرف فيه حدودا أو كوابح، أو مراعاة أو أي رادع يمكن أن تستمدها من الأخلاق التي كانت سائدة حتى تلك اللحظة. بل إن تلك الأخلاق نفسها هي التي راكمت على نحو مهول تلك الطاقات القتالية، وهي التي شدّت وتيرة القوس بتلك الطريقة الخطيرة؛ وهاهي قد غدت

الآن متجاوَزة، شيئا «زائداً» على الحياة. لقد بلغت التطورات الآن النقطة الخطيرة والهائلة، حيث أنجزت الحياة الأكبر والأكثر تنوعاً ورحابة *تجاوزها* للأخلاق القديمة وغدت تواصل طريقها من دونها؛ وهاهو الفرد وجهاً لوجه مع ضرورة أن يضع قوانينه بنفسه، وأن يتدبر أفانينه وحيله الخاصة لحفظ بقائه وللارتقاء بنفسه، ولخلاصه الذاتيّ. لا شيء غير أسئلة كثيرة حول «لماذا»، و«كيف»؛ ما من صيغ مشتركة بداية من الآن، بل سوء تفاهم واحتقار متبادل متعاضديْن؛ هناك السقوط، والفساد ومستوى أقصى من الرغبات متلاحمة ومتداخلة على نحو مرعب، وعبقريةُ العرْق المتدفقة من فيض شتى أقداح الحسَن والسيّء، وتزامنٌ شنيع لربيع وخريف معاً كله مفاتن وحُجب جديدة من تلك التي تميّز فساداً جديداً فتيًّا لم يُستنفَد ولم يَستنفِد طاقاته بعد. وهاهو الخطر هنا مجدّداً، أب الأخلاق، الخطر الأكبر الذي تحوّل الآن إلى الفرد، إلى القريب والصديق، في الشارع، في الولد، في القلب وفي الحلم والإرادة الأكثرة حميمية وسريّة: فبماذا سيكرز فلاسفة الأخلاق الذين يظهرون في هذا الزمن؟ سيكتشف هؤلاء الملاحظون الدقيقون والمنسحبون إلى زوايا الأزقة أن النهاية أضحت وشيكة، وأن كل شيء من حولهم فاسد ومفسِدٌ، وأن لا شيء سيصمد حتى بعد غدٍ، عدا نوعاً واحداً من البشر؛ أولئك *الرديئون* الذين لا شفاء لهم. فالرديئون وحدهم لهم حظ في البقاء والتناسل؛ هم أناس المستقبل، الناجون الوحيدون من الهلاك؛ «كونوا مثلهم! صيروا رديئين!» تلك هي الآن الأخلاق الوحيدة التي سيظل لها معنى والتي ستجد آذاناً صاغية. -لكنّ الكرازة بها صعبة -أخلاق الرداءة هذه! -سيكون عليها ألاّ تقرّ بهويتها الحقيقية وبما تريد! عليها أن تتكلم عن الاعتدال والكرامة والواجب وحب القريب، -وستتعب كثيراً في *إخفاء سخريتها*!

هناك حسّ *طبقيّ فطريّ* يعدّ أكثر من أي شيء سواه علامةً *مرتبة راقية*؛ وهناك متعة يجدها المرء في دقائق الاحترام توحي بأصل وتقاليد نبيلة. وتجد رهافةُ نفس ما وجودتُها ورفعتُها نفسَها أمام امتحان عسير عندما يمر بها شيء من المرتبة الأرقى لكنه لم يتمتع بعد بحماية السلطة ورهبتها ضد شتى المضايقات المزعجة والفجة؛ شيء يسلك طريقه نكرةً غيرَ مكتشف، غير مكرَّس، في طور المحاولة والتجريب، وربما يكون متنكراً ومحجّباً عن قصد، مثل محكٍّ حيّ. وكل من كانت مهمته وعاداته اليومية تتمثل في امتحان الأنفس وسبر أغوارها سيلجأ إلى أشكال متنوّعة من هذا الفنّ بالذات ليحدد القيمة النهائية لنفس ما والمرتبةَ المتأصّلة التي تنتمي إليها: ستكون *غريزة الاحترام* لديها هي موضوع ذلك الاختبار الذي يُجرى عليها. الاختلاف يولّد الكراهية(*): تبرز سوقيّة بعض الطبائع فجأة وتطفو على السطح مثل مياه قذرة حالما يظهر أمامها إناء مقدّس أو تحفةٌ محفوظة في خزانة مغلقة، أو أيّ كتاب موسوم بعلامة مصير عظيم؛ وبالمقابل يكون هناك صمت لاإراديّ، ونظرة مترددة، وسكون يجمّد كل الأعضاء تفشي كلها أن الروح تحسّ بقرب شيء جدير بالإجلال. ولعل الطريقة التي ظلت أوروبا عموماً تتوخاها للحفاظ على احترام الكتاب المقدس هي أفضل مثال عن التربية والتهذيب الخلُقيّ الذي تدين به أوروبا للمسيحية. إن كتباً بهذا العمق وهذه الأهمية القصوى تحتاج دوما إلى

(*) بالفرنسية في النص: Différence engendre haine مقتطع من جملة للروائي الفرنسي ستاندال من رواية «الأحمر والأسود»:
"J'ai assez vécu pour voir que différence engendre haine"
«لقد عشت كفاية كي أرى أن الاختلاف يولّد الكراهية»

طغيان سلطة خارجية لحمايتها كي تستطيع أن تعمّر هذه الآلاف من السنين الضرورية لفهمها واستنفاد كل ما تحمله من معان. وإنه لنجاح كبير أن تغدو تلقّن الجماهير الواسعة (العقول السطحية الطائشة) ذلك الإحساس بأنه لا يحق لها أن تلمس كل شيء، وأن هناك تجارب مقدّسة يجب أن يخلعوا أحذيتهم في حضرتها وألاّ يمسوها بأيد غير طاهرة؛ فذلك يمثل تقريبا أكبر أعلى درجة يمكنهم الارتقاء إليها على سلم الإنسانية. وعلى العكس من ذلك ربما ليس هناك من شيء أكثر إثارة للاشمئزاز في ما يسمى بالمثقفين والمؤمنين بـ«الأفكار الحديثة» من قلة حيائهم ومن سهولة وقاحة العين واليد، التي تسمح لهم بأن يلمسوا ويلعقوا ويجسّوا كل شيء؛ ومن المحتمل جدّا أنه ما يزال هناك اليوم في صفوف الشعب، وبين القرويين بالتحديد نبالة في الذوق وحسّ بالاحترام أكثر مما في عالم قرّاء الصحف من هُجُن رجال الفكر والمثقفين.

264

لا يمكن أن يمحى من نفس شخص شيئا كان يشغل حياة أسلافه بصفة مستمرة ويتعاطونه بشغف، سواء كانوا من المولعين بالادخار، موظفين إداريين أو مصرفيّين، متواضعين وبرجوازيين(*) في رغباتهم، متواضعين أيضاً في فضائلهم؛ أم من أولئك الذين عاشوا حياة الآمرين المولعين بشتى المتع الخشنة وربما يؤدون واجبات ويتحملون مسؤوليات أكثر خشونة؛ أو قد يكونوا أخيرا من أولئك الذين تنازلوا

(*) يستعمل نيتشه عبارة بورجوازي هنا في المعنى الذي كان لها في تلك العصور التي كانت تعتبر طبقة البورجوازية طبقة دنيئة ملتصقة بالعمل والإنتاج، مقارنة بالأرستقراطية وطبقة النبلاء.

في يوم ما عن امتيازاتهم القديمة في النَسَب والملكية كي يتفرغوا كليا لعقيدتهم -لربهم- كرجال من ذوي الضمائر الحازمة والرقيقة، الذين يحمرّون خجلاً من كل وساطة بينهم وبين معبودهم. إنه إذاً من غير الممكن ألاّ يحمل المرء في دمه خصال وميول والديه وأجداده، مهما أوحت به المظاهر من عكس ذلك. تلك هي مشكلة العِرق. ويكفي أن نعرف شيئا عن الوالدين، كي يغدو بإمكاننا أن نستنتج أشياء عن الولد: تقلّبٌ مزاجيّ كريه ما، حسدٌ خسيس مّا، إصرار ثقيل على الاستئثار بالحق دوماً -العناصر الثلاثة مجتمعةً، التي كانت على الدوام من الخصائص الأساسية للنمط العامّي-، مثل هذه الأشياء تنتقل حتماً إلى الولد انتقال الدم الفاسد إليه؛ ولن تفلح أفضل تربية وأحسن تعليم سوى في جعل مثل هذا الفساد خفيّا *وقادراً على الخداع*. وهل يريد التعليم والتربية اليوم شيئا آخر غير هذا! ففي عصرنا الشعبيّ، أعني العاميّ هذا، لا بد أن يكون «التعليم» و«التربية» في جوهرهما فنّ خداع - للمغالطة حول الأصل وصرف النظر عن الفساد العاميّ الذي يسكن الجسد والروح. وكل مربٍّ سيكرز اليوم بالصدقيّة ويظل يكرر بصفة مستمرة على تلامذته: «كونوا حقيقيّين! كونوا طبيعيين! واظهروا دوما كما أنتم!»، حتى مثل هذا الحمار الفاضل والساذج سيتعلم بعد مدة من الزمن كيف يمسك بتلك المذراة الشهيرة لهوراس ليطرد بها الطبيعة: وماذا تكون النتيجة؟ «العاميّ» *usque recurret* -يظلّ يعود دوماً.(*)

(*) إحالة على مقولة لهوراس: naturam expellas furca, tamen usque recurret وتعني: «اطرد الطبيعة بالمذراة، وستظل تعود دوماً.»

ربما سأجرح الكثير من الآذان البريئة إذا ما جازفت بالقول إن الأنانية من شيم الأنفس النبيلة؛ أعني بذلك الإيمان الراسخ بأن كائناً «من نوعنا» لا بد أن تخضع له طبيعيّا كائنات أخرى وتضحي بنفسها من أجله. والنفس النبيلة تقبل بواقع أنانيّتها دون مزيد تساؤل، ودون إحساس بشيء من القسوة أو الإكراه أو التعسف في ذلك، بل تتقبله بالأحرى كشيء يمكن أن يكون له ما يبرره في القانون السرمديّ للأشياء: وإذا ما أرادت أن تمنح ذلك إسماً فستقول «إنها العدالة نفسُها». وتقرّ النفس النبيلة في ظروف محددة تبعث على التردد في البداية، بأن هناك من يساويها مرتبةً وحقوقاً؛ وحالما تكون قد حسمت هذه المسألة يصبح لها سلوك تلقائيّ واثق بين أولئك المساوين لها في المرتبة والحقوق، بنفس الحياء والاحترام اللطيف الذي لها في تعاملها مع نفسها؛ وفقا لآليةٍ فطريّة سماوية تفهمها كل النجوم. وهذه اللطافة والتحفظ في تعاملها مع أندادها قسطٌ إضافي من *الأنانية* في حد ذاته - وكل كوكب أنانيٌّ على هذا النحو-: إنها تحترم *نفسها* فيهم من خلال تلك الحقوق التي تمنحها لهم، ولا تشك البتة في أنّ تبادُل التشريفات والحقوق كمكوّن جوهري لكل المعاملات جزء بدوره من النظام الطبيعي للأشياء. إن النفس النبيلة تمنح، كما تتناول، وفقاً لغريزة عدالة شغوف وحسّاسة كامنة في أعماقها، فمفهوم «الرحمة» لا معنى له بين *أندادٍ* ويُعدّ مشبوهاً؛ يمكن أن يكون هناك نوع يحلو له أن يرى هبات تهبط عليه من فوق ويدعها تغمره ويظل يرتشفها بلهفة العطشان؛ غير أن النفس النبيلة لا تجيد مثل هذا الفنّ وهذه الحركات. إن أنانيتها تحول دون ذلك: فهي لا تحبّذ النظر إلى «فوق» عموماً، بل، إلى الأمام، أفقيًّا وببطء؛ أو إلى أسفل: إنها *تدرك أنها في الأعالي*.-

266

«لا يمكن أن نحترم حقًّا إلا ذاك الذي لا يبحث عن نفسه». - غوته إلى مستشار شلوسر.

267

للصينيين مثَل تردده الأمهات دوماً على أطفالهنّ «سياوْ سِنْ»، أي «اجعل قلبك *صغيراً*!» -ذاك هو الميل الأساسي لكل حضارة قطعت شوطاً متقدما في الكهولة؛ ولا أشك في أن إغريقيّا من اليونان القديمة سيرى فينا، نحن أوروبيّي اليوم، أول ما يرى هذا النزوع إلى تصغير الذات، -وبهذا وحده سيجدنا «منافين لذوقه».

268

أيّ شيء هي العاميّة بالنهاية؟ -إن الكلمات علامات صوتية للأفكار؛ أما الأفكار فهي صور مجازية متفاوتة الدقة عن أحاسيس متكررة غالباً ومتزامنة في تكررها: صور لمجموعات أحاسيس. غير أنه لا يكفي أن ننطق بنفس الكلمات كي نتفاهم؛ لابد أن نستعمل نفس الكلمات للتعبير عن نفس النوع من الأحاسيس، أي لابد أن تكون هناك بالنهاية تجربة مشتركة بين الأطراف المتواصلة. لذلك يتفاهم أناس الشعب الواحد فيما بينهم أفضل مما يحصل بين أناس من شعوب مختلفة، حتى وإن كانوا يستعملون نفس اللغة؛ أو لنقل أنه عندما يعيش أناس زمنا طويلا معاً ضمن نفس الشروط (من مناخ، وتربة، وأخطار، وحاجات، وعمل)، ينشأ عن ذلك كله شيءٌ «يفهم بعضه البعض»: شعبٌ. هناك عدد متساو من تجارب متكررة بصفة شبه مستمرة ستستقر داخل الأنفس على حساب تجارب نادرة

الحدوث؛ حولها يفهم الناس بعضهم بسهولة، ثم بأكثر فأكثر سرعة: إن تاريخ لغة مّا هو تاريخ مسار اختزاليّ؛ وعلى أساس هذا التفاهم السريع يغدو الترابط بين الناس أكثر فأكثر متانة. وكلما كان الخطر الذي يواجهه الناس أكبر، كلما ازدادت حاجتهم إلى التفاهم بأكثر سرعة وسهولة حول ما يلزم لمواجهته؛ فتفادي الوقوع في سوء التفاهم ساعة الخطر هو الشرط الضروري الأول في العلاقات بين البشر. وحتى داخل علاقات الصداقة والعلاقات الغرامية نلاحظ أنّ لا شيء من تلك الارتباطات يُكتب له الديمومة إذا ما اتضح أن أحد الطرفين في استعماله لنفس الكلمات يشعر ويعني ويحدس ويتمنى ويتخوّف على نحو مغاير للطرف الثاني. (إن الخوف من «سوء التفاهم الأبدي» هو الروح المحسِن الذي يمنع غالبا أشخاصاً من الجنسين من عقد ارتباط متسرّع يدفع إليه القلب والحواسّ، -ذلك الخوف، *وليس* ضرباً من «روح النوع» الذي يتكلم عنه شوبنهاور!). - أية مجموعات من الأحاسيس تستيقظ بأكثر سرعة داخل النفس، وتتناول الكلمة، وتُصدر الأمر، ذلك هو ما يحدّد تراتبيّة قيَمها في مجملها، ويضبط بالنهاية لوح قيمها. إن التقييمات التي يجريها شخص ما تبنئ عن نوعيّة تركيبته النفسيّة وعلى أي نحو تحدد شروط حياتها وحاجتها الحقيقية. وإذا ما افترضنا الآن أن الحاجة كانت على الدوام لا تقرّب إلا بين أشخاص كانوا يستطيعون أن يعبروا بعلامات متشابهة عن حاجات وتجارب متشابهة، فسينتج عن ذلك عموماً أن سهولة *تواصل* الحاجة، أو ما يعني بالنهاية تقاسم تجارب يومية مبتذلة وعمومية فقط لا بد أنها كانت القوّة الأعتى من بين كل القوى التي فرضت سيطرتها على الإنسان. وبالتالي فإن عموم الناس والمتشابهين كانوا وما زالوا الأفضل حالا؛ بينما رجال النخبة، والأكثر رهافة، والنادرين، والذين يصعب فهمهم

غالبا ما يعيشون وحيدين ومعرضين بحكم عزلتهم إلى الخطر، ونادراً ما ينجبون نسلا. وعلى المرء أن يستنهض طاقات مضادة هائلة كي يستطيع التصدي إلى هذا المضيّ الطبيعي المفرط في طبيعيّته باتجاه المشابهة وهذا المسار الذي يمضي بالإنسان نحو التماثل والنمط العادي، الوسطيّ، القطيعي، - نحو *الرداءة*!

269

كلما ازداد اهتمام الخبير النفساني -سيكولوجي بالفطرة مجبول على سبر أغوار النفس- بالحالات النادرة والمنتخبة من الناس، كلما تفاقم خطر وقوعه في الاختناق بالشفقة: خبير نفساني من هذا النوع بحاجة إلى القسوة والمرح أكثر من أي أحد. ففساد الإنسان الأرقى وهلاك الأنفس غير العادية هي القاعدة؛ وإنه لأمر شنيع أن يظل المرء يضع هذه القاعدة نصب عينيه بصفة دائمة. إن العذابات المتنوعة التي يجدها الخبير النفساني الذي يكون قد اكتشف هذا الانهيار مرة، ويظل يكتشف من جديد وبصفة مستمرة عبر مجمل التاريخ هذه «الحالة الميؤوسة» للإنسان الأرقى، وذلك الإحساس بـ«فوات الأوان» الأبديّ بكل المعاني؛ يمكن لهذا العذاب أن يتحول في يوم ما إلى سبب يجعله ينقم بكل مرارة على قدَره، وقد تغريه محاولة تدمير نفسه، -أي أن «يفسُد» بدوره. ونحن نلاحظ لدى كل خبير نفساني تقريباً ميلا ورغبة ذات دلالة إلى معاشرة أناس عاديين وذوي حياة مرتّبة منسجمة؛ ميلاً يفشي حاجة دائمة لديه في العلاج، وإلى ضرب من الهروب والنسيان بعيداً عما تكشفه له عينه ومشرط الجرّاح، وعما يرزح على ضميره مما تلقي به عليه «حرفته». إن خوف الخبير النفساني من ذاكرته هي خاصيته المميزة. وغالباً ما يجد نفسه يركن بسهولة إلى الصمت أمام

حكم الآخرين: يستمع بوجه مقفل إلى الآخرين وهم يمجدون ويُعجَبون ويحبّون ويجلّون، هناك حيث يكون هو قد اكتفى بأن *رأى*؛ أو أنه يتستّر عن صمته بأن يعبر بصريح العبارة عن موافقته لرأي سطحيّ ما. وربما تمضي المفارقة في وضعه بعيداً حتى تخوم المفزع، بما يجعل العموم والمثقفين والمتحمسين يتعلمون من جهتهم الاحترام الأكبر، هناك بالضبط حيث يكون هو قد تعلم الشفقة الكبرى إلى جانب الاحتقار الأكبر: إكبار «الرجال العظماء» و«الحيوانات» الاستثنائية التي يباركون من أجلها ويجلّون الوطن والأرض وكرامة الإنسان وأنفسَهم أيضاً، والتي يقدمونها للشباب كنموذج ويربّونهم على مثالها بوصفها قدوة... ومن يدري إن لم يكن الأمر نفسه هو الذي يحدث دوما في المسائل الكبرى أيضا؛ أي أنّ عموم الجمهور كان يعبد إلهاً، وأن ذلك «الإله» لم يكن سوى حيوانَ أضحية بائس! لقد كان النجاح أكبر الكذابين على الإطلاق، -و«الصنيعة» نفسُها نجاح؛ فرجل الدولة العظيم، والفاتح، والمكتشف يتقنّعون بمنجزاتهم إلى حد مضلِّل يصبح معه من العسير التعرف عليهم. إذ «الأثر»، أثر الفنّان والفيلسوف هو الذي يخلق ذاك الذي أبدعه، أو الذي يُفترَض أنه أبدعه؛ و«العظماء» كما يعرفهم ويجلّهم الناس هم قصائد صغيرة رديئة تم تأليفها لاحقاً: فتزوير العملة يسود عالم التقييم التاريخي. إن كبار الشعراء من أمثال بايرون، موسّيه، بو، ليوباردي، كلايست، غوغول[٤٠]، كما هم بطبعهم، أو كما ينبغي عليهم أن يكونوا، هم أولئك الذين يعيشون اللحظة العابرة، حماسيون، حسيّون، صبيانيون، طائشون وفجئيّون في الثقة كما في الارتياب؛ ذوو أنفس بها عادة جرح مّا ينبغي التكتم عليه؛ بهم غالبا رغبة في الانتقام بأعمالهم من قذارة باطنية ما، يسعون من خلال طيرانهم إلى الهروب من ذاكرة عنيدة

مفرطة في الوفاء؛ تائهين غالباً داخل الأوحال، عاشقين لها تقريباً إلى أن يتحولوا إلى ما يشبه السّراب الحائم حول المستنقعات متنكرين في هيأة الكواكب -ويسميهم الشعب عندها بكل سرور مثاليّين-؛ في صراع غالباً مع اشمئزاز قديم، ومع شبح عدم الإيمان الذي يعاودهم بانتظام، يجعلهم باردين ويرغمهم على اللهاث وراء المجد، وعلى التقاط فُتات من «الإيمان بذواتهم» يلقي بها إليهم متزلّفون مخمورون. أيّ *ضحايا معذّبة* هم هؤلاء الفنانون الكبار والرجال الراقون في نظر كل من حزر حقيقتهم يوماً! ولا غرابة إذاً أن النساء- وهن بطبعهن نافذات البصر في كل ما له علاقة بعالم الآلام، ومتعطشات إلى أبعد الحدود وأكثر من طاقاتهنِ للأسف، للمساعدة والنجدة- ينبريْن بسهولة إلى إحاطتهن بفيض عارم من *الشفقة* لا يستطيع عموم الشعب، والمتعبّدون من بينهم خاصة، أن يفهموه فيمطرونه بالتالي بجمّ من التأويلات الفضولية والمشبعة غروراً. وغالباً ما تسيء هذه الشفقة تقدير قواها، فالمرأة تودّ أن تقنع نفسها بأن الحب قادر على *كل شيء*: إذ ذاك هو *إيمانها* الحقيقي. غير أن العارف بالقلوب يدرك للأسف كم فقيرٌ هو الحبّ، بما في ذلك أفضله وأعمقه! وكم هو غبيّ، وقاصر، ومغرور وأرعن، وأكثر تدميراً مما يمكن أن يكون منقذاً! ومن المحتمل أن الأسطورة المقدسة والقناع المقدّس ليسوع يخفيان خلفهما الحالة المؤلمة القصوى للشهادة في سبيل *معرفة الحب*: شهادة القلب الأكثر براءة والأكثر رغبة، الذي لم يجد كفايته في أية محبّة إنسانيّة، وظل حياته كلها لا *يطالب* بشيء سوى أن يحِبّ ويحَبّ، بقسوة، وبجنون، وبفورات غضب مريعة ضد كل الذين جحدوه ذلك: قصة رجل معوز في الحب، متعطش للحب عطشاً لا يرتوي أبداً كان عليه أن يبتكر حجيماً يرسل إليه بكل الذين لم *يريدوا* أن يحبّوه، -ثم كان عليه بعد

أن أضحى عارفاً بالحب البشريّ أن يبتدع إلهاً كلّه محبّة، وكلّه قدرة على المحبة، إلهاً مشفقاً على الحب البشري، إذ يجده على قدر مهول من البؤس ومن الجهل! إن من يشعر على هذا النحو، ويعرف حبًّا من هذا النوع، إنما هو يبحث عن الموت. لكن، لِم نظل متعلّقين بمثل هذه الأمور الموجعة؟ -عدا أن نكون مجبَرين على ذلك.

270

إن الغرور العقلي والاشمئزاز اللذين يميزان كل من عرف معاناة عميقة -ودرجة العمق التي يمكن أن تبلغها معاناة شخص مّا تكاد تكون مقياساً لتحديد مرتبته- واليقينُ المفزع الذي تشبّع وتلوّن به، بأنه غدا يعرف بفضل معاناته أكثر مما يمكن لأكثر الناس ذكاء وحكمة أن يعرفوا، وأنه غدا أليفَ ومألوفَ أقاصي نائية مفزعة من الدنيا «لا تعلمون عنها شيئا!»... هذا الغرور العقلي الصامت للمتألّم، وكبرياء العارف المنتخب والمصطفى، الذي كاد أن يذهب ضحية لمعاناته، يجد في كل أشكال التنكر شيئا ضروريا من أجل التحصن من ملامسة أيدي الفضوليين والمشفقين، وكل من هم ليسوا أنداداً له في المعاناة. إن المعاناة العميقة تُنبِّل، وتفصل. وقد كانت الأبيقورية أحد الأشكال المرهفة للتنكّر، وضرباً من شجاعة استعراضية في الذوق تستخف بالألم وتحصّن نفسها من كل ما هو حزين وعميق. هناك «أناس مرحون» يستعملون المرح من أجل أن يُساء فهمهم من خلاله: فهم يريدون أن يُساء فهمهم. وهناك «رجال علم» يستخدمون العلم، لأنه يمنحهم ظاهرَ مرحٍ، ولأن الذهن العلمي يسمح بالاستنتاج بأن من يكون كذلك سطحيٌّ؛ هؤلاء يريدون استدراج الناس إلى استنتاج خاطئ. وهناك عقول حرّة صلِفة[٤١] تريد أن تخفي وتُنكر أنها قلوب

فخورة محطمة لا شفاء لها؛ والحمق نفسه يكون أحيانا قناعا لعلم مشؤوم مفرط في اليقين. وبالتالي فإنه من شيم الإنسانية الراقية أن تحترم «القناع»، وألاّ تمارس البسيكولوجيا والفضول المعرفي في غير محلّهما.

271

ما يفصل على نحو عميق بين شخصين هو الفارق في حسّ النقاوة ودرجتها. وما فائدة الاستقامة والمنفعة المتبادلة، وما فائدة كل النوايا الحسنة بينهما إذا ما بقيت الأمور على ما هي عليه، وظلا «لا يطيق أحدهما الآخر»! إن الغريزة السامية للنقاوة تضع صاحبها في أغرب وأخطر أنواع الوحدة بوصفه قديساً؛ إذ تلك هي القداسة: أن يرتقي المرء بتلك الغريزة إلى أسمى درجات الروحانية. ضرب من التواطؤ حول فيض من سعادة في الاستحمام لا توصف؛ ضرب من الشغف والتعطش يدفع بالمرء من ظلمة الليل إلى نور الصباح، ومن الكدر و«الأسى» إلى الضياء، إلى المشعّ والعميق والرهيف: ميلٌ من هذا النوع -وهو ميل نبيل- *يشرّف*، بقدر ما *يفصل*. إن عطف القديس شفقةٌ على *قذارة* الشرط الإنساني المفرط في إنسانيّته. غير أن هناك مستويات ودرجات تغدو معها الشفقة نفسها دنساً وقذارة في نظر القديس.

272

علامة النبالة: ألاّ نفكر أبداً في أن نحطّ من قيمة واجباتنا بأن نجعل منها واجبات للجميع؛ ألاّ نرغب في التنازل عن مسؤوليتنا، ولا في اقتسامها؛ أن نعتبر امتيازاتنا وممارستها واحداً من *واجباتنا*.

273

إن رجلا يطمح إلى أشياء عظيمة يرى إلى كل من يعترضه في طريقه إما كوسيلة، أو كعقبة وعنصر معطِّل -أو كسرير لاستراحة مؤقتة. ولا يمكن للطيبة السامية المميزة لطبعه تجاه بني جنسه أن تغدو ممكنة إلا عندما يبلغ قمة أعاليه ويصبح سائداً عليهم. غير أن نفاد الصبر ووعيَه بأنه ظل محكوما عليه حتى ذلك الحين بأن يلعب دوراً مسرحيّا -إذ الحرب نفسُها كوميديا تخفي ما تخفيه، تماماً كما تخفي الوسيلةُ الغاية دوماً- كل ذلك يفسد عليه كل علاقة بالآخرين. هذا النوع من الناس يعرف الوحدة وما تنطوي عليه من أشد السموم.

274

معضلة الذين ينتظرون. -لا بد من مصادفات سعيدة ومن عديد الأشياء غير المتوقعة كي يستطيع إنسان من النوع الأرقى يرقد في داخله حلُّ مشكلة ما أن يهبّ للفعل في الوقت المناسب؛ لإطلاق الحِمم المعتملة في داخله، إن جاز التعبير. وفي العموم لا يحدث ذلك، وفي كل ركن من أركان الأرض يجلس منتظرون لا يعرفون أنهم ينتظرون، وأقل من ذلك أنهم عبثاً ينتظرون. ويحدث أيضا أن نداء الصدفة التي تعطي «الإذن» بالفعل يأتي بعد فوات الأوان؛ أي بعد أن يكون عز الشباب وكل الطاقات قد استُنفدت في الجلوس والانتظار؛ وكم من واحد قد اكتشف بكل فزع لحظة «انتفض» يريد النهوض أن أعضاءه قد تجمّدت وعقله غدا ثقيلاً! «فات الأوان»، كان ذلك ما قاله لنفسه، وقد غدا فاقداً كل إيمان بنفسه، ومنذئذ غير صالح

لشيء إلى الأبد. أيكون «رفائيل بلا يديْن»(*)، في المعنى الأوسع للعبارة، القاعدة وليس الاستثناء في مجال العبقرية؟ -ولعل العبقيرية في حد ذاتها ليست شيئا نادراً على الإطلاق، بل الخمسمائة يد الضرورية لها كي تُخضع الـ«كايروس» (كرونوس)، أي «اللحظة المناسبة»، وتمسك بناصية الصدفة!

275

من لا يريد أن يرى سموّ شخص ما، ينظر بعين ثاقبة بحثاً عمّا هو خسيس وسطحيّ فيه، -ويفضح نفسه من خلال ذلك.

276

النفس الفجة والوضيعة أكثر تلاؤماً مع الإصابة بالجراح والخسائر من النفس النبيلة: إن المخاطر المحدقة بهذه الأخيرة أكبر بكل تأكيد، واحتمالات إصابتها وهلاكها هائلة بالنظر إلى تنوّع شروط حياتها. إنّ السحليّة التي تصاب بجرح سرعان ما ينمو لها الإصبع الذي قطع لها؛ وهذا لا يتمّ للإنسان.

277

أمر سيء للغاية! إنها القصة القديمة نفسها! عندما يكون المرء قد انتهى من بناء بيته يلاحظ أنه تعلم في الأثناء، ودون علم منه، أشياء

(*) المقصود من هذه العبارة المجازية هو العقل دون عمل، أو العبقرية دون ممارسة. ربما يشير نيتشه هنا إلى مقولة الشاعر الألماني ليسينغ بأن رافائيل لكونه عبقريًا، كان سيصبح رساما بكل تأكيد ، حتى لو أنه ولد بلا يديْن. (م)

كان من المفترض أن يكون عارفاً بها قبل الشروع في البناء. إنه ذاك الـ «فوات الأوان» المؤلم الأبدي! -الكآبة التي ترافق كلّ منجَز!...

278

أيها الجوّال، من أنت؟ أراك تمضي على طريقك بنظرات مبهمة، دون احتقار، دون حبّ؛ مبللا وحزيناً مثل مسبارٍ عائد من الأعماق إلى النور دون أن يكون قد ارتوى؛ عمّ كان يبحث في الغور يا ترى؟ -بصدر لا تندى عنه زفرة، وبشفتين تخفيان اشمئزازهما، وبيد لم تعد تمسك بالأشياء إلا ببطء: من أنت؟ وماذا كنت تفعل؟ لتسترحْ قليلا هنا؛ ههنا موضع ضيافة لكل أحد؛ استرحْ! وأيًّا كنتَ؛ أيُّ شيء يعجبك الآن؟ أيّ شيء يمكنه أن يريحك؟ قل لي فقط ما هو: فكل ما لديّ أضعه بين يديك.

-«من أجل الاستراحة؟ من أجل الاستراحة؟ ما هذا الذي تقوله، أيها الفضولي؟ لكن، ناولْني، أرجوك ...-- -»

--ماذا؟ ماذا؟ تكلم!

-«قناعاً آخر! قناعاً ثانٍ!»...

279

أولئك الذين بهم حزن عميق يُفتضح أمرهم عندما يكونون في حال من السعادة: لهم طريقة في الإمساك بالسعادة كما لو أنهم يريدون سحقها وخنقها غيرةً، -لسوء حظهم، فهم يدركون جيّداً أنها تفرّ منهم!

280

«ياللشقاء! ياللشقاء! ما هذا؟ ألا يكون بصدد العودة -إلى الوراء؟» -أجلْ! لكنكم لا تفهمونه إذْ تشتكون من ذلك. إنه يتراجع، مثل كل من يهمّ بقفزة كبرى. -

281

«هل سيكون هناك من يصدّقني؟ لكنني أطالب بأن أُصدَّق: كنت على الدوام سيء التفكير في نفسي، سيء التفكير بنفسي، عدا في حالات نادرة، مرغما دوماً ودون متعة «في الأمر»، على استعداد دائم للهروب «من نفسي»، ودوماً دون إيمان بالنتيجة، بسبب ارتياب عنيد في *إمكانية* معرفة الذات قد قادني بعيداً، حدّ أنني أصبحت أرى تناقضاً في الصفة في مفهوم «المعرفة بلا توسّط» الذي يسمح به المنظرون لأنفسهم. وواقع الحال هذا هو تقريباً الأمر الأكثر وثوقا مما أعرفه عن نفسي. لابد أن هناك نفوراً ما في داخلي من *الاعتقاد* في شيء محدّد عن نفسي. أيكون في الأمر لغز ما؟ إنه أمر محتمل؛ لكنه لحسن الحظ ليس من مجال اختصاصي. ربما ينبئ عن النوع الذي أنتمي إليه؟ لكنه لا ينبئني أنا بذلك: وهذا أمر يرضيني على أية حال».

282

«ما الذي حدث لك، أيها الرجل؟» -«لا أدري»، قال متردداً، «ربما حامت الهارْبيّات فوق مائدتي.»(*) يحدث اليوم بين الحين

(*) الهارْبيات (Harpien; Harpies; Harpuiai): كائنات خرافية من الأسطورة اليونانية. بنات ثاوماس وإلكترا حورية البحر، وهي كائنات مخيفة لها أجنحة ومخالب طيور ورؤوس فتيات. ترسلها الآلهة للانتقام ممن تريد

والآخر أن شخصاً ليّنا معتدل الطباع ومتحفظا تثور ثائرته فجأة فيقلب الطاولة، يحطّم الصحون، يصرخ، يعربد ويشتم الجميع- ثم ينسحب بعدها خجولا، حانقاً على نفسه -إلى أين؟ ولأي غرض؟ كي يموت جوعا في عزلته؟ كي يموت اختناقا بذكرى فعلته؟ -من كان حاملا لرغبات نفس عالية الهمة ومتطلبة ونادراً ما يجد مائدته معدّة وطعامه جاهزاً، سيكون عرضة لخطر كبير محدق به على الدوام؛ لكنّ هذا الخطر قد تجاوز اليوم حدود المعهود. ملقىً به، كما هو الآن، في عصر صاخب بهرج غوغاء لا يحلو له البتة أن يشاركها الطعام حول نفس الآنية، يجد نفسه مهدداً بالهلاك جوعاً وعطشاً، أو قرفاً إذا ما أرغم نفسه بالأخير على مد يده إلى ذلك الطعام. -من المؤكد أننا عرفنا كلّنا الجلوس ذات يوم إلى موائد ليست لنا، ولا نحن من أهلها؛ والأكثر رهافة عقليّة من بيننا على وجه الخصوص، أولئك الذين تصعب تغذيتهم أكثر من الجميع، أولئك هم الذين يصابون بعسر الهضم الخطير الذي ينشأ عن خيبة الأمل الفجئية الناجمة عن إدراكنا لنوعية الطعام والجليسين؛ *غثيان مابعد الأكل*.

283

إنه ضرب من ضبط النفس مرهفٌ وراقٍ في الآن نفسه ألاّ يطري المرء -إذا ما افترضنا أنه يريد الإطراء أصلاً- إلا حيث يكون غير موافق،- إذ هو في غير هذه الحالة سيمتدح نفسه، وهذا أمر منافٍ للذوق السليم. لا شك أن هذا ضرب من ضبط النفس يفتح الباب

عقابهم (أنظر معجم الفولكلور. تأليف د. عبد الحميد يونس
.www.kotobarabia.com

لإمكانيات هائلة *لسوء فهم* مستمر، ولكي يسمح المرء لنفسه بمثل هذا الترف الذوقي الحقيقي والأخلاقي، عليه ألا يعيش بين ذوي العقول البليدة، بل بين أناس تجعلهم رهافة عقولهم يستطرفون سوء التفاهم والهفوات ويستعذبونها؛ وإلا فإنه سيكون عليه أن يدفع ثمن ذلك غالياً! -«يمتدحني، *إذاً* فهو يعترف بأنني على حقّ!» -هذا النوع من الاستنتاج الغبيّ يعكّر علينا نصف حياتنا، نحن المتوحّدين، لأنه يضع الحمير بجوارنا ويمنحهم صداقتنا.

284

على المرء أن يحيا بقدر هائل من عزّة النفس والسكينة؛ -ما وراء الأشياء دوماً. أن يكون له أو لا يكون له، وعن اختيار، انفعالاته ورأيه الموافق أو الرافض؛ أن يجلس فوقها لساعات، يمتطيها كحصان، وغالباً كحمار؛ إذ ينبغي أن نعرف كيف نستعمل غباء الانفعالات لصالحنا تماما مثل جذوتها. لابد أن يظل الواحد محتفظاً بالألف واجهة وسطح لشخصيته وبالنظارات السوداء أيضاً. إذ هناك حالات لا يحق فيها لأحد أن ينظر في عينينا، ناهيك عن النظر في «أعماقنا». اختيار اللطافة رفيقاً لنا؛ تلك الرذيلة الماكرة والمرحة مثل صبيّ شرّير! -وليظل المرء سيداً على فضائله الأربع: الشجاعة، والتبصّر، والتعاطف، والوحدة. ذلك أن الوحدة فضيلة عندنا، كنزوع سام إلى النقاوة يجعلنا نحدس كيف أنّ احتكاك الإنسان بالإنسان -داخل المجتمع- يؤدي حتماً إلى التدنّس. فكل جماعة تجعل المرء بطريقة ما، في موضع ما، وفي لحظة ما-«عاميًّا».

285

الأحداث العظمى والأفكار الكبرى- لكنّ الأفكار الكبرى هي الأحداث العظمى- لا يتم فهمها إلا فيما بعد؛ فالأجيال المعاصرة لها لا تعيش تلك الأحداث، بل تحيا بجوارها كما لو كانت تمرّ بجانبها. يحدث هنا شيء شبيه بما يحدث في عالم الكواكب. فضوء الكواكب الأكثر بعداً عنا هو آخر ما يصلنا. وقبل وصوله يظل الإنسان ينكر أن تكون *هناك* -كواكب. «كم من القرون يحتاج عقل ما لكي يصبح مفهوماً؟» -إن هذا أيضاً مقياس يمكّن الإنسان من وضع تراتب وتصنيفات من تلك التي يُحتاج إليها -بالنسبة للعقل كما للكواكب.

286

«هنا الرؤية واضحة، والعقل قد بلغ السموّ». -لكن هناك نوعاً من الناس، يكون هو أيضا في الأعالي والرؤية أمامه واضحة، لكنه ينظر *إلى أسفل*.

287

ما النبيل؟ وماذا تعني لنا اليوم كلمة نبيل؟ بم يكشف النبيل عن نفسه؟ وتحت هذه السماء المدلهمّة لبدايات سيادة النمط العاميّ، التي تجعل كل شيء ثخيناً مبهماً وثقيلا، كيف يمكننا اليوم أن نميّز الإنسان النبيل؟ ليست الأفعال هي التي ستنبئ عن ذلك؛ فالأفعال ملتبَسة دوماً وعصيّة على الاستقصاء دوماً؛ ولا «الأعمال» تنبئ عن ذلك هي الأخرى. فنحن نجد اليوم بين الفنانين والعلماء عددا كافيا من أولئك الذين تفشي أعمالهم كيف أن رغبة عميقة تدفع بهم إلى النبالة؛ غير أن هذه الحاجة *الدافعة إلى* النبالة بالذات تختلف من حيث الأساس عن

الحاجات الحقيقية للنفس النبيلة، وهي بالضبط العلامة الصريحة والخطيرة عن افتقارها إلى النبالة. فليست الأعمال هي المحدِّدة، بل *الإيمان* هو الذي يقرر هنا ويضبط سلّم التراتب، إن صح لنا أن نتناول مقولة دينية قديمة ونعيد استعمالها بمفهوم جديد وأعمق: إنه ضرب من يقين عميق تحمله النفس النبيلة عن ذاتها، شيء لايمكن أن نبحث عنه، ولا أن نجده، وربما لا يمكن أن نضيعه أيضا. -***إنّ النفس النبيلة تكنّ احتراماً لنفسها***.

288

من الناس من يكون العقل لديهم قدَراً لا مناص منه، ومهما حاولوا من مداورة وتستر عليه، ومن وضع أكفهم على أعينهم كي لا تفضحهم (كما لو أن اليد ليست فضّاحة هي أيضاً!)، ففي النهاية يظهر عليهم ما ينبئ بأن لديهم شيئا يخفونه، أي عقلاً. وواحدة من الوسائل الأكثر رهافة، التي تمكّن من مواصلة الخداع، لأطول مدة ممكنة من الزمن على الأقل، ومن النجاح في الظهور بمظهر أكثر غباء مما يكون عليه المرء في الحقيقة -وهو ما يكون أمراً محبّذا غالباً في الحياة العمومية على غرار مظلة واقية من المطر-، هذه الوسيلة تسمى الحماس، مع إضافة ما يرافقها، كالفضيلة على سبيل المثال. إذ، وكما يقول غالياني الذي يبدو عارفاً بما يقول: الفضيلة حماسٌ.[٤٢]

289

في كتابات المتوحّد هناك دوما شيء مثل صدى الصحراء يلتقطه سمعنا، مثل همس الوحدة والتفاتاتها المذعورة من حولها؛ ومن داخل كلماته القوية، ومن صراخه أيضا نستشفّ وقع نوع من صمت جديد

مريب، نوع من التكتّم. إنّ من ظل لسنوات عديدة، بإيامها ولياليها، يجلس إلى نفسه في حوار حميمي ومجادلات عنيفة معها، ذاك الذي تحوّل داخل كهفه -متاهةً كان، أم منجمَ ذهب- إلى دبّ مغاور أو حارس كنز، وتنّين، ستكتسب أفكاره نفسها بالنهاية لوناً غسقيًّا خاصا بها، ورائحةَ أعماق سحيقة وعفنَ مستنقعات في الآن نفسه، شيئا غير متيسر على التواصل ومنفّراً يلفح بأنفاسه الباردة وجه من يمرّ بالقرب منه. والمتوحد لا يؤمن بأن فيلسوفاً -إذا ما افترضنا أن الفيلسوف يكون دوماً إنسانا متوحّدا في المقام الأول- قد عبّر في الكتب في يوم ما عن آرائه الحقيقية والنهائية: ألا يؤلّف الناس في الحقيقة كتباً من أجل إخفاء ما تتكتّم عليه دواخلهم؟ -بل سيشك في ما إذا كان ***بإمكان*** الفيلسوف أصلاً أن تكون له آراء «خاصة ونهائية»، وإن لم يكن له حتماً وراء كل مغارةٍ مغارة أخرى أعمق: عالم أكثر اتساعاً، أكثر غرابة وأكثر ثراء فوق كل سطح، وغور أعمق تحت كل قاع، تحت كل «أساس فكري». كل فلسفة هي فلسفة واجهة، -هذا هو حكم المتوحّد: «هناك شيء اعتباطيّ في أن يكون قد توقف عند هذا الموضع، ونظر إلى الخلف، ونظر من حوله، في كونه ألقى بالمعول ولم يواصل الحفر هنا. هناك شيء مريب في هذا أيضا». كل فلسفة *تخفي* أيضاً فلسفة، وكل رأي مخْبأ أيضاً، وكل كلمة قناع.

290

كل مفكر عميق يخشى أن يُفهم أكثر من أن يُساء فهمه. فالحالة الثانية تجرح كبرياءه، أما الأولى فيتألم لها قلبه وتثير شفقته التي تقول دوماً: «آه، لِم تريدون *أنتم أيضاً* أن ترهقوا أنفسكم بهذا الذي يرهق كاهلي؟»

291

الإنسان، هذا الحيوان متعدد الوجوه، الكاذب، المصطنع، الغامض، المخيف بمكره وذكائه أكثر من قوّته بالنسبة لبقية الحيوانات، هو الذي ابتكر راحة الضمير كي يستطيع أن ينعم بالنفس الحيوانية التي فيه كشيء بسيط. وليست الأخلاق في مجملها سوى عملية تزوير طويلة وجريئة، بفضلها يغدو بإمكانه أن يجد متعة في مشاهدة تلك النفس. من هذا المنظور تغدو هناك أشياء عديدة تنضوي تحت مفهوم «الفنّ»، أكثر مما اعتدنا أن نعتقد.

292

الفيلسوف إنسان يعيش، ويرى، ويسمع، ويشك، ويأمل، ويحلم بصفة مستمرة بأشياء خارقة؛ ويكون لأفكاره عليه وقع أشياء تنهال عليه من فوق ومن تحت، كما لو كانت وقائع وصواعق تقع عليه هو حصراً؛ وربما يكون هو نفسه عاصفة تمضي حبلى بصواعق جديدة؛ إنساناً ذا قدَر مرعب محاط على الدوام بدمدمة ودويّ وتصدّعات ووقائع مرعبة. الفيلسوف: ويا للأسف! كائن غالباً ما يفر من نفسه، وغالباً ما يتملكه الخوف من نفسه، -غير أنه على قدر مشط من الفضول يجعله لا يستطيع ألا يظل «يعود إلى نفسه» باستمرار...

293

إن رجلا يقول: «هذا الأمر يعجبني وسأتبنّاه، وأريد أن أحميه وأدافع عنه ضد الجميع»؛ رجل يستطيع أن يتبنّى قضية، وينفّذ قراراً، ويظل وفيّا لفكرة، ويحافظ على امرأة، ويعاقِب متطاولاً ويلقي به أرضاً؛ رجلٌ له حالات غضبه وبيده سيفه، تخضع له الكائنات

الضعيفة والمريضة والمقهورة، بما في ذلك الحيوانات، وتتبعه صاغرة وفقاً لما تقتضيه الطبيعة، أي بعبارة واحدة رجلٌ *سيّدٌ* بالطبع؛ رجل من هذا الطراز، إذا أشفق، فذلك يعني ما يعنيه! وتكون لشفقته *هذه* قيمتها! لكن أيّ نفع من الشفقة بالنسبة لأولئك الذين يتألمون! أو لأولئك الذين يكرزون بالشفقة! توجد اليوم في كل مكان من أوروبا تقريباً حساسية مرَضية وتبرّم مفرط من الألم، وفي الآن نفسه إفراط منفّر في الشكوى، وترقّقٌ يحاول أن يرتدي حلية الدين ويتزيّن برخيص التفاهات الفلسفية ليكتسي مظهراً أسمى: -هناك اليوم عبادة حقيقية لصنم يسمّى معاناة. إن *انعدام الفحولة* في هذا الذي يسمى اليوم في دوائر الحالمين «شفقة» يبدو واضحا للعيان منذ الوهلة الأولى. -وعلينا أن ننبذ بكل قوة وبطريقة جذرية هذا النوع الجديد من الذوق السمج؛ وأتمنى في الختام أن نعلّق في عنقنا وعلى صدرنا تلك التميمة المباركة لـ "gai saber" حماية لأنفسنا: - «العلم المرح»، كي نوضّح الأمر للألمان.

294

الخلاعة الأولمبية. -رغم أنف ذلك الفيلسوف الذي كان يسعى، كأنكليزي حقيقيّ، إلى تثبيت صورة مشينة عن الضحك في أذهان كل المفكرين، هو القائل: «الضحك نقصٌ مشين في الطبيعة الإنسانية يطمح كل عقلٍ مفكّر إلى تجاوزه.» (هوبز)-، رغما عنه سأسمح لنفسي بوضع ترتيب لمنزلة الفلاسفة، كل بحسب المكانة التي يحتلها الضحك لديه- صعوداً حتى موقع أولئك القادرين على القهقهة بالضحك *الذهبي*. وإذا ما افترضنا أن الآلهة تتعاطى الفلسفة هي أيضاً، وهو رأي قادتني إليه استنتاجات عديدة، فإنني لا أشك لحظة في أنها

تفعل ذلك وهي تضحك بطريقة جديدة وفوق بشرية - ضحكٌ على ذقن كل الأشياء الجديّة! إن الآلهة كائنات مولعة بالسخرية: ويبدو أنها في كل أفعالها المقدسة لا تستطيع الاستغناء عن الضحك البتة.

295

عبقريّة القلب كتلك التي يتمتّع بها ذلك المستتر العظيم، إله الغواية وقنّاص الضمائر، الذي يستطيع صوته بلوغ الأعماق القصيّة لكلّ نفس؛ الذي لا ينطق بكلمة ولا يلقي بنظرة لا تكون في ثناياها نيّة مضمرة في الإغراء؛ التحكّم في فنّ الظهور إحدى مكوّنات براعته - لا الظهور كما هو، بل بما يلزم به أتباعه ليجعلهم يزدادون على الدوام التفافًا حوله، ويتبعونه بصفة أكثر فأكثر اقتناعاً وأكثر فأكثر تفانٍ؛ -عبقريّة القلب التي تُخرس كلّ ذي هرج وغرورٍ وتعلّمه الإصغاء، والتي تصقل الأرواح الخشنة وتمنحها التمتّع بمذاق رغبة جديدة: أن تستلقي في صمت مثل مرآة لينعكس عمق السماء على صفحتها؛ -عبقريّة القلب التي تعلّم اليدَ الخرقاء والمتهوّرة كيف تتريّث وتتناول بلطف ولباقة، تلك التي تدرك الكنز الخفيّ والمنسيّ وتستشفّ قطرة الطّيبة والحلاوة الروحانيّة من تحت طبقة الجليد السميكة الكدرة، قضيب المجسّ الذي يدرك كلّ حبّة ذهب ظلّت طويلا مغمورة تحت ركام من التراب والأوحال؛ -عبقريّة القلب التي يذهب كلّ من لامسها وقد غدا أكثر ثراءً؛ لا مبارَكًا ومفاجأً، لا مغمورًا ومسحوقًا بثروة آتية من الخارج، بل غنيًّا بذاته أكثر من ذي قبل، جديدًا أكثر من أيّ وقت مضى، متفتّقًا، ملفوحًا ومخترقًا بريح مذيبة للجليد، وقد يكون أكثر تردّدًا وأكثر رهافة وهشاشة وانكسارًا، لكنّه مفعم بآمال لا تطالها التسمية، ممتلئ بإرادة واندفاعات جديدة،

ممتلئ نفوراً جديداً وارتدادات على الأعقاب... لكن ما عساني أفعل، أيها الأصدقاء؟ عمّن أتكلم الآن إليكم؟ أتراني نسيت نفسي إلى حد أنني نسيت أن أذكر لكم إسمه؟ عدا أن تكونوا قد حزرتم بمفردكم من يكون هذا الروح والإله الغامض الذي ينبغي أن يُمدح بهذه الطريقة. ذلك أنني، وككل من ظل منذ الصبا يطرق شتى الدروب، ويعبر البلاد الغريبة، التقيتُ أنا أيضا على دروب تجوالي عدداً من الأرواح العجيبة والخطيرة، وخاصة ذاك الذي كنت بصدد الكلام عنه قبل حين، وقد التقيت به مراراً: الإله *ديونيزوس* نفسه، ذاك الملتبس وأكبر الغواة على الإطلاق، وهو الذي، وكما تعلمون، وهبْته فيما مضى تقدمة من بواكيري بكثير من الرهبة والإجلال؛ وكنت آخر من قدم له *قرباناً* على ما أعتقد، إذ لم أجد أحداً بمستطاعه أن يفقه مالذي قمت به آنذاك. في الأثناء عرفت الكثير وأكثر عن فلسفة ذاك الإله، ومن فمه شخصيًّا كما ذكرت آنفاً -أنا، آخر تلامذة الإله ديونيزوس والعارف بأسراره؛ والآن ألا يحق لي أن أشرع أخيراً، وبالقدر المسموح لي به، في جعلكم تقاسمونني قسطاً من حلاوة هذه الفلسفة أيها الإخوة؟ لكن بصوت خفيض بطبيعة الحال، إذ يتعلق الأمر هنا بكثير من أشياء سرية، جديدة، غريبة، بديعة ومخيفة. فمجرد أن يكون ديونيزوس فيلسوفاً، وأن تكون الآلهة بالتالي مولعة بالتفلسف هي الأخرى، فإن هذا لوحده يبدو لي شيئا جديدا لا يخلو من شبهات، وقد يثير الارتياب في صفوف الفلاسفة بالتحديد. غير أن هذا الأمر سيلاقي أقل صعوبات لديكم أنتم أيها الأصدقاء، عدا أن يكون مجيؤه بعد فوات الأوان وفي غير الوقت المناسب، ذلك أنكم، وكما قيل لي، لا تحبذون الإيمان بالله وبالآلهة. أو لعله سيكون عليّ أن أطلق العنان للصراحة في سردي أكثر مما دأبت العادات الصارمة

لأذنيكم على تقبّله؟ غير أن الثابت هو أن ذلك الإله كان يمضي في تلك المحادثات أبعد من هذا، بل أبعد بكثير، وكان على الدوام يسبقني بخطوات عديدة. . . ولو كان من الجائز أن يُثنى عليه بألقاب الفضيلة وأسماء الأبّهة بحسب ما جرت عليه العادة بين البشر، لأشدتُ بشجاعة البحّاثة فيه والمكتشف، وبجرأة صراحته وصدقه وحبه للحكمة. لكنّ إلهاً مثله لا تعنيه البتّة مثل هذه المفاخر وعبارات الفخامة والإجلال. «لتحتفظْ بهذا لنفسك ولأشباهك وكل من هو بحاجة لذلك» سيقول لي، «فلا داعي لديّ لتغطية عريي!» -لعل فيلسوفاً وإلها من هذا النوع يفتقر إلى الحياء؛ أما توقعتم ذلك؟ إذ، إليكم ما قال لي ذات مرة: «في بعض الأحيان أجدني أحب البشر- وكان يلمح في ذلك لأريان التي كانت حاضرة- ؛ الإنسان في نظري حيوانٌ لطيف شجاع مبتكِر ليس له من مثيل على الأرض، ولا تعوزه الحيلة للخروج من أية متاهة. أحب له الخيرَ، وغالبا ما أفكر في الطريقة التي يمكن أن تمكّنني من أن أدفع به إلى مزيد من التطور، وأجعله أقوى، أكثر خبثاً وعمقاً مما هو عليه الآن.» - «أقوى، وأكثر خبثاً وعمقا؟» سألته مذعوراً. -«أجل»، قال لي ثانية، «أقوى، وأكثر خبثاً وعمقاً؛ وأكثر جمالا أيضاً»، ثم ابتسم إلهُ الغواية بتلك الابتسامة الألقيونية الخاصة به، كما لو أنه نطق بعبارات ودودة ساحرة. ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا: أن هذا الإله لا يفتقر إلى الحياء فقط، وهناك في كل الأحوال أسباب وجيهة تجعلنا نعتقد أن بعض الآلهة عموما تحتاج في عدة أمور إلى دروس في مدرستنا البشرية. فنحن، بني الإنسان، أكثر إنسانيّة. . .

أواه، ماذا جرى لكِ يا أفكاري التي وضعتها كتابةً ورسماً! قبل قليل فقط رأيتك ما تزالين زاهية الألوان، فتيّة وشرّيرة، كلّك أشواكٌ وبهارات سريّة كانت تجعلني أعطس وأضحك. -والآن؟ أراك وقد خلعتِ عنك ما كان جديدا فيك، وهناك أجزاء منك أخشى أن تكون في طريقها إلى أن تصير حقائق: متّشحة بهالة الخلود تتراءى لي الآن، على قدر محزِن من الاستقامة، ومملّة غاية الملل! وهل كان الأمر على غير ذلك يوماً ما؟ ماذا كنا نكتب ونرسم بفرشاتنا الصينية، نحن معشر المائدرين، مخلّدي الأشياء التي تمنح *نفسها* للكتابة، وأي شيء نستطيع رسمه إذاً؟ لا شيء، للأسف، غير ذلك الذي يمضي حثيثاً نحو الذبول، وما شرع عطره في التفسّخ! أواه، لا شيء دوماً غير عواصف قد تراخت وتيرتُها وشرعت في التراجع، وأحاسيس ذابلة مصفرّة! أواه، لا شيء غير طيور منهكة من الطيران والتحليق دون وجهة محددة، وقد غدت في متناول كل يد؛ في متناول *يدنا*، وباستطاعة كل صيّاد أن يقبض عليها باليد! نمنح خلوداً لكل ما لم يعد قادرا على الحياة طويلا وعلى الطيران، للأشياء التي بلغت طوراً متقدما من النضج، ومن الإعياء! لخريفكِ فقط، يا أفكاري المكتوبة والمرسومة مازلت أحتفظ بألوانٍ، ألوانٍ كثيرة ربما، وبكثير من الأحاسيس الرقيقة الملوّنة، ومئات من تلاوين الأصفر والأخضر والبنيّ والأحمر؛ -لكن لا أحد سيستطيع أن يحزر ما كنتِ عليه في صباح ربيعكِ، أيتها الشرارات الفجئية، وبدائع وحدتي، أنت يا أفكاري الحبيبة القديمة، -أفكاري *الشرّيرة*!

* * *

من فوق الجبال الشواهق
نشيد الختام

يا ظهيرة العمر! أيها الزمن المَهيب!
حديقة الصّيف!
أيتها السعادة القلقة في الترقّب والترصّد والانتظار:
جاهزاً، طوال الليل والنهار أنتظر الأصدقاء!
أين أنتم، أيْ أصدقائي؟ تعالوا، فقد حان الوقتُ! أجلْ، حان الوقت!

أليس من أجلكم، تزدانُ قممُ الجليد الرماديّة
بأكاليلِ الورد اليوم؟
بحثاً عنكم، يشقّ الجدول طريقه،
وهذي السحب والرياح
تتدافع اليوم وتتلاطم تحت القبة الزرقاء اشتياقاً،
ومن تلك الأعالي تترقّب لهفى مجيئكم أنتم.

في أعلى الأعالي أُعدّتْ لكم موائدي:
من كان مسكنُه ملاصقاً للنجوم،

قريباً قُربَ الجارِ من أقاصي الهُوى المرعبةِ؟
مملكتي، -وأيّةُ مملكةٍ مدّت أطرافها أبعد من مملكتي؟
وعسلي، -من ذا الذي ذاق حلاوتَه؟ . . .

ها أنتم إذاً، أيها الأصدقاء! -لكنْ واحسرتاه، فما أنا
ذاك الذي جئتم تطلبونه؟
أراكم تترددون، مشدوهين -أواه، وكأن رغبةً في الانفجار غضباً
تضطرب في أعماقكم!
أتُراني ما عدت أنا؟ متبدّلاً، تغّير الوجهُ منّي واليدُ، والخطوُ؟
وأنا *كما* أنا، ألستُ ذاك الذي تريدونه، أي أصدقائي؟

أحداً آخر صرتُ؟ غريباً عن نفسي؟
منسلخاً عن ذاتي؟
مصارعاً غالباً ما أخضعَ نفسَه قهراً؟
غالباً ما وقف في وجه قوّته متحدّياً؟
مجروحاً بانتصاره ومكبَّلاً؟

عن أماكن الرياح العاتية كنتُ أبحث دوماً؟
تعلّمتُ أن أقيم في مفاوز الدبّ القطبيّ
حيث ما من أحد هناك يسكن،
ونسيت الربَّ والإنسانَ، والتجديفَ والصلاةَ؟
شبحاً صرت، هائماً فوق القمم الجليدية.

أي أصدقائي القدامى! انظروا! ممتقعين تنظرون الآن،
مفعمين محبةً وذعرا معاً!
كلاّ، ارحلوا! ودون ضغينة! فليس هنا مسكنٌ ولا مستقرٌّ لكم:
هنا في أصقاع الجليد النائية والأجراف العميقة-
هنا، حيث يكون المرء صياداً وظبي جبالٍ في آنٍ معاً.

صيّاداً شنيعاً صرتُ! أنظروا،
كمْ شديدة التوتّر هي قوسي؟
أقوى الرجال هو الذي شدّها هكذا؛
الويلَ، الويلَ! خطيرٌ هو السهم،
كما لا يمكن *لسهم* أن يكون،
- انصروفو، ابتعدوا! لأجل سلامتكم! . . .

أمُنصرفونَ أنتم؟ -أواه أيّها القلب، كم من عذابات عرفتَ!
والأمل ثابتٌ فيك متيناً لا يتزحزح:
لأصدقاء جدد دعْ أبوابك مفتوحةً دوماً!
دعْ عنك القدامى! دعِ الذكرى!
شابًّا كنتَ في ما مضى، واليوم -أفضل شباباً أراكَ!

ما كان يوحّدنا؛ رباطُ الأمل ذاك،
من تُرى سيقرأ العلامات،
التي خطّها الحبّ يوماً، وقد غدت باهتةً؟
أشبه بالبرشُمان العتيق في نظري؛ مصفرّة، شبه محترِقةٍ
تخاف اليدُ أن تلمسه.

وهؤلاء، ما عادوا أولئك الأصدقاء، -كيف أسميهم؟-
لا شيء سوى أطياف أصدقاء!
أسمع في الليل قرعاً على القلب والنافذة،
أحدٌ مّا يراني ويخاطبني: «بلى... ألم نكن أولئك الأصدقاء؟»
- يا للكلمة الذابلة، ويا لعطر الورد الذي كان لها في ما مضى!

ويا لحنين الشباب الذي أساء الفهم!
الذين اشتقت إليهم،
والذين ظننتهم تغيّروا، -مثلي؛
أقرباءَ لي أضحوا بالتحوّلِ، إنما *شاخوا*، فنبذناهم:
وحدَه الذي يتحوّل يظلّ قريبي.

يا ظهيرة العمر! يا زمن الشباب الثاني!
حديقة الصيف!
أيتها السعادة القلقة في الترقّب والترصّد والانتظار
جاهزاً، طوال الليل والنهار أنتظر الأصدقاء،
أصدقائي *الجدد*! تعالوا! فقد حان الوقت! حان الوقت!

* * *

هي ذي الأنشودةُ انتهتِ الآن؛ وصرخةُ الحنينِ العذبة
انطفأتْ على شفتيّ:
ساحرٌ فعل ذلك، صديقُ الساعة المناسبة،
صديقُ ساعة الظهيرة، -كلاّ، لا تسألوا من عساه يكون-
ساعةَ الظهيرة كان ذلك، وإذا الواحد غدا إثنيْن...

لنحتفل الآن، واثقينّ من النصر المشترك،
هو ذا عيد الأعياد:
ضيفُ الضيوفِ، الصديقُ زرادشت جاء!
ضاحكاً غدا العالم الآن، وستارة الأسى قد تمزّقت،
إنه العرس قد حلّ -للنور والظلمات معاً. . .

هوامش وتعليقات

(١) نجد صياغتين أوليتين لهذا المقطع في دفاتر المسودات:

- صياغة أولى في دفتر المسودّات المعلّم عليه في مكتبة الأرشيف تحت شفرة (*W 1 7*): «إن طلب الحقيقة، الذي قادني عبر دروب لم تكن خالية من المخاطر كان يضع على لساني بين الحين والآخر ذلك السؤال المريب نفسه والأكثر مكرا من بين كل الأسئلة: وقد توقفت أطول ما توقفت عند مسألة الأسباب الخفية لهذا الطلب؛ إلا أنني بلغت بالنهاية النقطة التي لم أتقدم بعدها ، أي عند السؤال عن قيمة هذا الطلب».

-صياغة ثانية في دفتر (*W 1 5*) تحت عنوان* *Alea jacta est* «إرادة الحقيقة، التي ستقودني إلى مجازفات عديدة، -والتي وضعتني أمام أسئلة غريبة (وأية أسئلة سيئة ومريبة! فأي غرابة إذاً أن أغدو مرتابا بدوري وأن أتعلم أمام أبي الهول هذا طرح الأسئلة؟ من يا ترى هذا الذي يسألني في الحقيقة؟)! وأية أسئلة غريبة سيئة ومريبة! إنها قصة طويلة: أي غرابة إذاً، أن أغدو خلالها مرتابا بدوري، وأن أفقد الصبر وأغدو متقلبا في القلق! أن أتعلم أمام أبي الهول هذا أن أطرح بدوري أسئلة؟ من تُرى في الحقيقة هذا الذي يطرح أسئلة من خلالي؟ هذا الذي «يريد» من خلالي أن «يدرك الحقيقة»؟

* *Alea jacta est* لاتينية، وتعود إلى قيصر روما، قالها عند عبور نهر روبيكون، وتعني : «لقد قُضي الأمر».

(٢) أنظر «إنساني مفرط في إنسانيته»-الكتاب الأول: الفصل الأول، الفقرة ١ : «كيف يمكن لشيء أن ينشأ عن نقيضه، كأن ينشأ المعقول عن اللامعقول مثلا، والحسّاس عن الجامد، والمنطق عن اللامنطق، والرؤية اللانفعية عن إرادة التملك، والغيرية عن الأنانية والحقيقة عن الخطأ؟ لقد نجحت الفلسفة الميتافيزيقة إلى حد الآن في تفادي هذه المعضلة بأن نفت نشأة الواحد من

الآخر، وافترضت وجود أصل خارق للأشياء التي منحتها قيمة سامية، أصل جعلته نابعا من صميم وجوهر «الشيء في ذاته». وبالمقابل فإن الفلسفة التاريخانية التي لم يعد بالإمكان تصورها بمعزل عن العلوم الطبيعية، هذه الفلسفة التي تمثل أحدث ما توصّل إليه من المناهج الفلسفية قد أقرّت في حالات منفردة (ومن المحتمل أنها ستكون النتيجة التي ستتوصل إليها بشأن الكل) بأنه ليس هناك من نقائض إلا في المبالغة المعتادة للرؤية الشعبية أو الميتافيزيقية، وأن هناك خطأ عقليا كان الأساس الذي انبنت عليه علاقة التعارض هذه: ليس هناك حسب تفسيرها لا سلوكات أنانية ولا رؤية كاملة الغيرانية، والأمران ليسا سوى محض تصعيدات يتراءى العنصر الأساسي المكون لها بخاريا غائما ولا يتجلى حضوره إلا للمعاينة الدقيقة المرهفة. - إن كل ما نحتاجه وما لا يمكننا الحصول عليه إلا عن طريق أرقى ما توصلت إليه العلوم الحالية كل على حده هو كيمياء للتصورات والانطباعات الأخلاقية والدينية والجمالية، وكذلك لكل تلك الانفعالات التي نعيشها في كل علاقاتنا الصغرى والكبرى بالثقافة والمجتمع، بل وفي الوحدة: ماذا لو أن هذه الكيمياء تنتهي إلى الاستنتاج بأنه، وفي هذا المجال، يمكن استحضار الألوان البديعة من المواد البخسة والمحتقرة حتى؟ هل سيكون هناك الكثيرون ممن سيرغبون في متابعة مثل هذه البحوث؟ إن الإنسانية تحب أن تطرح من ذهنها الأسئلة المتعلقة بالأصل والبداية : ألاينبغي على الإنسان أن يكون مجردا من إنسانيته إذًا كي يشعر في داخله بالنزوع المعاكس؟-»

(٣) في دفتر المسودات (W 1 7) تتواصل الجملة: «وبعبارة أكثر صرامة: إن الأشياء والأوضاع من ذات المرتبة الأسمى لا يمكن أن تكون ناشئة؛ فالصيرورة شيء لا يليق بها، إنها قائمة بنفسها (ما هو كائن)، والله الكائن في وحدته- إنها الله.»

(٤) نجد عددا من الصياغات المتنوعة لهذه الجملة في دفاتر المسودات، وأحيانا مجرد تنويعات طفيفة، نورد منها : أ-«لكن من لديه الشجاعة على أن ينظر إلى هذه «الحقائق» مجردة من كل الحجب؟ ولربما يكون هناك ضرب من التعفّف أمام مثل هذه المسائل والإمكانيات أيضا...» ب- «لكن من (لديه رغبة) -من تراه يريد أن يولي اهتماما بمثل هذه الـ «ربما» الخطيرة؟ إذ سيكون أمرا منافيا للذوق، ومنافيا للفضيلة على وجه الخصوص، إذا ما شرعت الحقيقة في الظهور بمثل هذا المظهر المشين، وإذا ما خلعت عنها كل الأحجبة وضربت بكل حياء مستحبّ عرض الحائط...» ج- «... ستقولون لي إن هذا مناف للذوق السليم، ومناف (للفضيلةنفسها أيضا)...»

(٥) نهاية أخرى لهذه الجملة الأخيرة في النسخة الأولى المعدة للنشر *Vs*: «... أحكام سطحية، تنجح إرادة القوة بواسطتها في فرض نوع بعينه من الكائنات (هذه الكائنات تريد أن ترى كل شيء عن قرب، على نحو محدَّد، متوقّع، أي وفقا للمنظور المنطقي-)».

(٦) نجد صياغة أولية لهذا المقطع الأخير في دفاتر المسودات، *N VII 1*, 149-150 «ما الذي يجعل الأحكام التأليفية القبليّة ممكنة؟» -بفضل ملَكة، يعني ذلك: إنها ممكنة، وهي موجودة، ونحن قادرون على ذلك. غير أن السؤال كان يتعلّق بـ«كيف؟» (بكيفيّة ذلك). أي أن كنط قد عاين واقع حال «أنّ»، لكن ذلك لا يقدّم أي تفسير. وبالنهاية تكون تلك «الملكة» قوة افتراضية، تقديرا من نوع الـ vis soporifica (القدرة التنويميّة) للأفيون. ورأيي هو: أن كل أفكار «السببية»، واللامشروط، والروح، والكائن، والمادة، والعقل--- وكل المفاهيم قد نشأت عن طريقة منطقية غير سليمة، أي، وكما يفيدنا علم الاشتقاق (الإيتيمولوجيا)، أنه يتم اتخاذ خاصيّة بعينها واعتمادها علامة لتحديد أشياء متشابهة. لكن شيئا فشيئا، ومع تطوّر دقة الحواس وتحفّز الانتباه، قد غدا التشابه أمرا أقل فأقل ثبوتا؛ ومن أجل تحديد الهوية الداخلية لشيء ما أصبح العقل يمر بمعاينة سلسلة من علامات المعرفة وعلامات التعرّف؛ وبذلك تم له أن يدرك الشيء، و أن يفهمه (يمسك بمعناه): هناك لمس وإمساك بالشيء في هذه العملية.»*

* تمنح اللغة الألمانية من خلال كلمتي: (fassen: أدرك، وفهِم، وتعني أيضا لمس، و begreifen التي تعني هي أيضا الفهم والإدراك، والقبض على الشيء أيضا) إمكانية لهذا التأويل أو الاستنتاج الأخير الذي ينتهي إليه نيتشه في آخر هذا المقطع: المعرفة كعملية لمس وإمساك بالشيء وقبض عليه.

(٧) نقرأ في هذا الموقع من المخطوط الموجه للطباعة *Dm* جملة حذفها نيتشه فيما بعد: «...على قاعدة بناء اجتماعي مكون من غرائز وانفعالات؛ ولتغفروا لي هذا التجديد في الاصطلاح الفلسفي، إذا ما اعتبرت أن «الإرادة» نفسها تعد في نظري ظاهرة أخلاقية.»

(٨) صياغة أولى في النسخة المطبعية قبل التصحيح Dm: «لقد ترسخت مملكة الأحكام المسبقة الأخلاقية عميقا داخل الإنسان وعلى نحو أقوى مما تصوّر كل الخبراء النفسانيون حتى الآن؛ دون أ، نتكلم عن السذّج من أمثال هوبز...»

(٩) صياغة أولى من دفاتر المسودات (Vs- N II 7 2, 79): «أنا لا أُفهَم إلا بصعوبة؛ وسأكون أحمق إن لم أترك لأصدقائي فسحة تمكنهم من أن يسيئوا

فهمي، ولكي يكونوا شكورين لي أيضا لنيّتي الطيبة التي تمنحهم شيئا من الحريّة في التأويل.»

(١٠) جملة إضافية في المسودة: «لكن ليس لأيّ كان حقّ في «الهواء النقيّ»».

(١١) «في سنيي الشباب نكبر ونحتقر كالحمقى، ونقحم أرقى أحاسيسنا وأكثرها رقة من أجل تأويل أناس وأشياء لا علاقة لها بنا، بقدر ما لا علاقة لنا نحن أيضا بها. إن الشباب في حد ذاته شيء مزوِّر ومخادع. ويبدو أن طبع الحدة والإجلال الذي يميز الشباب لا يهدأ حتى يكون قد «زوّر الأشياء والبشر بما يناسبه»، وحتى يغدو بإمكانه أن يفرغ أحاسيسه داخلها. وبعدها، عندما يصبح المرء أقوى وأعمق، و«أكثر صدقا» أيضا، يصيبه الفزع وهو يكتشف إلى أي حد كان مغمض العينين وهو يقدم ضحاياه على ذلك المذبح فيما مضى. ويشتد بالواحد منا الاستياء والحنق لكونه لم ير كل ذلك الغرور وذلك الشطط والتصنّع والتزويق والتمثيل المسرحي الذي كانت عليه أصنام معبوداتنا؛ يغضب المرء بسبب ذلك الإعماء الذي كان يمارسه على نفسه، كما لو كان عمى عن قصد غير شريف. وضمن هذا التحول ينتقم المرء من نفسه من خلال الارتياب: يغدو المرء حذرا متوجسا تجاه «أحاسيسه الحماسية» -بل إن «راحة الضمير» نفسها ستبدو له بمثابة خطر، مثل تحجّب وتراخ في النزاهة الحميمية. ثم تمر عشر سنوات إضافية ليدرك المرء أن هذلك كله أيضا -شباباً كان».

(١٢) بداية من هذا الموضع، وحتى نهاية الفقرة نجد في المسودة (Vs) صياغة أخرى تخلى عنها نيتشه فيما بعد: « أكيد أننا لن نسمح بسهولة لاي كان بأن يستعمل هذا المعيار الجديد ليقيس قيمة أو لاقيمة شيء ما ؛ وقد آن الأوان أكثر من أي وقت مضى لكي نعد الاتهام بالهرطقة الأخلاقية وكذلك الإجلال من علامات الذوق السمج وأساليب السلوك السوقيّة.»

(١٣) في المسودة Vs نقرأ هذه الجملة الأخيرة التي تخلى عنها نيتشه في المخطوطة النهائية: «وإذا ما كنّا جزءً من هذا العالم، وإذا ما كان هذا العالم مخادعاً، ألا يحق لنا بالتالي أن نتوخى نحن أيضا شيئا من الخداع؟ بل (ربما) أن يكون علينا أن نتوخى الخداع.»

(١٤) صياغة أولى لهذه الجملة الأخيرة في المسودة (Vs): «*لا يبحث عن الحقيقة إلا لفعل الخير*»-*فولتير- ولم يجدها بالنهاية!*

(١٥) بداية من هذا الموضع جاءت الصياغة الأولى لبقية ما سيأتي من هذه الفقرة كالآتي في المخطوطة المعدة للنشر *Rs* «وليس دون شيء من الدهشة والذعر سيتفطن هذا الرجل إلى القناع الذي ظل طوال الوقت يحل محله في قلوب

وأذهان أصدقائه. لكن كم من مرارات خفية سيظل عليه أن يتجرعها بعد ذلك حتى يتعلم بالنهاية فنّ وحسن إرادة الحرص بداية من الآن على أن لا «يخيّب ظن» أصدقائه؛ أي يظل لا يترجم عن همومه وسعادته إلا في صورة سطحية ومن خلال «القناع»، كي يستطيع أن يبلغهم شيئا عن نفسه.» تلي هذا جملة أخيرة مشطوبة في النسخة المقدمة للطباعة : «لا شك أنه شيء مفزع أن يكتشف المرء لأول مرة القناع الذي يظهر من خلاله . . .»

(١٦) صياغة أولى لهذه الفقرة في مسودة (W I 6) Vs : «لسنا دوغمائيين، إذ إنه مما يناقض كبرياءنا أن يكون على حقيقتنا أن تصبح حقيقة للجميع؛ وتلك هي الفكرة الخفية التي تكمن وراء كل مطامح الدوغمائيين. نحن نحب أن ننظر إلى العالم بأعين متعددة، بما في ذلك عين أبي الهول، طارح الألغاز الفظيع؛ فالشيء الذي يمنحنا ونحن ننظر إليه من زاوية جانبية منظرا آخر لم نكن لنتوقعه البتة ونحن ننظر إليه من أمام وبصفة مباشرة، هذا الأمر يعد من الأحاسيس اللاذعة الجميلة التي تجعلنا نشعر بأنه جدير بالعناء أن يكون المرء فيلسوفا. وعلاوة على ذلك يبدو أن الجدية المفخّمة والإلحاح الأرعن الذي ظل جميع الدوغمائيون حتى الآن يرادون به الحقيقة على نفسها لم تكن ألطف وأنجع الوسائل لاستمالة تلك الفاتنة: والثابت لدينا على أية حال أنها لم تسلم نفسها إليهم-وها أن الدوغمائيين بشتى أصنافهم يقفون اليوم في هيأة المكدّرين المحبطين. إذا ما افترضنا أنهم ما زالوا يقفون في مكان ما بطبيعة الحال».

(١٧) جملة مشطوبة في هذا الموقع من نسخة الجاهزة للنشر (Rs): «يعبق الفكر الحر الفرنسي ومجمل حرب التنوير الفرنسية بشيء من رائحة حركة دينية. أجدني مفاجأ بالألوان القاتمة. . . . -»

(١٨) صياغة أولى لهذه الفقرة ،كما ترد في دفتر المخطّطات والخواطر الأوليّة N VII 1 : «في الدلالات المتنوّعة للدين: يكون الدين بالنسبة للأقوياء والأكثر استقلالية وسيلة للسيطرة، أو ل للركون إلى الهدوء بعيداً عن متاعب الحكم (على غرار البراهمانيين)؛ وبالنسبة لنوع من (أناس) أقوياء في طور النموّ يكون عاملا يمنحها فرصا لتمتين الإرادة ودربة على التجلّد والمكابدة، وأو لتعلّم اللين (كما هو الحال لدى لليسوعيين)؛ وبالنسبة لعامة الناس فهو يمنحهم أفقا آمنة وعزاء، وتعاضدا في السراء والضراء وضربا من حلاوة العيش المشترك من خلال المعنى الذي يمنحه لكل أعمالهم.»

(١٩) صياغة أولى مكثفة لهذه الفقرة في (N VII 1): «مواساة المتألمين، وشد عزائم الضعفاء، والأخذ بيد من تعوزهم الاستقلالية، ترويض الجموحين

وتدجينهم؛ -لكن ، من الجانب الآخر تدمير الأقوياء (أو إرباك وثوقهم على الأقل)، إصابة الآمال الكبرى بالوهن، والاشتباه في كل سعادة كبرى وكل جميل، في الثقة بالنفس، وغرائز الفحولة والكبرياء والنزوع إلى السيطرة: تلك هي المهمة القارة الأبدية التي ظلت تضطلع بها المسيحية .»

(٢٠) نجد صياغة أخرى لهذه الفقرة في دفتر M III 1, 139 المؤرخ ب: ربيع-خريف ١٨٨١ والذي يحتوي على شذرات ومخططات لكتاب «العلم المرح» سنكتفي بإيراد الجزء الأخير منها لكونها جاءت مختلفة عن النهاية التي صاغها نيتشه في ما بعد لهذه الفقرة: «يبدأ تاريخ المعرفة مع تاريخ *الإبداع الخيالي**. ومن المحتمل أن مجريات تحصل الآن في حواسنا وهي تُقحم متخيَّلات لنا داخل الطبيعة (ألوان؟ تناسقات؟). كل هذه الكائنات، وهؤلاء القرويّون مثلا ، هي مما يتشكل سريعا من قبل مخيلتنا وليست أشياء منحت نفسها لنظرنا بدقة: تماما مثلما يحدث مع صفحة لا نقرأها قراءة دقيقة، ويكون الجزء الأكبر من المعنى الذي يحصل لدينا منها مما *حزرناه* ، وغالبا مما حزرناه *خطأ* (في قراءتنا السريعة). والقليل النادر من الناس فقط باستطاعتهم أن يقولوا حقا ما الذي يحصل من حولهم ، أو ماذا يحصل في داخلهم».

(٢١) صياغة أولى في (W I, 1): الأنبياء كمنبر شعبي: لقد صهروا مفاهيم «غني» و«كافر» و«شرير» و«عنيف» في مفهوم واحد. هنا تكمن أهميّة *الشعب اليهودي*: إنها انتفاضة العبيد في المجال الأخلاقي. (اليهودي والسوري كعنصرين ولدا للعبودية حسب تاسيتوس). «البذخ كجريمة»، وعبارة (إيبيون Ebion) «فقير» كمرادف لـ«قديس» و لـ«حبيب الله».

(٢٢) صياغة أخرى في (W I 6): «ومع ذلك أي نعمة لدواب القطيع في ظهور القائد المطلق ، ولنا في الأثر الذي أحدثه ظهور نابليون آخر مثال عظيم على ذلك. وفي أوساط أكثر رهافة هناك لدى جميع رجال المعرفة والباحثين من المرتبة الدنيا حاجة مشتركة إلى فلاسفة ذوي نفوذ مطلق: وهؤلاء الأخيرين هم الذين يتولون في ظروف محددة بعينها وضع/تحديد وتأسيس ألواح القيم المعرفية لآلاف من السنين ، كما فعل أفلاطون على سبيل المثال -وليست المسيحية سوى أفلاطونية في صيغة رعاعيّة*- وكما نرى اليوم في نصف القارة الآسيوية التي ما زالت تتبع صيغة شعبية لنظام سامخيا من إعداد بوذا».

* أنظر المقدمة ، في صياغة مختلفة قليلا.

(٢٣) (ابتداء من: عندها ينشأ النموذج الخارق. . . حتى آخر الفقرة) يرد هذا المقطع الأخير في صياغة أخرى في مسودة N VII 1, 71: «عندها ينشأ ذلك

النموذج من الطبائع المسيطِرة من أمثال قيصر ونابليون. لذلك يظهر أقوياء الرجال خلال عصورالتمازج الكبير للأعراق والطبقات، يعني في أزمنة التطلع الكبير إلى سعادة القطعان، مثل أثينا في عهد بيريكلس، وروما عصر قيصر، وأوروبا عصر نابليون. علما وأن هذه الفترة الأخيرة ما تزال في بدايتها؛ وبالنسبة للعصور المستقبلية البعيدة يُنتظر ظهور نوع إنسانيّ أرقى بكثير، عندما ستحصل الاختلاطات الكبرى للأعراق ، بينما تكون الوسائل المادية والذهنيّة قد بلغت في الآن ذاته حجما هائلا من التطور.»

(٢٤) صياغة أولى لبداية هذه الفقرة (من : لنقلها. . . .حتى منتصف الجملة الثالثة: . .الأحكام الأخلاقية): «لقد قمت باكتشاف، غير أنه ليس بالأمر السارّ؛ فهو مما لا يلائم كبرياءنا. فأيّا كان تصورنا للحرية التي تميزنا نحن المفكرون الأحرار-إذا نحن أحرار «فيما بيننا»- ، فإن هناك دوما شعورا في داخلنا نحن أيضا سيجد نفسه مهانا إذا ما عمد شخص ما ، دون ملاطفة في التعبير، إلى وضع الإنسان في خانة الحيوانات : فذلك مما يعد خطيئة تقريبا، ويستوجب بالتالي الاعتذار، أن أجد نفسي، وأنا أتكلم عن الإنسان، مرغما عن الكلام عن «قطعان» و «غرائز قطيعيّة» وما شابه ذلك من العبارات. لكن هنا بالذات يكمن اكتشافي، ويتمثل في أنني وجدت أن كل أوروبا والبلدان الواقعة تحت تأثيرها مجمعة كلها على. . . .» (W I 4, 37)

(٢٥) صياغة أولى ترد في مسودة دفتر (W I 6): «والحركة الديمقراطية تواصلٌ للمسيحية: غير أن رغبات تلك الغرائز وأحلامها لم تجد في ذلك بعدُ ما يشبعها عرى نحو يرضيها، ويشهد على ذلك صراخات شكوى كل الإشتراكيين . إذ الاشتراكية وحدها هي الشكل النهائي لأخلاق القطيع الحيواني : يتجسد ذلك في مقولات «حقوق متساوية للجميع» الذي يجد تواصلا له في «مطامح متساوية للجميع»، وبالتالي «قطيع دون راع»، وبالتالي «سلم يسود الأرض»، وبالتالي «الجميع في وئام مع الجميع» . *أنظر إنجيل لوقا: الإصحاح الثاني ١٤ : «المجدُ لله في الأعالي وعلى الأرضِ السلامُ وبالناسِ المسرّةُ.»*»

(٢٦) صياغة أولى، أو ربما مجرد مخطط أولي لهذه الفقرة نجدها في دفتر المخططات والشذرات المهيّئة لكتاب «ما وراء الخير والشر» (W I 4): «إن المهمة التي تتمثل في إرغام الناس على قرارات جديدة سيتحدد بها مستقبل الإنسانية بكليتها تجعل الحاجة ملحة إلى قادة من رجال ذوي نمط تفكير مما لم يعرف أحد مثيلا له حتى الآن. وصورة هؤلاء القادة هي التي تحوم بصفة مستمرة أمام ناظري: والوسائل التي ستسمح بإيجادهم، والأفكار التي

سيتمكنون بفضلها من تحمّل العبء الفظيع لمثل هذه المهمة؛ تلك هي مشاغلي الآن. ولعله ليس هنامك من ألم أشد من أن نرى رجلا من طراز غير معهود ينحرف عن طريقة وينحط. ومن كان له أن يتمثل في ذهنه يوما لعبة الصدف الشنيعة التي ظلت تتحكم وتتلاعب بمصائر الشعوب وبعلاقات الشعوب وشقاقاتها، يجد نفسه يتعذب بألم ليس له من مثيل؛ يتألم وهو يتمثل تلك السعادة المثيرة التي كانت ستحصل من خلال تجميع ومراكمة لتلك الطاقات والقوى، وأية أشياء سخيفة بائسة تجعل صيرورة من الطراز الأعظم تنهار فجأة وتتحطم. . . .»

(٢٧) صياغة أولى لهذه الفقرة في دفتر المسودات (W I 6, 52): «يتراءى قرننا التاسع عشر في ذراه كما في أعماقه كقرن الارتياب بامتياز، أي في هيأة امتداد مخفّف للقرن الثامن عشر. كل العقول المرهفة من العلماء والفنانين في عصرنا الحاضر ريبيّون، حتى وإن كانوا لا يودون الاعتراف بذلك لأنفسهم ولغيرهم من الناس. وقد أضحى التشاؤم بوصفه طريقة تفكير رافضة يمثل استثناء؛ ويمكننا أن ننسبه إلى ميل إلى الراحة يميّز كل عصر ديمقراطي. وعندما ينحط الريبي، أي عندما يغدو كسولا يتحول إلى متشائم. غير ان عقلا نشطاً يعرف كيف يظل محتفظا بشيء من حرية العلم والوعي لا يقول اليوم «لا»، بل : «لا أجرؤ على الدخول» . أو: «الباب هنا مفتوح، لكن لِم ينبغي أن أسارع بالدخول؟» لِم الفرضيات المتعجّلة؟ لم ينبغي أن نقوّم كل معوجّ؟ ولِم الحرص على سد كل ثغرة بخرقة ما؟ لننتظر قليلا؛ فللاّيقين أيضا سحره؛ وأبو الهول هو أيضا ساحرة من نوع كيركا.» هكذا يعزي الريبيّ نفسه،-والحق أنّه بحاجة إلى شيء من العزاء. إن الريبة تعبير عن نوع من تكوينة فزيولوجية متنوّعة تتطور من خلال تلاقح فجئي وكبير لأعراق وطبقات مختلفة. هناك تكون التقديرات القيَمية المتوارثة عن أصول مختلفة في صراع ضد بعضها البعض، تعيق بعضها البعض في سعيها إلى النموّ والتمتّن ، وتكون كلها مفتقرة في الجسد كما في الروح إلى توازن وثقل ونقطة ارتكاز وانتصاب واثق. وتكون الإرادة هي أوّل ما يطاله الضعف والانحلال داخل هذه التجارب الاختلاطية للطبيعة؛ ويضمحل بذلك ما كان لها في البدء من استقلالية وتلقائية في القرار. لا أحد يغدو بعدها سيّد قراره؛ من هنا ذلك الخوف المعمّم من كل مسؤولية صغيرة أم كبيرة خوفَ المرء من الأشباح المرعبة؛ ومن هنا ذلك النزوع إلى البحث عن أغلبيّة ما يدسّ المرء رأس وضميره داخلها. أما من سيكون اليوم وريث إرادة جريئة مسيطرة قوية- والصدف تفسح مجالا لمثل هذه الاستثناءات دوما-، ذاك سيكون أكبر

حظوظا من أي وقت مضى لبلوغ السيادة والسيطرة. وإنّ النوع غير الواثق للجمهور الواسع ينادي اليوم ويطالب بأولئك القياديين ذي الأوامر المطلقة.

(٢٨) صياغة أولى نجدها في دفتر (W I 5) تختلف في هذا الموضع عن الصياغة النهائية التي بين أيدينا: «... وقد كان مخطئا؛ فقد خدعة الحكم المسبق على الريبية، وكرجل ذي طبع ذي أفق ضيّق قرويّ لم يكن باستطاعته أن يميّز أن هناك نوعين من الريبية؛ وريبية الضعف، *وريبية الشجاعة وفائض الحيوية*. كان يشغل ذهنه النوع الأول عندما كان يعيب على ابنه انسياقه إلى الالحاد الفرنسي *والظرافة* والولع الأستطيقي. حوربما لم يكن خطر الانحراف إلى هذا الاتجاه غير هيّن في الحقيقة. غير أن ما حصل هو أن النوع الثاني من الريبية الذي له صلة حميمة بعبقرية الحرب والغزو وهو الذي شق طريقه إلى ألمانيا لأول مرة مع فريدريش الإبن: نوع جديد من فحولة جسورة أكثر أهمية من طول القامة وصلابة الجسم وغيرها مما يمكن أن يعد معيارا لرجولة جنود مشاة لا غير. ينتمي إلى هذا الصنف *الجسور* من الريبية أفضل ما أنجبت ألمانيا حتى ذلك الوقت من قيادات فكرية وعقول مغامرة؛ ويعود التأثير الذي أصبح لألمانيا في كامل أوروبا بفضل نقادها وفيلولوجييها ومؤرخيها إلى ذلك العنصر الذي لا يخلو من مخاطر في الريبية الجسورة وفي الروح «العسكرية» «الفريديريشيانية» التي أصبحت تميّز الحياة الفكرية. وقد مثلت شخصيات ذلك الجنس الجسور الجميل لليسينغ وهردر وكنط وفريدريش أوغست فولف، ونبوهر، وكل من شابههم علامات صحوة فحولة وشجاعة ألمانيتين قد شكل جنود فريدريش الأكبر طلائعها الفيزيولوجية: أجل، كانوا العلامات المميزة لجنس جديد بدأ يظهر شيئا فشيئا للوجود ويغدو قويّا. وفي الأثناء ظل النوع الواهن والضامر للألماني القديم يواصل العمل على حفظ وجوده (وما زال موجودا حتى اليوم)، بل ويسيطر بين الحين والآخر (كرومانسية ألمانية وموسيقى ألمانية خاصة)؛ وظل العالم الأجنبي غالبا ما يقف محتارا لا يدري وفقا لأي من المقياسين يمكنه أن يحدد الوزن الحقيقي لـ«الألمان» (ولعل ألمانيا الحالية مدينة لتلك الحيرة وذلك التردد بجزء كبير من نجاحاتها الفجئية). ولعل تلك الصورة التي ظل العالم الأجنبي لعدة قرون يتمثلها عما يسمى عالِما ألمانيا و«شاعرا» ألماني - وذلك عن وجه حقّ- هي ما عبرت عنه عبارة التعجب الغريبة التي نطق بها نابليون عندما رأى غوته -وغالبا ما لم يقدَّر العمق الحقيقي لتلك العبارة- : "Voilà un homme!" -«هذا رجل!»، -وتعني: هذا هو الرجل؛ رجل حقّا! وأنا الذي كنت أنتظر أن أجد شاعرا ألمانيا، لا غير!»

(٢٩) صياغة أولى لهذه الجملة الأخيرة، (W I 2): «هناك منزلة أرستقراطية للمشاكل تدفع عنها العديد من الناس. وذلك يعني أن لهذه المشاكل علاقة بأحوال راقية وخارجة عن المعهود لا تكون حاصلة إلا عند قلة من الناس. ولا فائدة إطلاقا في أن تهب عقول اعتيادية مرنة (مثل إدوارد فون هارتمان) أو تجريبيون عديمو البراعة (مثل أويجن دوهرينغ) للاهتمام بمثل هذه المشاكل؛ فطبيعتهم لا يحق لها أن تلج هذا المجال: تظل الأبواب مغلقة في وجهها، أو ... تقابل بمجرد ابتسامة.»

(٣٠) صياغة أوليّة لهذه الفقرة: «نريد أن نصقل نزاهتنا ونرتقي بها إلى مستوى تغدو معه بمثابة قمة ذهبية ترتفع فوق عصرنا المتبلد القاتم. وحيث يبدو لنا أنها غدت ضعيفة فاترة ومترددة نريد أن نرسل إلى نجدتها/ مساعدتها بفضولنا وشجاعتنا المغامرة، وشناعة قسوتنا وبـ«توقنا إلى الممنوع» (nitimur in vetitum)*، وكل شيطنتنا لنجدة وإنقاذ فضيلتنا الأخيرة الوحيدة: ولربما سيتم الخلط بينها وبين هذه القوى المساعِدة، لكن مالذي يهمنا في ذلك!»

* nitimur in vetitum – أنظر الهامش السفليّ للفقرة نفسها على صفحة ٢٢٦.

(٣١) صياغة أولى لبداية هذه الفقرة (W I 6): «إن مريد المعرفة الذي استطاع أن يكتشف أن قانون التلف والهلاك يواصل عمله داخل وإلى جانب كل مسار تطور وأن التفكك والاضمحلال الحتميّيْن ضرورتان يقتضيهما الخلق، سيكون عليه أن يتعلم كيف يجد متعة في هذا المشهد كي يستطيع تحمله؛ وإلا فإنه لن يغدو كفء للمعرفة. يعني ذلك أنه لابد أن يكون قادرا على نوع شناعة مرهفة ويمضي بكل ما أوتي من صرامة في تربية نفسه عليها. وإذا ما كانت قواه تحتل مرتبة أعلى في سلم تراتب القوى ، وإذا ما كان هو نفسه مبدعا لا مجرد مشاهد، فإنه لن يكتفي عندها بأن يكون قادرا على الشناعة في مشاهدة العديد من أنواع العذاب والانحطاط والهلاك؛ بل سيكون على مثل هذا الرجل أن يكون قادرا على أن يباشر بمتعة إنجاز أفعال تسبب الألم، وأن يغدو عارفا للشناعة بما تفعله يده لا بما تخبره به عين عقله فحسب. إن النفاق المتذرع بالفضيلة يرفض كل كلام عن أن كل حضارة راقية ترتكز في جزء هام منها على تربية الشناعة وروْحنتها، أن المتعة الموجعة التي يجدها الإنسان في التراجيديا ، مثلها مثل متعة مشاهدة مصارعة الثيران وحضور الإعدامات على المحرقة ومصارعات الحلبة الرومانية ، ليست شيئا آخر غير شناعة، وأن جلّ ما يحدث تأثيرا مريحاً في ما يسمى بالتعاطف المأساوي، إنما يستمد عذوبته من خليطٍ من مكونات الشناعة ....»

(٣٢) غوته، فاوست -الفصل الخامس: «أمام البوابة» على لسان فاوست في حوار مع فاغنر.

"Zwei Seelen wohnen, ach! In meiner Brust,
Die eine will sich von den andern trennen;
Die eine hält, in derber Liebeslust.

(٣٣) Jean Paul, *in der Rezension von Fichtes Reden an die deutsche Nation, Heidelberger Jahrbücher 1810*

(٣٤) صياغة أولى في المخطوطة المعدة للطباعة Dm: «. . .عندما احتج بعنف على وقاحة التزلف الكاذب والمبالغات المشطة لفيخته (وبالفعل سيكون على المرء أن يمضي حتى السنوات الأخيرة من حياة فاغنر *وورقاته البايروتيّة* كي يلتقي بمستنقع من الغرور ومن قلة الوضوح والتعصب التويتوني (الألماني -م-) مشابه لخطابات فيخته للأمة الألمانية» (أنظر الهامش السابق -م-)

(٣٥) جملة إضافية في مخطوطة *Rs* (W I 8) تم حذفها فيما بعد: « إحساس يهودي كان ذلك الذي يمتد فوق الطبقة العميقة لأفكار شوبنهاور، وكانت لعنة يهوديّة تلك التي كان ألقى بها ذات يوم علينا نحن اللاأخلاقيين. ولم يكن شوبنهاور على حق في ذلك؛ غير أننا ممتنّون له بذلك.»

(٣٦) صياغة أولى لهذه الجملة كما ترد في N VII 1, 126: «الأنكليزي أكثر قتامة، أكثر حسيّة، اقوى إرادة وأكثر «عاميّة» من الألماني-وبالتالي أكثر تديّنا! إنه *أكثر حاجة* إلى المسيحية. ومجمل مسيحيتهم، بما في ذلك لدى كارليل الذي يمثل صداه الأدبي، تفوح بشيء من رائحة *السأم* والإفراط في تناول الكحول: إنها ولسبب وجيه السم المضاد لكلا العاهتين.»

(٣٧) صياغة أولى للجملتين الأخيرتين من هذا المقطع (من: غير أن ما نعيبه. . . . حتى آخر الفقرة): « . . .افتقاره إلى حسّ الإيقاع: وفي هذا المضمار يستوي أفضل الكتاب وخطباء البرلمان في أنكلترا. فكارليل الذي ذكرناه آنفا مثلا، وهو أكثرهم ثراء، إذا ما تكلمنا عن ثراء الروح، يتحرك مثل مزارع ورجل ثقيل فجّ، حتى وهو يتكلم بمنتهى الحماس والاندفاع العاطفي -كي لا ندع جانبا الكلام عن الأرواح الصفيحية والخالية من كل حسّ موسيقي من أمثال جون ستوارت ميل، أو سبنسر الذين يتحركان بالفعل مثل دمى معدنيّة. وأخيرا لننظر إلى أجمل الأنكليزيات وهن يمشيْن: ولن أطلب منكم -حتى لا أكون مشطا في الطلب- أن تستمعوا إليهنّ وهنّ يغنّين.»

(٣٨) تتمة للفقرة تم حذفها من المخطوطة المعدة للطباعة *Dm* : «إن «أنسنة» أولئك البرابرة -وهي في جزء منها عملية غير مقصودة، تنطلق من تلقاء

نفسها بعد أن تتحدد علاقات القوة وتترسخ بصفة تقريبية- هي في جوهرها صيرورة تليّن وضعفٍ، وتجري على حساب تلك الغرائز بالذات التي يعود إليها الفضل في انتصار أولئك المتوحشين وقدرتهم على الاستحواذ والتملّك؛ وفيما هم يتبنّون على هذا النحو الفضائل «الأكثر إنسانية»، ربما بقدر مهيب من العنف أيضا وبما يلائم «نزعة السّلب» التي تسكنهم حتى في ما يتعلق بالمسائل الأكثر روحانيّة، بوصفهم متغلبين على ثقافات وفنون وديانات قديمة، -تكون هناك صيرورة معاكسة تتطور شيئا فشيئا لدى الطرف المقابل للمهزومين والمضطهدين والمستعبدين الجدد. وبحسب ما يلاقونه من معاملة لينة وأكثر إنسانية، وبما يتم لهم بالتالي من تفتّق جسديّ، يتطور في داخلهم العنصر البربريّ، الإنسان الذي تمتّن كيانه الجسدي، نصف الحيوان برغباته الوحشيّة: البربريّ الذي سيشعر بنفسه في يوم ما على قدر كاف من القوة للتمرد على أسياده الذين تأنْسنوا (بعد توحش)، أي تليّنوا. وتبدأ اللعبة من جديد: وتكون شروط بداية حضارة جديدة قد غدت مهيَّأة من جديد. ما أردت أن أقوله هو: تحت الضغط الذي تمارسه الطبقات والحضارات الراقية السائدة هناك دوما ضغط معاكس ينشأ ويتطور ببطء من تحت، ضربٌ من مؤامرة شاملة هائلة غريزية غير مدبَّرة (عن وعي) لصالح حفظ وتطور كل المسودين، المستغَلّين، المعدمينن، الرديئين، شبه الفاشلين، كاستياء عبيد وتمرد عبيد ينمو ببطء وعلى مدى طويل، خفيّا في البداية، ثم أكثر فأكثر وعيا بذاته، كغريزة مناهضة لكل نوع من الأسياد، وبالنهاية لفكرة «السيادة» نفسها، كحرب لا هوادة فيها ضد كل أخلاق متأتية عن حضن ووعي نوع إنساني أرقى ومسيطر، نوع تكون العبودية في أي شكل من أشكالها وتحت أي إسم ضرورة أساسية وشرطا لوجوده. تظل الأمور ماضية على هذا النحو حتى اللحظة التي يصبح فيها طبقة العبيد هذه على قدر كاف من القوة -بربريّة بما يكفي!- كي تصبح بدورها سيّدة: وعندها تظهر مباشرة القوانين والأخلاقيات المعاكسة مجددا. ذلك أن لحالة السيّد غرائزها، مثلها مثل حالة العبد: «الطبيعة» قائمة في كليهما، -و«الأخلاق» نفسها جزء من الطبيعة هي أيضا.»

(٣٩) في دفتر المسودات والخواطر والتخطيطات W I 3, 72 نجد صياغة أخرى لبداية هذه الفقرة: «إن الفساد داخل طبقة أرستقراطية يعني شيئا آخر غير ما يعينيه داخل طبقة خدم وخاضعين. لدى الطبقة الأولى يكون الافراط في اللين وتقلص طاقات الإرادة فساداً. بينما يكون تنامي الاستقلالية فساداً لدى الطبقة الثانية، كما هو الحال بالنسبة لأويجن دوهرينغ مثلا. وأصحاب الامتيازات في الثورة الفرنسية مثال عن الفساد.»

(٤٠) نقرأ في المخطوطة Dm تتمة لهذه الجملة كما يلي: «. . . و لا أجرؤ على ذكر أسماء كثيرة ممن هم أكبر من هؤلاء، لكنني أعنيهم.»

(٤١) «. . .عقول صلفة (المرارة الساخرة لهاملت، -حالة غالياني).» يضيف نيتشه في المخطوطة المعدة للطباعة *Dm*

(٤٢) Galiani, *Lettre à Madame d'Epinay 2,276*

(٤٣) جاءت هذه الفقرة في المخطوطة النهائية تحمل عنوان «حكمة الماندرين». قبضة من الأفكار (السيئة). وفي W I, 8, 209 تحت عنوان «توطئة مونولوج». وقد وردت في صياغة أولى في دفتر N VII 2, 58 كالآتي: «. . .أشياء كنت أعرفها جيدا، ومنذ مدة طويلة من الزمن، عواصف تمضي مبتعدة وقد فترت حدتها، أحاسيس ذابلة فقدت عطرها: -أفكار (فراشات وسحالي) قد سبرت كل أغوارها، لأنها لم تعد قادرة بما يكفي على استثارتي وتعذيبي، شيء يطمع بالأحرى في أن يصبح «حقيقة»، أعني بذلك خالدا ومضجرا على نحو قاتل. . . . شيء عجيب ومليّن قد شرع في الانسلاحف عن جدّته . . . مقابر حيث أكاليل زهور صغيرة، وشواهد قبور ونتوءات تراب صغيرة وأشياء مسكونة بالموت تحاول أن تذكر كلها بما كان في يوم ما متحركا بنسغ حياتيّ. . .»

المحتويات

مقدمة ٧

الفصل الأول: عن الأحكام المسبقة للفلاسفة ١١

الفصل الثاني: العقل الحر ٤١

الفصل الثالث: الكائن الديني ٦٩

الفصل الرابع: حِكم وفواصل ٩١

الفصل الخامس: عن التاريخ الطبيعي للأخلاق ١١٣

الفصل السادس: نحن العلماء ١٤١

الفصل السابع: فضائلنا ١٦٥

الفصل الثامن: شعوب وأوطان ١٩٧

الفصل التاسع: ما النبيل؟ ٢٢٩

من فوق الجبال الشواهق: نشيد الختام ٢٦٩

هوامش وتعليقات ٢٧٥

هذا الكتاب

يا لخبث الفلاسفة! لم أعرف قط عبارة أكثر لذعاً من تلك التي أطلقها أبيقور على أفلاطون والأفلاطونيين عندما سماهم بـ: ديونيسوكولاكس. وتعني حسب ظاهر لفظها «متملّقو ديونيسيوس»، أي زبانية الطاغية، ومتزلّفون له. غير أنه يعني بذلك أيضاً أنهم «كلهم ممثلون، وما من شيء جديّ فيهم» (إذ عبارة «ديونيسوكولاكس» Dionysokolax كانت تسمية شعبية تطلق على الممثل). وهذا المعنى الأخير هو الفحوى الحقيقية للسهم الشرير الذي أطلقه أبيقور على أفلاطون: كانت تسيؤه هيأة العظمة، وبراعة استعراض الذات التي كان يتقنها أفلاطون وتلامذته، الأمر الذي لم يحذقه أبيقور معلّم ساموس العجوز الذي كان يجلس مختفياً داخل حديقته الصغيرة بالقرب من أثينا ليحرر ثلاثمائة كتاب. من يدري، ربما فعل ذلك عن غيض وتكبّر على أفلاطون؟ -وكان لابد من ألف سنة كي تكتشف اليونان أخيراً من كان حقّاً أبيقور، ذلك الإله المختفي في حديقته. -لكن، هل اكتشفت ذلك حقّاً؟

ISBN 978-9922605029

الغلاف : سكينة صلوّن